آية الله السيد محمد تقي المدرسي

التوحيد

يتجلى في الحياة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آية اللـه السيد محمد تقي المدرسي

التوحيد
يتجلى في الحياة



الكتاب : التوحيد يتجلي في الحياة

المولف : آية الله السيد محمد تقي المدرسي

الطبعه الاولي : ١٤١٨ هـ . ق

المطبعة : ستاره

الناشر : انتشارات مدرسي

عدد النسخ : ١٠٠٠

السعر : ٤٠٠٠ ريال

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الهداة الميامين .

التوحيد صبغة الحياة ، وضمير العالم ، وغيب الوجود .. وحين يعي الانسان حقائق التوحيد ويتصل قلبه بنوره السني ، فانه يتواصل وكل سنن الحياة وانظمتها ، ويتناغم مع معاني العوالم ، ويتفاعل مع غيب الوجود ..

ولكن اذا يتجافى القلب عن هذا النور ، واحتجب عنه بالمخلوقات ، فانه يرتطم بالحواجز التي تمنعه عن ذلك الضمير ، ويعوق مسيرته التصاعدية الى ذلك النور .

واذا تأملت في آيات القرآن واحاديث الرسول وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ، فانك تجد الهدف الاسمى لكل التعاليم والاحكام ، الارتفاع بك الى ذلك الافق المبين ، حيث يتصل قلبك عبر العمل بتعاليم الرب واحكام الشريعة ؛ يتصل بذلك النور البهي ، نور الله الساطع في كل شيء ، والمتجلي في كل افق .

وكم هي خسارة الانسان الذي يمد في عمره طويلا ، ويقضي آلاف الساعات في هذه الدنيا دون ان يحظى ولو في ساعة واحدة منها بلقاء ربه ، ويسعد بمجالسته ومحادثته ومناجاته ، ويشرب من ورد حبه ، ويصدر عن ريّ رضوانه .. ولكي لا نبقى – نحن ايضا – في ظلام البعد عن الرب ، ونشقى بعطش لقائه .. فعلينا ان نبادر

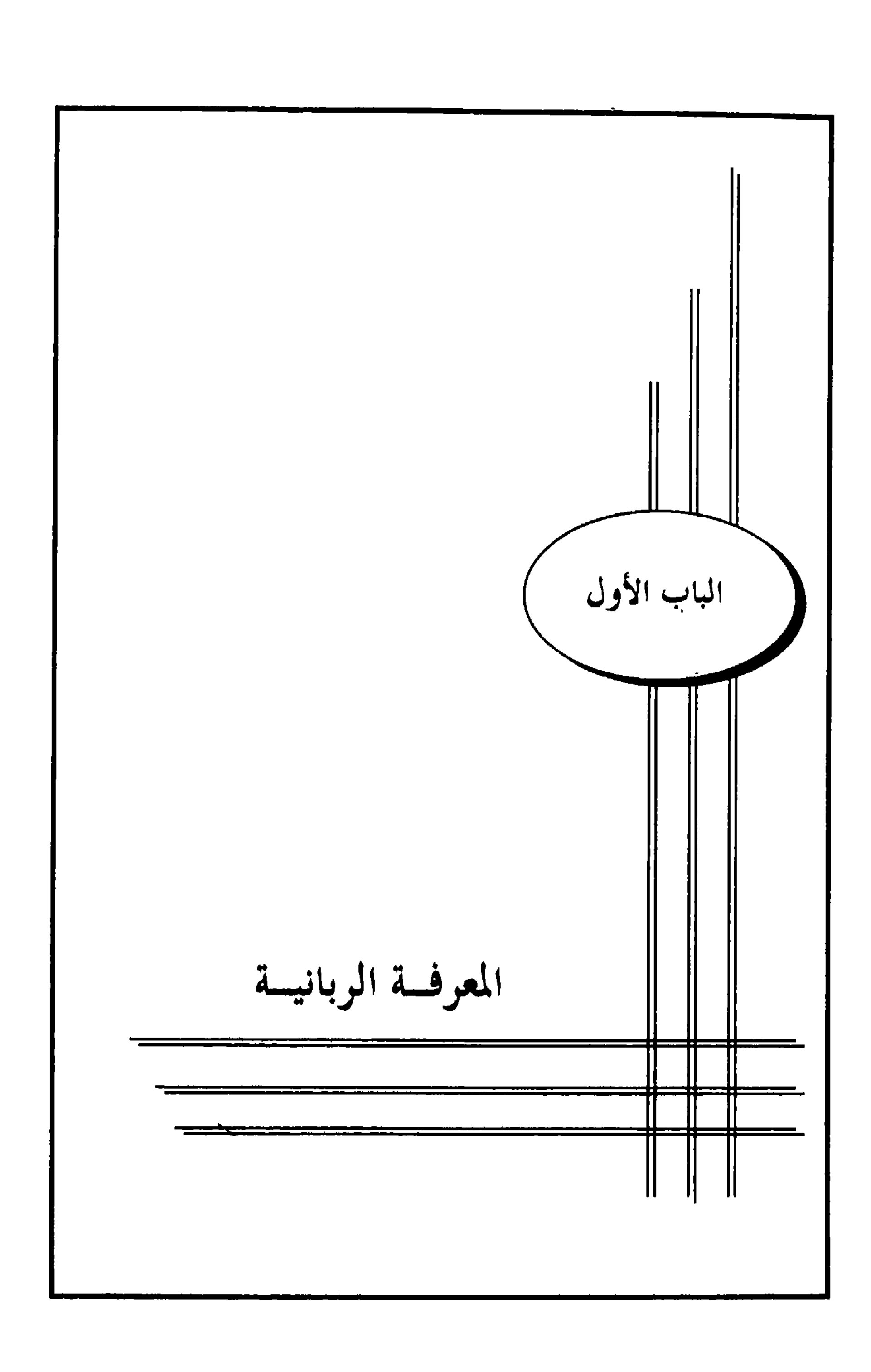
بغسل افئدتنا بماء التوبة ، وتطهيرها عن الحجب بالذكر والشكر والتسليم والانطلاق في رحاب رضوانه بالسعي في سبيل معرفته .

وما هذا الكتاب الذي بين يديك الا نفحات في تجليات التوحيد في الحياة ، حيث نرجو ان يكون وسيلة للذكرى ، وبصيرة للمعرفة ، وسبيلا الى الهدى بإذن الله سبحانه .

نسأل الله ان يوفقنا والقارىء الكريم الى ما يحقق رضاه ، ويزيدنا معرفة به ، وزلفى منه انه ولي التوفيق .

محمد تقي المدرسي

١١/ ربيع الثاني / ١٤١٧ هـ



الباب الأول

المعرفـــة الربانيـــة



الفصل الأول

معرفة اللـه قمـة الغايات

ترى هل خلق الانسان من أجل ان يأكل ويشرب ويعمـل وينتـج وينشـغل بسـائر الأمور المادية ، وهل ستسد هذه الممارسات فـراغ النفـس وحاجتهـا الى ان تعيـش مستقرة ومطمئنة ؟

ان الناس على صنفين في هذا المجال ؛ اي في هدفيـة هـذه الحيـاة ، فهنـاك مـن استطاع ان يشبع حاجاته فاطمأنت معيشته وعرف كيف يتعامل مع الحياة حتى يحين أجله ويمضي الى ربه مطمئنا بالحقيقة التي عرفها ، وهؤلاء هـم المؤمنـون بـالله مـن الناس وهم الصنف الأول .

اما الصنف الثاني - ولعله هو الغالب في المجتمعات الانسانية - فـانهم يبقـون علـى تيههم وضلالهم ومعاناتهم من فراغ الحياة مهما وفرت لهم من ملاذها وبهارجهـا ومـا تشتهيه انفسهـم فيها ، فهم يبقـون فـي حاجة مستمرة الى اشباع الجانب الروحي من

حياتهم ، ويظلون يعيشون فراغا في حياتهم فلا يصلون الى الشعور بالسعادة واللـذة الحقيقية ، ·ذلك لانهم غير مؤمنين في واقع انفسهم وان ادّعوا الايمان ، ومثل هـؤلاء يظلون يعانون من القلق العميق في انفسهم ، وتبقى قلوبهم في توتر ، واضطراب حتى يسلموا انفسهم الى بارئها .

وعلى هذا فان الأموال والبنين والقناطير المقنطـرة مـن الذهـب والفضـة والقصـور الفخمة ... كلها لايمكن ان تسد الحاجة الاساسية في النفس الانسانية ، ولايمكـن ان تشعل فيها شمعة السعادة والطمأنينة الحقيقية ، ومـن المسـتحيل ان توقـف اضطـراب الروح وقلق القلب ، فالذي يفعل كل ذلك انما هـو الايمـان بـالله الواحـد الاحـدي ، الأبدي السرمدي ، الرحمان الرحيم ، واللطيف الكريم ، فعنـده – سـبحانه وتعـالى – تجد النفس برد اليقين وفيء الايمان .

بالايمان تستشعر النفس الراحة :

وعندما تصل النفس الى شاطئ الايمان وتتنسم نسـيم الوحدانيـة المطلقـة فهنـاك يستشعر الانسان الراحة ، وعندما تجد النفس نور الايمان وتتنعـم بالاتصـال الروحـي باللـه – عز وجل – فحينئذ يزول القلق والاضطراب منها ، فتسـعد وتطمئـن بضالتها التي عثرت عليها كما يقول – عز مـن قـائل – : ﴿ **يَآ أَيَّتُهَـا النَّفْـسُ الْمُطْمَئِـنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾ (الفجر / ٢٧ – ٢٨)

وفي دعاء عرفة يقول سيد الشهداء ابو عبد الله الحسين (عليه السلام) وهو يناجي ربه : " ما فقد من وجدك ، وما الذي وجد من فقدك " ، فالذي لايعرف ربه ولايجده من خلال الايمان فان قلبه سيبقى خاويـا فارغا مليئا بالتوتر وان اعطيته الدنيـا ومـا فيها ، ولعل في الحياة شواهد كثيرة تبرهن على صدق هذه الحقيقة .

والانسان الذي لايريد بلوغ الحقيقة العظمى ، ولايريد لقلبـه برد اليقين والطمأنينة ، ويصـر على ضلاله وغيـه ، فانـما هـو نمـوذج للانسان المغـرور الـذي خاطبـه اللـه

- عز وجل - قائلا : ﴿ يَآ أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (الإنفطار/٦-٧)

ان ابن آدم لابد ان يبحث عن ربه - من حيث يدري أو لايدري - ؛ فمرة يهتدي ، وتستقر روحه وتطمئن نفسه ويستريح قلبه المتعب ، ومرة يخطئ الطريق فيضل ، وقد يهتدي من بعد ذلك ان ابصر النور وفتح قلبه للهداية ، وقد يصر على الضلالة فيزداد تيها وخسرانا .

ساعة المناجاة عند المؤمنين :

ولا توجد ساعة ألذ وأحلى عند اولئك المهتدين من ساعة يختلون فيها مع ربهم فيدعونه ويناجونه ويتضرعون اليه بقلوب صهرها حب المعشوق السرمدي فازدادت تعلقا به - سبحانه - .

ولاشك ان ليس هناك مثل النبي (صلى الله عليه وآله) والائمة المعصومين (عليهم السلام) في دعائهم ومناجاتهم وانصرافهم الى ربهم ، وانشغالهم عن الدنيا الا عن ما أحل لهم الله - تعالى - من طيباتها واقتضته ضرورة الحياة ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يصلي ليله ونهاره ، وانها لاكبر متعة واجمل لحظات عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة (عليهم السلام) عندما يختلون بربهم الكريم يناجونه ويدعونه بقلوب ملؤها الخشوع ، وعيون تنساب منها الدموع ، وحناجر يزفر منها الانين ، وجوارح يهزها الحب والحنين .

وقد كانت الزهراء (عليها السلام) اذا وقفت ساعة الصلاة طال وقوفها حتى تتورم قدماها وكذلك ولداها الحسن والحسين (عليهما السلام) ؛ فاما المجتبى فقد كان اذا نهض وتهيأ للصلاة اصفر وجهه وارتعدت فرائصه حتى يكاد ينكره من عرفه من اصحابه .

ولو تعرضنا لحياة الامام زين العابدين (عليه السلام) فيكفي ما أطلق عليه من الكنى والالقاب دليلا وشاهدا على عظيم عبادته ؛ فهو زين العابدين وسيد الساجدين

حتى غدت عبادته وانشداده الى اللـه - سبحانه وتعالى - مثلا في العالمين .

وهكذا فانك - ايها الانسان - لم تخلق لكي تأكل فتشبع ، وتشرب لترتوي ، ولا لتنام وتشبع غرائزك الحيوانية ، بل خلقت لتكون خليل الله وكليمه ولتكون كما قـال الله - تعالى - في حديث قدسي : " عبدي اطعني تكن مثلي أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

الهدف الأسمى من الحياة :

فالهدف - إذن - هو بلوغ الكمال والمعرفة الالهية ، وما الحياة وما فيها من حركة ونشاط وعمل الا وسيلة لبلوغ هذا الكمال ، واسباب للاستمرار في الحركة التكاملية للانسان ، وحقا فان الانسان - ساعة الموت - ينفض يديه من كل شيء ولا يبقى لـه الا عمله ، وما بلغه من درجات في رحلة الكمال ، فأما ان يموت وهو لا يعرف شـيئا من الحقائق القدسية بل وهو غارق في التيه والضلال ، واما ان يموت بنفـس مطمئنـة ترجو رحمة وغفران ربها بما عرفته من القدس ثم عملت بحسب معرفتها هذه .

ان اللـه - سبحانه وتعالى - يريد من العبـد حين يدعـوه ويلهـج بثنائـه وحمـده وذكره لأسمائه الحسنى والتوسل بها ان يرفع من شأنه وقدره ومنزلته عنده ، ولذلـك فان أسمى الاهداف وأنبلها جميعا وأعظم نعم الله على الانسان في هذه الدنيا أن يبلغ هذا الانسان بايمانه وتقواه وورعه ومعرفته لربه مقام القرب منه - تعالى - إسمه .

وتأسيسا على ما سبق فان الحياة الدنيا وما فيها مـن مشـاغل ماديـة ليسـت هـي الغاية بل هي وسيلة لبلوغ الايمان ، ونيل رضا اللـه - عز وجل - بالشـكر والحمـد والثناء كما يشير الى ذلك - سبحانه - في قوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الجاثية/١٢)

الشكر غاية الغايات :

فالانسان - لوحده - غـير قادر على تسخير البحر ، بل ان الله - جلت قدرته -

هو الذي سخره له ، والهدف من هذا التسخير - كما هو واضح من الآيـة الكريمـة - ان تجري الفلك بأمره اولا ، وان يبتغي الانسـان مـن فضلـه ؛ اي لكـي يسـتثمر هـذا البحر بما فيه من ثروات هائلة ثانيا ، ولكي يشكر هذا الانسان ربه ثالثا ، وهذه هـي الغاية العظمى ، فالهدف ليس هو التمتع بالملاذ الدنيوية ، وانما هو ارتقـاء الانسـان ، وسموه الى مستوى شكر الله - تبارك وتعالى - .

وفي الحقيقة فان الانسان ينسى الشكر اذا ما جاع وربما يكون الجوع في كثير من الأحيان سببا في كفرانه ان لم يكن على مستوى من الايمان يعينه على صيانة دينـه ، اما اذا شبع فانه ينسى دعاء ربه ، ولذلك فان الحكمة الالهية اقتضت ان يمر المؤمنون في حياتهم بفترات يمرون فيها بظروف صعبة فيدعون ربهم ، وبـأخرى موأتيـة لكـي يشكروا نعمه .

الحكمة من الابتلاء :

فالحكمة من نزول المصائب والملمات الدعاء والضراعة كما قال - تعالى - :

﴿ فَاَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (الانعـام/٤٢) ، فهذه الضراعة هي التي تزيل قساوة القلب التي صنعتها الذنوب والمعاصي والغفلـة ، وبذلـك يكـون نزول المصائب سببا في التطهر من الذنوب .

لقد كان باستطاعة اللـه - سبحانه وتعالى - ان يقضي على الطغاة والظلمة فيزيلهم جميعا عن آخرهم خلال لحظة واحدة ، ويوفر للمؤمنين عناء الجهاد واعباءه ، ولكـن حكمته اقتضـت ان تجـري الأمـور في السـنن الـتي خلقهـا ، فجعـل الجهـاد وكلـف المؤمنين بخوض غماره من أجل رفـع شـأنهم وقدرهـم عنـده - سـبحانه - ولكـي يمحص ايمانهم واخلاصهـم وبالتالي يتيـح لهم الفرصة لأن يكونوا مع النبيـين والصديقين والشهداء والصالحين .

ولذلك نجد الرغبات الملحة والدعوات الصادقة عنـد المؤمنـين الرساليين في ان

يختم اللـه حياتهم بالحسنى وحسن العاقبة ، وهي الغاية الـتي يتمناهـا كـل مؤمـن ، ولكن الافضل والاحسن من ذلك هو الشهادة ولذلك جـاء في الدعـاء : " وقتـلا في سبيلك مع وليك فوفق لنا "

التزكية هدف العبادات الاول :

وعلى هذا فان الجهاد والشهادة في سبيل اللــه ، والصـلاة والحـج والصيـام كلهـا ممارسات تطهر روح الانسان ، وتغسل أدران ذنوبـه ان هـو اداهـا خـير اداء ، وبنيـة خالصة لله – عز وجل – فهذا هو الهدف مـن الفرائـض الالهيـة ، وهـذه هـي غايتهـا وفلسفة إدائها .

فبالاضافة الى الفوائد الجمة للصلاة ولكن الهدف الأسمى منها يبقى تزكيـة الـروح والقلب بالتقرب الى اللـه ، ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمن ، وناهية عن الفحشـاء والمنكر كما يقول رب العزة : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العَنْكَبُوت/٤٥)

من ذلك كله نستنتج الحقيقة التي يجـب ان لاتغيـب عـن أذهاننـا ونحـن نتحـرك ونعمل في سبيل اللـه – تعالى – ونصارع الظلم والباطل والطغيان ، وهي اننـا يجـب ان نجعل رضى اللـه عنا نصـب اعيننـا ، وهدفنـا الاول والاخـير ، فنـؤدي مـا علينـا بقلوب مطمئنة ، ونيات خالصة لله – عز وجل – ، واما قطف الثمار وبلـوغ الاهـداف المرسومة في التحرك ، فهذا أمر موقوف على اللـه بعد ان نؤدي ما علينا من السـعي والبذل والعمل لكي نبلغ هذه الاهداف السامية .

وصايا الى المؤمنين الرساليين :

وفي ختام هذا الفصل اوصي اخوتي المؤمنين :

اولا : ان يخلصوا النية لله قبل ان يقدموا على اي عمل ، لان النية – ان لم تترسخ

في النفس - فان هذا يعني ان اعمالنا وجهودنا ستكون مهددة بالسرقة والسلب من قبل الشيطان الرجيم الذي يتربص بنا الدوائر لكي يضلنا ويدخلنا جحيم الشرك والضلال برياء او غرور او كبر يدخله في انفسنا وما الى ذلك من مداخل الشيطان ومنافذه الى النفس .

ولقد جاء في الروايات ان العبد المخلص في صلاته تأتيه هذه الصلاة يوم القيامة بصورة انسان جميل الهيئة والمنظر ، اما الصلاة التي خالطها الرياء والعجب فانها تأتي لصاحبها بهيئة انسان قبيح المنظر ، تنفر منه الانظار ، وتزكم الانوف رائحته النتنة .

وهكذا الحال بالنسبة الى جميع اعمالنا الصالحة التي نقوم بها ، فلابد ان نخلص النية فيها .

ثانيا : علينا ان لانضيع جهودنا وتضحياتنا بأسف نظهره او ندم نبديه او بمنة نمنها على الله - جل وعلا - ، او بعجب وافتخار ومباهاة ، فلا تقل اني قدمت كذا وكذا ، واني جاهدت في الميدان الفلاني ، ولا تظهر الأسى والأسف على جهاد شاركت فيه ثم لم تنل ثماره ، او تحقق اهدافه المرجوة منه ، فمثل هذا الاحساس قد يضيع عملك وأجرك ، وربما يسخط الله عليك ويجعل عاقبة أمرك الى سوء ، فنحن عندما قدمنا وبذلنا المهجة والمال فان كل ذلك انما كان صفقة عقدناها مع ربنا لنشتري منه رضوانه وجنته .

ثالثا : احذّر المؤمنين هنا مرة اخرى من الرياء ومخاطر الشرك ، ولذلك فان من الأفضل لهم ان يعملوا ويجاهدوا في السر .

وبكلمة ؛ فليعمل الجميع بنية خالصة ، وجهد متواصل دون كلل او ملل ، وليحاولوا ان يدرؤوا عن انفسهم ما يفسد أعمالهم وجهودهم من مكدرات الاعمال وشوائبها كالرياء والعجب والافتخار والأنانية والعصبية الحزبية والفئوية ، ويا حبذا لو كانوا مجاهدين مجهولين لايعرف الناس أقدارهم بقدر ما يعرفهم الله - تبارك

وتعالى - لطيب نياتهم وعظيم اخلاصهم .

ولنعمل بكل طمأنينة لان العمل الخالص لايمكن ان يضيع أجره وثوابه عند الله :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة/١٠٥)



الفصل الثاني

الطريق الى معرفة الله

الموت هو النهاية المحتومة التي تنتظر الجميع ، ولكن الانسان غالبا ما يغفل عنها ولو زار هذا الانسان المقابر ورأى الحفر المتراصة التي يرقد فيها العشرات بل المئات من بني جنسه ، ولو اجال النظر في المغتسل ورأى كيف تقلب اجساد الموتى بين الايدي وكيف يعتصر الألم قلوب الآخرين الذين يتمنون في تلك اللحظات لو يستطيعوا رد احبائهم الى الحياة ... لو انتبه الانسان الى كل ذلك لأدرك بشكل عملي انه هو الآخر لابد وان يصل الى هذه النهاية الحتمية .

واذا كان الأمر كذلك فما الذي ينبغي ان نفعله ؟

ان كل شيء في الحياة لايمكن ان يعرف حق معرفته الا اذا عرفنا نهاية ذلك ، لان بداية كثير من الأشياء حسنة ولكن نهايتها سيئة ؛ واذا لم نُعرف النهاية فكيف يكون

بإمكان الانسان ان يشرع في البداية ؟

ولذلك لا مناص لنا من ان ندرس الحياة بجميع جوانبها من منظار نهايتها المتمثلة في الموت الذي ما بعده أدهى وأعظم ، اذ ان الحساب عسير والناقد بصـير والجـزاء شديد وخالد لانهاية له ابدا .

ومن الحقائق المرتبطة بمرحلة ما بعد الموت وهي – الحقائق الخافية على الكثير من الناس – العلاقة التي ستربطنا بالله – سبحانه وتعالى – في هذه المرحلة . فهناك من يزعم ان الروح بمجرد ان تفارق البدن فان الحقائق ستتكشـف للانسـان ويتصـل علمـه بالغيب فيعرف ظاهر الأشيـاء وباطنهـا ، وبـالطبع فـان المسـألة ليسـت بهـذه السهولة ؛ فمعرفة الانسان بالله – جل وعلا – والغيـب وبالتـالي معرفتـه بالحيـاة في الآخرة تكون بمقدار معرفته في الدنيا ، فمن يموت جاهلا بربه يبقى على جهله هـذا وان انتقل الى الآخرة فسوف يكون محجوبا عن خالقه ، وممنوعا عليه التحدث معـه بل وحتى دعاؤه وطلب الحاجات منه ، وبالعكس فمن مات وهو على معرفة من ربه فانه سيرى كل شيء على حقيقته أي ليس هناك ما يحجبه من الحقائق .

معرفة الله اعظم النعم :

ولذلك فان من أعظم النعم الالهية التي يتمتع بها الانسان في الدنيا فسـح المجـال أمامه لمعرفة خالقه ، ومن سلبت منه هذه النعمة فان سيحرم من نعمة عظيمة لايمكن ان تعوض عنها نعمة اخرى ، وفي هذا المـجال يقـول الامام علـي (عليه السـلام) : " معرفة الله سبحانه أعلى المعارف " .

وحتى في الآخرة تبقى هـذه النعمـة محتفظـة بمسـتواها مـن العظمـة ، لان نعمـة المعرفة هي غذاء الروح والحاجة التي تستشعرها النفس دائما ، فالمؤمنون لايجـدون لذة أعظم من لذة المناجاة ، ولا حلاوة أحلى من حلاوة الاتصال الروحي بين قلوبهم وبين أنوار القدس الالهيـة ، لذلك تراهـم يبادرون الـى العبادة والتبتل والمناجاة ليـلا

والناس نيام .

ولذلك فان علينا ان لانفوت هذه اللذة العظيمة ؛ فلو اتصل قلب الواحد منا ولو لمدة ساعة بنور ربه واضيء بشعاع معرفة الله - عز وجل - لكفت هذه الساعة حاجة الانسان الى الاتصال بالله في العمر كله .

كيف نعرف اللـه :

ومثل هذا الهدف لايمكن ان يتحقق الا بعد ان تتساقط ذنوب الانسان ، لان هذه الذنوب تفصل بين القلب والرب ، فاذا زالت اتصل القلب بخالقه ، فمن وجد نفسه منشغلا عن ذكر الله بالدنيا فليعلم ان الذنوب هي التي تحجبه وتمنعه من اقامة هذا الاتصال ، وبالتالي فان عليه في هذه الحالة ان يتوسل الى خالقه وبارئه لان يعينه على اسقاط تلك الحجب ، وحينئذ سيستنير القلب بنور الايمان ، وسيشتاق دوما الى لقاء الله .

وهكذا فان الانسان اذا فقد المعرفة بالله - جل وعلا - في الدنيا الى ان جاءه الأجل المحتوم فعليه ان ييأس من معرفة الله في الآخرة ، وهذا يعني انه سيدخل الجحيم - والعياذ بالله - لان الجنة هي دار ضيافة الله ، ولايمكن ان يدخل هذه الدار الا من كان عارفا به - سبحانه - .

والنتيجة الطبيعية لعدم معرفة الله هي البعد عنه ؛ فمن نسي نفسه لابد ان ينساه الله كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى** ﴾ (طه/١٢٥-١٢٦) ، ومع ان الله - تعالى - لاينسب اليه النسيان الا ان الانسان الذي يلقى في نار جهنم يكون حكمه حكم من نسي .

وعلى هذا الاساس فان النعمة الكبرى التي نحصل عليها في هذه الدنيا هي معرفة الله فنحن لدينا اله عزيز رحيم هو أنيس المحبين وقادر مقتدر ، ولكنه - تعالى - مع

ذلك سينسانا ان نحن نسيناه في الدنيا .

ومع ذلك فان الله يتجلى الى قلوبنا بين الفترة والاخرى ويدعونا الى نفسه ، وعلى سبيل المثال فعند قراءة الادعية يتجلى الله – سبحانه وتعالى – لعبده ويطلب منـه ان يأتيه ويناجيه .

معرفة الله في القرآن الكريم :

والآيات التالية من سورة الانبياء هي دعوة الى الله من خلال آياته في الكون حيث يقول – عز وجل – في هذه الآيات المباركة :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون ﴾ (الانبياء/٣٠-٤١)

منشأ الحياة :

وفيما يتعلق بالآية الاولى فقد اكدت الابحاث العلمية الحديثة على ان الكواكب والمجرات والمنظومات وكل الوجود كان في يوم من الايام كتلة متراصة ومتداخلة حجمها اقل من حجم الفضاء بملايين المرات ، فكانت - حسب تعبير القرآن الكريم - رتقا اي متصلة ببعضها البعض ، ثم حدث لها انفجار قبل آلاف الملايين من السنين ، وربما توحي الآية الكريمة التي تقول : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ ﴾ (هود/٧) بأن المادة الاصلية لهذا الكون شبيهة بالماء .

والملاحظ ان كل شيء في هذا الوجود يكون متصلا بشيء آخر في بداية أمره ثم ينفصل ، وحتى الانسان فانه كان متصلا بوالديه ثم انفصل عنهما بالولادة ، وهذه هي سنة الحياة ، والتعمق في هذه الناحية من شأنه ان يزودنا بالمعرفة بالله - سبحانه وتعالى - وذلك من خلال معرفتنا في كيفية فصل المتصل وفتق الرتق بهذا الاسلوب الدقيق اللطيف ، بل ان الانسان لو فكر اساسا في كيفية حمل الله - تعالى - للسحاب والرياح وهذه الاطنان الهائلة من المياه لينزلها الى الارض ثم يخزنها داخل الجبال من خلال تحويلها الى ثلج ، وكلما احتاجت الارض الى المزيد من الامطار قامت الشمس بصهر هذه الثلوج واحالتها الى ماء تسقى به الارض ، ان الانسان لو تأمل كل ذلك لازدادت - لاريب - معرفته بالله - عز وجل - .

الجبال تحفظ الارض :

ثم يقول - تعالى - عارضا لنا آية اخرى من آيات عظمته في الكون : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

ان ارضنا هذه مشبعة بسلسلة من الصخور تمتد الجبال فيها من تحت الارض لتتصل ببعضها البعض ، ولو لم يكن ترتيب الجبال بهذه الصورة لكان بإمكان الرياح

العاصفة ان تحرك وتهز الارض بشكل مستمر ، ولكـثرت الـزلازل والهـزات ، وبنـاء على ذلك فان الجبال وامتداداتها في باطن الارض هي بمثابـة الـدروع الـتي تحفـظ الارض من الميلان والتحرك والاهتزاز .

ولقد حدد علم الجغرافيا والجيولوجيـا مواقـع الجبـال علـى الارض ، واثبـت انهـا مواقع دقيقة جدا ؛ فلو ان جبال الألب – مثلا – أزيحت من مكانها الى اندونيسيا ، او نقلت قمة (افرست) الى مكان آخر ، او تحركت جبال الهملايا الى بلد آخر غير الهنـد لتغيرت كل الارض وسادتها الفوضى ولهزتها الزلازل بصورة مستمرة .

ثم يستأنف – عز وجل – قائلا : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ ، فلو ان الله – تعالى – كان قـد جعـل الجبـال كجـدران السـجون لأصبـح مـن غـير الممكن التنقل بين مناطق الارض المختلفة ، ولكنه – جلت قدرته – خلقهـا بحيـث فصل بينها بوديان ، وجعل فيما بينها فجاجا وطرقا على الانسان ان يهتـدي الى ربـه من خلال هذه الآيات العظيمة .

السماء سقف محفوظ :

ويستعرض لنا القرآن الكريم آية اخرى من آيات الخلق والابداع فيقول :

﴿ **وَجَعَلْنَـا السَّـمَآءَ سَـقْفاً مَّحْفُوظـاً وَهُـمْ عَـنْ ءَايَاتِهَـا مُعْرِضُـونَ** ﴾ ، فـالغلاف الغازي الذي يحفظ الارض مـن ملايـين الشـهب والنيـازك المتجهـة كـل يـوم الى الارض ، هو الذي يقي الارض من تلك القذائف ومن الامواج والاشعة الخطيرة الـتي من شأنها ان تبيد وتفني الحياة ان هي وصلت الى الارض .

فالى متى اللهو واللعب ، والى متى عدم الشعور بالمسؤولية ؟

ان الآيات السابقة جاءت في إطار الحديث عن المسؤولية ، وان الحياة حق ، وان كل شيء فيها يحقق هدفا محددا ويتحرك وفق ميزان . فاللهو لايوجد في الكون لان الدقـة والهدفية هما اللتان تسودانـه كما يقول – عز وجل – : ﴿ **لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ**

لَهواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الانبياء/١٧)

فمن جملة ما بينه القرآن في هذه الآيات انه قد حدثنا عن ظاهرة الاستهزاء بالحقائق لدى الانسان وذلك في قوله – تعالى – : ﴿ **وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ .

والله – سبحانه وتعالى – يحذر الانسان بشدة من هذه الصفة ألسلبية وينهاه عن الاستهزاء بالحقائق ، فحتى الجرثومة الصغيرة التي يستهزئ الانسان بها كفيلة بالقضاء عليه ، والمرض البسيط الذي قد يستصغره الانسان من الممكن ان يتعاظم ويتنامى حتى يتحول الى وبال عليه .

ان الحياة مليئة بالحقائق الدالة على عظمة وقدرة الخالق – تعالى – ، وقد استعرض القرآن الكريم جوانب منها في الارض وفي السماء ، بغية ان يقف الانسان اجلالا لخالقها فيؤمن به ، ويجعل منها اهدافا لتحركه وسعيه في هذه الارض .

خلق الانسان من عجل :

ثم يقول – عز من قائل – مشيرا الى طبيعة الانسان الميالة الى الجهل والعجلة وسرعة اصدار الاحكام دون تأمل وتريث :

﴿ **خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ** ﴾

فمن طبيعة الانسان الجهل ، والجهل بدوره يدعو الى العجلة ، ذلك لان الانسان العارف ينظر الى المستقبل في حين ان الانسان الجاهل لايرى الا لحظته التي يعيش فيها ، ولذلك ترى الانسان الكافر يستعجل العذاب على نفسه قائلا :

﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم**

بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

ان جميع الآيات القرآنية السابقة موجهة الينا بالأساس ، وهي تمسنا قبل ان تمس غيرنا ، فلنسع من أجل تطبيقها ، ولنكن اكثر جدية في الحياة ، ليتسنى لنا الحصول على نعمة معرفة الله في الدنيا قبل الآخرة .



الفصل الثالث

السبيل الى المعرفة الالهية

هنالك ثلاثة اسئلة مترابطة تشكل بمجموعها محور استفهام رئيسي ، هي :

١- ما المسافة التي تفصل بين الانسان وربه ؟

٢- كيف يمكن للانسان الضعيف المحدود ان يقطع هذه المسافة ؟

٣- لماذا كلف الانسان ان يقطعها لبلوغ هدفه المتمثل في لوصول الى رحاب رب عزيز كريم هو جبار السماوات والارضين ؟

الدنيا مدرسة تكامل :

وقبل ان نبدأ بالاجابة على هذا الاستفهام باسئلته الثلاثة وما قد يتفرع عنه من اسئلة اخرى لابد ان نشير الى حقيقة ينبغي ادراكها ؛ وهي ان الدنيا ليست دار

امتحان وتمحيص فحسب يجتازها الانسان نحو عالم الآخرة والحياة الابدية بل هي ايضا مدرسة تكاملية يتكامل فيها الانسان ليبلغ بعدها الكمال الاخروي ، فمن استطاع ان يبلغ أعلى قدر من الكمال الدنيوي فقد حظي برحمة الله ونعمته ورضوانه بقدر تلك الدرجة من الكمال التي بلغها في الدنيا ، اما الذين يستوفون ما قدر لهم من الحياة ثم يبلغون أجلهم دون ان ينالوا شيئا من الكمال ودرجاته فان ملف هؤلاء سيغلق ولن يكون بامكانهم التكامل في الآخرة .

المعرفة محور تكامل الانسان :

ولعل أهم المحاور التي يتكامل الانسان من خلال الالتزام بها هو محور معرفة الله والتقرب منه . فلو ان الانسان المؤمن سعى ليبلغ الكمال في صلاته وصيامه وكل عباداته فان فضل الكمال هذا وثوابه يبقيان وقفا على درجة معرفته بربه الكريم ، وقد جاء التأكيد في الاحاديث الشريفة عن اهل بيت العصمة والطهارة على اهمية المعرفة بالله - عز وجل - منها ما جاء عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : " من صلى ركعتين يعلم ما يقول فيهما ، انصرف وليس بينه وبين الله ذنب " [١]

وهكذا فان كمال الانسان وقيمة عمله يرتبطان بمقدار معرفته بربه لابحجم وكثرة اعماله ، ولذلك كانت معرفة الله - سبحانه وتعالى - اهم الدرجات المعنوية التي ينبغي على الانسان ان يجهد لبلوغ ما أمكنه بلوغه منها والا فان الأجل هو المحطة الاخيرة لهذه الرحلة التكاملية في الدنيا من حيث التزود بالمعرفة . فمن لم يستطع التزود ولو باليسير منها فلن يمكنه التزود بعد ذلك في الآخرة ذلك لان الدنيا هي مزرعة الآخرة .

وان من اعظم العذاب الالهي الذي يعذب به الاشرار والملحدون والكفار

---

(١) الكافي ج٢ ص ٢٦٦ رواية ١٢

والمشركون والمتمادون في غيهم وعصيانهم هو ان الله – تعالى – يحرمهم في يوم القيامة من معرفته والاتصال به ، وهذا ما يشير اليه دعاء كميل المعروف : " الهي فهبني صبرت على حر نارك فكيف اصبر عن النظر الى كرامتك " ، فمن شديد عقاب الله – عز وجل – لهؤلاء هو انه يحرمهم من خطابه ودعائه فليس باستطاعة اهل النار مخاطبة ربهم مباشرة ، ولايجوز لهم يومئذ ان يلهجوا بأسمه المبارك ، فالعلاقة مقطوعة ابدا والنداء غير مسموع .

الدنيا فرصة التكامل :

وهكذا فان الدنيا هي فرصة التكامل بالمعرفة الالهية ، فلابد من ان نقطع المسافة التي تفصلنا عن ربنا – سبحانه – بالمسير اليه من خلال معرفته ، فما أشد حرمان ذلك المغبون الخائب الذي يحيى عشرات السنين في حياته الدنيا ثم يموت ولا يستثمر فرصة العمر الطويل حيث أبواب الرحمة الالهية مفتوحة أمامه ، وقد دعاه ربه الى نفسه قائلا : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِيْ وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ (البقرة/١٨٦).

وفي الروايات تأكيد على ان الله – جل وعلا – يبعث في اول كل ليلة جمعة ، وقيل في منتصف كل ليلة ملكا الى السماء الدنيا يدعو الناس الى دعوة الله ، ويقول عن لسان الله – تعالى – ان يا عبادي ادعوا ، اطلبوا ، فما اخسر وما اكثر حرمان ذلك الذي يصم اذنه ويسد عينيه ويحجب قلبه عن ذكر الله ودعوته رغم هذه ألابواب الواسعة المفتحة في هذه الدنيا .

فأين نحن من دعوات ربنا الرؤوف الرحيم لنا ؟! انه – سبحانه – يحب دعوة عبده ويحب الالحاح منه في دعائه ، ومن ذلك نفهم انه لاينبغي للمؤمنين ان ييأسوا ويقنطوا من روح الله وواسع رحمته حين يبطأ الجواب ، فربما لايستجاب لهم لمصلحة وخير لهم فالله – جلت قدرته – أعلم بعباده ومصلحتهم وبما ينفعهم

ويضرهم فهو – تعالى – يحب ان يرى عبده وهو في تلك الحالة من الذوبان في قدسه ورحابه ، والخضوع والتذلل والتوجه له .

المسافة بيننا وبين ربنا :

بعد هذه المقدمة الضرورية نعود الى محور استفهامنا الرئيسي ، ومجموعة اسئلته المترابطة ، ونحاول ان نجيب عليها بما يلي :

ان الله – سبحانه – ليس ببعيد عن عباده ولكن العباد هم البعيدون عنه ، وبأمكان الانسان بالايمان والورع والتقوى ان يطوي المسافة المعنوية بينه وبين ربه ، كما ان بامكانه في نفس الوقت بالعصيان والتمرد والتمادي في الأثم والفجور ان يعمق الهوة فتنأى ، وتتسع المسافة بينه وبين الخالق حتى يكاد ينقطع عنه ، فينساه ربه بعد ان نسيه هو ببغيه وعصيانه وتمرده .

ان الله – سبحانه – لايحده زمان ولا مكان ، وليس وجوده بمزاولة ولا استيعاب ولا بأحاطة وانما هو الرب القيوم الحي الذي تقوم به السماوات والارضون ، والذي يمتلك غيب الغيوب ، والشاهد على كل شيء .

وعلى هذا فان تقصير المسافة بين الانسان وربه او زيادتها يتوقفان على الانسان ذاته ، وكل له عوامله واسبابه ؛ فالغفلة والامعان في العصيان ، والشرك بالله بكل أشكاله وألوانه وغير ذلك مما يسخط الله ورسوله ... كل ذلك عوامل واسباب تجعل المسافة طويلة وبعيدة ، وبهذا الابتعاد عن الله – تعالى – يظلم الانسان نفسه أشد الظلم ، وفي الدعاء الشريف تعبير رائع في هذا الصدد حيث جاء : " وانك لاتحتجب عن خلقك الا انه تحجبهم الاعمال دونك ، وان الراحل اليك قريب المسافة " .

ويروى في هذا المجال ان الامام علي (عليه السلام) سئل عن طول المسافة بين السماء والارض فقال (عليه السلام) : " انها دعوة مستجابة " ، وفعلا فان القلب الذائب الذي يعيش اللوعة والحنين الى الله وخاصة اذا كان قلب عبد مظلوم ، فان

مثله عندما يهتف باسم الله فان هذه الكلمة النابعة من هذا القلب ذي النية الصافية الخالصة ستعدم كل بعد ومسافة بين هذا العبد الداعي وربه المجيب ، فحينما يكون القلب زكيا نقيا ، والنية خالصة فلا حجاب حينئذ بين العبد وربه انما النور الالهي هو الرابط بين هذا القلب وبارئه .

واذا كانت هناك حجب وظلمات حالكة فانما هي من صنع النفوس التي خضعت للشيطان ووساوسه ، ولايمكن تحطيمها الا بمعول الارادة الايمانية ؛ فبإرادة الانسان وتقواه وورعه يمكن اسقاط كل ما يفصل بينه وبين ربه ، ولعل حجاب الشرك الخفي ، والخضوع للمخلوقين ، وإتخاذهم أربابا وأندادا من دون الله – سبحانه – يقف على رأس هذه الحجب .

التوحيد الخالص سلم المعرفة :

فالاجدر بالانسان المؤمن – اذن – ان يزيل عن نفسه حجب الخلق ، ولايجعل في اعتقاده ان موجودا ما له قدرة مستقلة ذاتية ، فمثل هذا الاعتقاد هو منزلق الشرك الذي لا غفران له ، فليقطع أمله بكل ما هو غير الله ، ولايخشى احدا سوى ربه ، ولايخف فيه لومة لائم ، وحين تجتمع هذه الميزات والخصائص الايمانية في المؤمن فانه سيشعر ويلمس كيف تتجلى الانوار الالهية البهية في قلبه .

ان الانبياء ، والائمة والاولياء والصالحين لم يبلغوا ما بلغوه من درجات العلو والسمو في القدس الالهي الا بما امتازوا به من ميزات التوحيد والتقوى ، ولذلك كان معراجهم الى ربهم التسبيح والتنزيه والثناء والحمد وكل سبل ووسائل العرفان الاخرى .

فالتسبيح محطة من محطات الانطلاق نحو عالم العرفان عندما يعي الانسان هذا التسبيح ويبلغ مستواه ويستلهم من آفاقه الرحبة ، والتسبيح وحده غير كاف من دون التقديس والتنزيه العمليين في حياتنا ؛ فهو يعني ان نطرد من اذهاننا كل الاوهام

والتخيلات والتصورات عن الله والتي تؤدي الى الشرك ، فكل تصور او تخيل شكلي سواء كان زمانيا او مكانيا عن اللـه – تعالى – معناه اننا جعلنـا اللـه موجـودا مـن الموجودات الممكنة ، الناقصة ، المحتاجة ، ويمكننا ان نصـف أثـر هـذه التصـورات التي تقود الى الشرك شيئا فشيئا بانها اول الحجب بيننا وبين الله ، فلابد مـن إزالتهـا قبل تراكمها واستفحالها .

ان الانسان المؤمن عندما يسبح بحمد ربه بكل جوانحه ومن اعماق قلبه وضميره ومشاعره فان هذا معناه انه يعمل على اسقاط حجاب الكبر والعجـب الـذي لايكـاد يخلو منه انسان ، وهاتان الصفتان تمثلان واحدا مـن أخطـر الحجـب الفاصلـة بـين العبد وربه ، بل هما مبعث السخط الالهي على الانسان فأيـة قـوة يمتلكهـا الانسـان إزاء القـوى والطاقات الهائلة التـي تملأ هـذا الكون بكل آفاقه ؟ كما يشير الـى ذلك – تعالى – في قوله : ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَـن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾ (الاسراء/٣٧)

فـالاجدر بـالمؤمنين – اذن – ان لايدعـوا الكـبر والعجـب يدخـلان في نفوسـهم ويلوثان قلوبهم ، وان ينبذوا الانانيات والاحقاد والعصبيات ويحرروا انفسهم من كـل انواع الغل كي يعيشوا في رحاب ربهم الكريم ، ويحيوا فيما بينهم حياة طيبة هانئة .

طريق الصديقين نحو المعرفة :

ان الفضلاء والزهـاد مـن العلمـاء واصحـاب الائمـة (عليـه السـلام) لم يكونـوا يشعرون بالتكلف والتعب حين يؤدون الفرائض والمستحبات من العبادات ، بل كانوا يؤدونها وملء نفوسهم السعادة والرضى لما كانت لـهم من علاقـة حـب وطيـدة مـع ربهم ، فكانوا ينتظرون على أحر من الجمر تلـك السـاعات في جـوف الليـل حيـث تهدأ الأنفس وتنام الاعين ، ليستغرقوها بين قيام وقعود وركـوع وسـجود يتهجـدون ويسبحون ويستغفرون كما يصفهم الله – تعالى – في قوله : ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الَّيْلِ**

مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذّاريات/١٧-١٨).

وفي هذا المجال يروى عن الامام الحسين (عليه السلام) انه بعث أخاه العباس (عليه السلام) الى القوم الذين خرجوا لقتاله ليطلب منهم امهاله ليلة عاشوراء ، لا خوفا من القتل المنتظر ، ولا حرصا على الحياة لساعات أخر ، بل لتجديد العهد بالصلاة والدعاء والتسبيح والتهجد ، فقد كان (عليه السلام) ممن يعشق الصلاة والعبادة ، وهكذا كانت النخبة الوفية من اصحابه .

ان الحديث هنا ليس حديث خوف من نار ، ولا طمعا في جنة بل هو حديث القلوب العارفة ، ولقاء الحبيب بالحبيب ، فالاتصال بالله - عز وجل - سواء بالصلاة أم بانواع العبادات المستحبة كالدعاء والمناجاة لايقف عند حد في هذه الحياة الدنيا ، فليس هناك عبد مخلص يكتفي بذلك ، او يّدعي انه عبد لله دعاه وأدى كل ما أمكنه من المستحبات بما فيه الكفاية ، فالأمر لاينتهي عند الصديقين والصالحين من العباد فكيف بالنسبة الينا ؟

التقرب الى اللـه أعظم المسؤوليات :

ان التقرب الى اللـه بأي وسيلة طاعة ، والغاء المسافة والهوة الحاصلة بين العبد وربه يمثلان أعظم مسؤولية يجند الانسان المؤمن نفسه لتحملها ابتغاء مرضاة ربه الكريم فالأليق بالانسان ان يلقى ربه بوجه أبيض وان يتقرب اليه عبر قناعة ورضى وسرور روحي في إداء العبادات المستحبة ، فهي وسيلة التقرب التي تسمو به الى رحاب القدس الأعلى بالاضافة الى ثواب الفرائض ، والتزام سبيل التقوى والورع عن محارم اللـه ؛ فليكثر الانسان المؤمن من صلواته ما أمكنه لان التقرب الى اللـه هو أهم هدف للصلاة ، بل لا صلاة بدون نية التقرب الخالصة للـه - تعالى إسمه - بالاضافة الى الاهداف الايمانية التزكوية الأخرى التي نجد خلاصتها في قوله - تعالى - :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العَنْكَبُوت/٤٥) .

وهكذا الحال بالنسبة الى انواع التكاليف الاخرى التي شرعها الله لنا كالحج والجهاد والقيام بالاعمال الصالحة ، وعلى العموم فان كل عبادة وعمل صالح لايمكن ان يعطي ثماره الا بعد ان يكون هدفه القربى الى اللـه ، وهذا يعني إزالة الحجب وإختصار المسافة الفاصلة بين العبد وربه ، والسعي من أجل إلغاءها جهد الامكان ، وهذا هو سبيل معرفة الله .

فالمعرفة - اذن - هي اختصار المسافة ، وإزالة كل حجاب يبعدنا عن وجه ربنا الرؤوف الرحيم ، وهذا يتم بالعبادة المستفيضة والسعي الدؤوب في العمل الصالح ، إضافة الى التخلق بأخلاق الله - تعالى - ، وأخلاق انبيائه ورسله ، كالتواضع لله من خلال التواضع لإخواننا المؤمنين ، وعدم السماح لأدنى قدر من الكبر ان يدخل القلب ، اللهم الا التكبر على الانسان المتكبر لردعه. ، ثم علينا ان لانحسب ان مايقع في ايدينا مما نقتنيه من زخارف الدنيا وبهارجها او ما نناله من مقام يجعل من حقنا ان نتكبر على الناس ..

وبعد التخلق بأخلاق اللـه يأتي طلب العلم الالهي والنهل والتزود منه ؛ فالعلم وسيلة ذو أهمية كبرى في التقرب والمعرفة الالهية ، وهو لايكون نافعا ، ومثمرا بالخير والبركات الا اذا كان طلبه بنية التقرب الى اللـه - سبحانه - ، وانها لأعظم مكافأة من الرب الرحيم ان يموت المؤمن وهو على معرفة من ربه ، وحب واشتياق للقائه ، والشهادة في سبيل اللـه هي ذروة هذه المكافأة وهي لاتمنح ولا توهب الا لأهلها من الشهداء كما يقول - تعالى - :

﴿ يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر/٢٧-٣٠) ، فالرجوع والدخول هما أعظم النعم

الالهية لما فيهما من الرضا المتبادل بين الراجع الداخل ، والمستقبل الكريم الذي يقوم بالضيافة بنفسه .

فاذا كان السرور والفرح يغمرانك عندما تجد مضيفك يقف على عتبة داره لاستقبالك ثم يخدمك ويكرمك بيده في حين ان هذا المضيف هو انسان عادي فكيف الأمر اذا كان المضيف في الغد ربا غفورا كريما ؟ بل واي كرامة وعزة ورفعة للانسان عندما يوهب ذلك المقام الجليل الذي وصفه - تعالى - في قوله : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر/٥٥) ، فمقعد الصدق هذا يتحسر على بلوغه حتى أهل الجنة انفسهم ، والحسرة هذه لايجب ان نفهم منها الالم واللوعة بما ينغص النعيم الذي يعيشه أهل الجنة ، وانما تعني طموحا يتطلع اليه أهل الجنة ، والطموح هذا لايبلغه الانسان بحوله وقوته ، بل بحول الله وقوته .

الرضا تجسيد للسعادة :

والرضا هو تجسيد للسعادة الدنيوية التي ينعم بها الانسان المؤمن في حياته الدنيا ، فاذا ما وعى وادرك المؤمن قيمة نعمة واحدة فقط من هذه النعم فان هذا الادراك سيغمر قلبه بالرضا ، وعلى سبيل المثال فان علينا ان ندرك نعمة العافية والسلامة التي في أبداننا ونفوسنا ، والنعمة هذه ليست في الحقيقة نعمة واحدة بل هي مجموعة عظيمة من النعم تتأطر في نعمة واحدة نسميها (نعمة العافية) ، واما وسيلة التقرب بنعمة العافية الى الله فتتمثل في شكرها العملي بالاضافة الى الشكر النظري بالقلب واللسان .

والعبرة والاتعاظ هما ايضا مصدر من المصادر التي تبعث الرضا والقناعة في قلب الانسان ، ويتجسدان من خلال وسائلهما العديدة منها زيارة ذوي النقص والخلل في عافيتهم ، او ذوي العوز والفقر وإعانتهم ، وزيارة أهل القبور الذين ذكرت الروايات بشأنهم إنهم يمرون بمرحلة عصيبة في برزخهم بحيث انهم يتمنون لو يرجعون الى الحياة الدنيا ولو ليوم واحد ، فالاعتبار بهؤلاء يشد الانسان الى التقوى ويعزز ايمانه،

وبذلك يتقرب الى الله - سبحانه - .

والى جانب النعمة الكبرى المتمثلة في العافية هناك نعمة الأمن ، فلينظر الانسان الى عظمة هذه النعمة التي يحياها في الوقت الذي يعاني فيه إخوانه من اسباب الهلاك والدمار ، ويتجرعون الموت الزؤام في مختلف بقاع الارض أفلا ينبغي بعد ذلك ان نتقرب الى ربنا - عز وجل - من خلال شكر هذه النعمة العظيمة عمليا ونظريا ؟

وبشكل عام فان الباعث على الرضا والقناعة هو النظر الى الأدنى حالا وعلى جميع الاصعدة ، وعلى العكس من ذلك فان النظر الى من هو أفضل وأرقى حالا سيؤدي الى التخلق بالأخلاق السلبية والتطبع بالأطباع التي تتنافى مع الايمان وتميت روح التقوى ، ومن ذلك ان الانسان يصبح أنانيا فضا غارقا في طمعه ، لايشبع ولايشكر هذا اذا لم يؤد به هذا السلوك المنحرف الى المعصية وإرتكاب المحرمات والموبقات .

ان هدف الحياة الدنيا أسمى وأنبل من ان يولد الانسان وينشأ لمجرد اشباع بطنه وفرجه ، بل الهدف هو التزود بزاد الآخرة من خلال العبادة الخالصة والعمل الصالح ؛ فالانسان انما جاء الى الحياة الدنيا لكي يزرع فيها ما سيحصده غدا في آخرته ، والا فان الاطماع بكل اشكالها انما هي في الغد هباء منثورا ، فليسع الانسان في دنياه بما يقدمه من عمل صالح يبتغي به مرضاة ربه والقربة اليه ، والا فان الندم سوف لاينفع في الغد ، فغدا سيعلم الجميع ان كل ساعة في الدنيا تعدل عشرات الملايين من ساعات الآخرة ، لان ساعة الدنيا قد تضمن لصاحبها من خلال انفاقها في العمل الصالح سعادة آلاف السنين في الآخرة ، وفي نفس الوقت قد تدخله في النار لدهور عديدة اذا ما ارتكب الانسان فيها معصية كبيرة . ومن ذلك كله نستنتج ان المسافة التي تفصلنا عن ربنا انما هي مصطنعة ، فبامكاننا أختصارها وربما

إزالتها بالإجتهاد في الصالحات ، وبامكاننا ايضا توسيعها وتحويلها الى هوة سحيقة ، وحجاب معتم سميك يبعدنا عن ربنا الكريم ، ونفحات رحمته ولطفه ورأفته .

فلنعمل – اذن – على طي هذه المسافة والاقتراب الى الله – جل وعلا – بالتسبيح والتنزيه والتقديس والتزكية والشكر ، لتتطهر نفوسنا وقلوبنا وتتزكى أرواحنا ، حتى نلقى ربنا يوم غد بوجه مشرق ينسجم مع مقام النور الذي أعده لنا ، وان نسعى ما أمكننا لكي نصل الى هذا المقام السامي ، كما وعلينا ان ننبذ ونتجنب كل سلوك سلبي يبعدنا عن ربنا ويسقطنا في مهاوي جهنم ووديانها السحيقة حيث لاينفع الندم ولاتجدي دعوة للصفح والعفو .



الفصل الرابع

كيف نحيى ربانيين ؟

في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) ورد قوله مناجيا الخالق - سبحانه - : " اللهم انت كما احب فاجعلني كما تحب " ، وهذه كلمة مختصرة ولكنها تحمل في طياتها معارف لا تحد بالعلاقة بين الانسان وربه فمسيرة الانسان في الدنيا انما تكون نافعة له اذا كانت باتجاه رب العالمين ، اما اذا كانت هذه المسيرة منكوسة باتجاه اهواء الذات ، وشهوات النفس ، وبالتالي باتجاه الارض فان الانسان سوف لاينتفع بعمره فحسب ، بل انه لا يزداد في حياته الا بعدا عن تلك الاهداف والطموحات التي يريد ان يحققها في حياته .

ومسيرة التكامل الى الله - عز وجل - تتمثل في ان نردد مع انبياء الله الصالحين :
﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الانعام/٧٩) وان نقول :

﴿ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الانعام/١٦٢) . فمسيرة الانسان الفطرية الطبيعية الانتقال من الدرجات المادية الصرفة الى الدرجات العالية من الكمال ، وحتى عندما يدخل الانسان الجنة فان الله - سبحانه - لايدعه على مستوى واحد ، بل يزيده كمالا وعلوا . وهذا يعني ان تكامل الانسان لا ينتهي ، بل يظل مستمرا الى أبد الآبدين .

ومن هنا فان هذه المسيرة هي مسيرة تصاعدية يتحرك على ضوئها الانسان الى الله ، ولعل الآية القرآنية التي تقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذّاريات/٥٦) تشير الى هذه الحقيقة ، لان الانسان انما يتكامل بسبب عبادته وطاعته وخضوعه لله وتسليمه له ، فكلما عبد الله اكثر ، كلما تكاملت حياته اكثر . فلقد اودع الله - تبارك وتعالى - في ضميره حب التكامل والتسامي والعروج الى العلا .

وعبادة الله - سبحانه - هي التحرك نحوه ؛ اي ان يكون همه واعظم غاياته في الحياة ان يعيش الهيا ربانيا كما يريد الخالق ، ففيه - تعالى - الكرم والجود ، وهو ارحم الراحمين ، وغفار الذنوب ، وكل ما نفكر فيه من جمال وعظمة ومجد عند الله - سبحانه وتعالى - .

كيف نكون الهيين :

وعلى هذا فان اهم عمل يجب ان نقوم به في حياتنا ان نسعى من أجل ان نكون الهيين ، وان نعيش كما يريد الله - عز وجل - ، فهو يريد منا ان نتخلق باخلاقه . وفي الحقيقة فان هذه هي مسيرة الانسان ، فأهم هدف وغاية له ان يتقرب الى الله - سبحانه - ؛ اي ان يعوذ به وتكون فيه صفات مما يحب - جل وعلا - . ونحن كلما زدنا من هذه الصفات في انفسنا ، كلما ازددنا قربا من الله من مثل صفة العلم ؛ فالله يحب العالم ، ولا يريد الجاهل ، وقد جاء في الحديث الشريف : " فضل العالم

على العابد كفضل القمر على سائر النجوم " ، والسبب في ذلك ان العالم عندما يقوم بنشر العلم فانه سيكون افضل من العابد الذي يسعى من اجل ان ينقذ نفسه فحسب .

وقد عاش ائمتنا المعصومون (عليهم السلام) لله - سبحانه - فأحياهم الله ، وخلدهم باذنه ، وعملوا له فبارك فيهم ، واخلصوا له فاخلص لهم مودة اوليائهم ، فكانت حياتهم كلها لله .

ومن جملة ما جاء في سورة الاحزاب التي يبدو انها مخصصة للحديث عن علاقة الامة بالرسول (صلى الله عليه وآله) ، التأكيد على ان النبي اسوة حيث يقول - تعالى- : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الأَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ (الاحزاب/٢١) . فالذي يريد ان يعيش الهيا فلابد ان يتبع منهج الرسول ، فان قال احد : اريد ان اكون الهيا ربانيا ولكن شريطة ان اخترع دينا لنفسي واتبعه ، قلنا له : اذا اردت ان تتقرب الى الخالق - جل وعلا - فعليك ان تسلك الطريق الذي يوصلك اليه كما يقول - تعالى - : ﴿ **وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا** ﴾ (البقرة/ ١٨٩) . فان كان هناك شخص يريد ان يقفز من الجدران فان الله - سبحانه - يعتبره سارقا ، ويأمره ان يعود من حيث أتى ، ولذلك جاء في الحديث الشريف : " انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد المدينة فليأتها من بابها " .

وفي هذا المجال يقول الامام الرضا (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن جبرائيل عن رب العزة : " كلمة لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " ، ثم قال (عليه السلام) : " بشرطها وانا من شروطها " . ونحن نقول يوميا : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة/٦) **فما** هو هذا الصراط المسقيم ؟ انه صراط الذي انعم الله عليهم ، وهم أهل البيت (عليهم السلام) لذلك يقول - عز من قائل - : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ (لاحزاب/٢١) اذا أردنا ان نعيش الهيين فلنعش محمديين ، واذا اردنا ان نعيش ربانيين فلنعش علويين .

لنتنازل قليلا عن حقنا :

وفي العصر الراهن علينا ان نجاهد انفسنا ، وان نتبع الامام عليا (عليه السلام) الذي كان يمر بمثل هذه الظروف ، فقد عاتبته فاطمة الزهراء (عليها السلام) يوما قائلة : " يا ابن ابي طالب اشتملت شيمة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين " مطالبة اياه ان يقوم ويطالب بحقه وحقها " فأجابها أمير المؤمنين (عليه السلام) ... نهنهي عن وجدك يا بنية الصفوة ، وبقية النبوة ، فما وثبت عن ديني ، ولا اخطأت مقدوري فاحتسبي الله ، فقالت : حسبي الله ونعم الوكيل . [1]

كما انه (عليه السلام) وبعد ان خرج من الشورى بعد انتخاب الخليفة الثالث قال : " لنا حق ، فإن اعطيناه ، والا ركبنا اعجاز الابل ، وان طال السرى " [2] ، وبهذه الكلمة اشار الامام (عليه السلام) انه وشيعته لا يبدؤون القتال ولا يثيرون الفتنة في الارض ، ولا يريقون الدماء .

ونحن يجب ان نتعلم من ائمتنا (عليهم السلام) ان نتنازل قليلا عن حقنا ، فان كان من حقي ان اكون رئيسا ، وكان هناك شخص آخر من حقه ايضا ان يكون رئيسا ، فعلي ان ابادر الى التنازل عن حقي ، وان لا اتسبب في قتل الآلاف من الابرياء . وهذا يعني ان مسؤولية المحافظة على الدماء هي مسؤولية صعبة فقد جاء في الحديث الشريف : " من جاء يوم القيامة وقد شارك في قتل مؤمن بشطر كلمة جاء وقد كتب على جبهته آيس من رحمة الله " .

وعلى هذا فان ائمتنا المعصومين (عليهم السلام) وعلى الرغم من الظروف المختلفة التي مرت بهم كانوا في طريق الله - جل اسمه - ، فكل ما اراده منهم عملوه ؛ فان اراد - تعالى - منهم السكوت سكتوا عن حقهم ، وصبروا كما فعل ذلك الامام علي (عليه

---

(١) بحار الانوار ج٣ ص ١٤٨ رواية ٤

(١) نهج البلاغة قصار الحكم ٢٢

السلام) الذي كان يقول : " فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى " .

الاقتداء بالأئمة في مساعدة الآخرين :

ولا يفوتني هنا ان اذكر بان علينا ان نقتدي بامام في عصرنا ، فائمتنا (عليهم السلام) كانوا كلهم يقومون بعمل اشتركوا فيه ؛ ففي اخريات الليل كانوا يحملون الجراب ، ويدورون على بيوت الفقراء والارامل والاتيام ، ويقدمون لهم المساعدات والهدايا ، وعلى سبيل المثال فان فاطمة الزهراء (عليها السلام) كانت تحمل الماء ، وزوجها الامام علي (عليه السلام) كان يحمل معها الحطب والدقيق ليطوفوا على بيوت الفقراء ليلا ، والامام الحسن والحسين (عليهما السلام) كانا يذهبان الى المساجد ، ويطوفان على النائمين فيها ليضعا تحت رؤوسهم مقدارا من الطعام ، وعلى الواحد منا ان لا يجلس وينتظر ان يأتي الفقير الى باب بيته ، فربما منعه الخجل من سؤال الناس ، ولذلك فاني اوصي اخوتي المؤمنين ان ينتمي كل واحد منهم الى هيئة خيرية ليقدم العون الى المساكين ، والفقراء لان من يبخل فانما يبخل عن نفسه .

واعود هنا لاؤكد على ضرورة التأسي بالرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) ، ولذلك فان القرآن الكريم بعد ان يشير الى هذه الضرورة في قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فانه يقول : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا ﴾ (الاحزاب/٢٣) ، وهذه الآية نزلت في الأئمة المعصومين (عليهم السلام) الذين يمثلون اسمى مصاديقها اعتبارا من الامام علي (عليه السلام) ، وحتى الامام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) .

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس

تجليات اسماء اللـه في الحياة

ان لكل شيء في الخليقة هدفا ، ونحن لانجد انى توجهنا بابصارنا شـيئا مـن دون هدف او غاية حتى وان كان ذرة متناهيـة في الصغـر ، فهـل مـن الممكـن ان تكـون الخليقة كلها بما فيها من بحار وقفار وجبال وكواكب ومنظومات ومجرات قد خلقت عبثا ؟!

ان اول ما يدركه الضمير الحـي الـذي يتوجـه الى الكـون ، وينظـر في السـماوات والارض هو حتمية وجود هدف ، وانعدام وجود العبـث في الخلـق ، كمـا اشـار الى ذلك تعالى على لسان المؤمنـين : ﴿ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْـتَ هـذَا بَـاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَـا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران/١٩١)

الهدف من الخلق :

واذا كان الامر كذلك فماهو الهدف من خلق الكائنات ؟

من المعروف ان الارض وما حولها من كواكب قد سخرت للانسان ، فقد اصبح هذا الانسان قادرا على امتطاء صهوة المركبات الفضائية الى الكواكب الاخرى ، فيبدو انه قد خولت اليه السلطة في هذه الارض وما حولها ، فهو يغور اليوم في اعماق المحيطات ، ويسبر اغوار الفضاء ، ويتحرك في الارض ، ويزيل الجبال ، ويسخر الرياح .

وعلى هذا فان هدف خلق الارض وما حولها هو الانسان ؛ فماهو الهدف من خلق الانسان نفسه ؟

هذا السؤال يجيب عنه القرآن الكريم في سورة الذاريات ، التي تذكرنا ببصيرة المسؤولية ؛ ففي هذه السورة آية كريمة تشير الى بصيرة المسؤولية وهي : ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى** ﴾ (النجم/٣٩-٤٠) ، وفي خاتمة سورة الذاريات المباركة نجد الاية التي تقول : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذّاريات/٥٦)

العلاقة بين الخلق والعبادة :

وفي هذه الاية الاخيرة التي هي موضوع بحثنا كلمتان تتعاكسان وتتكاملان وهما : كلمة (الخلق) وكلمة (العبادة) ، فيبدو ان الاية تبين العلاقة بين الله والانسان ، كما توضح الصلة بين الانسان وبين الله ، فعلاقة الله بالانسان - ان صح التعبير - هي علاقة الخلق ، فهو الذي خلق ، اما صلة الانسان بالله - تعالى - فينبغي ان تكون صلة العبادة .

فهناك - اذن - خلق ، وهناك عبادة ، فما معناهما ؟

يبدو لي اننا نستطيع ان ندرك عمق كلمة العبادة ، اذا عرفنا عمق معنى كلمة الخلق ، لان هذه الكلمة تتواجه وتتعاكس مع الكلمة الاخرى ، فماهو - اذن - الخلق ؟

ان الخلق كلمة واحدة تدل على ثلاثة معان اساسية :

١- ان الانسان - كما هو حال سائر الكائنات - عبارة عن حقيقة قائمة لا وهم ، لان هناك بعض الفلاسفة القدماء وحتى المعاصرين يزعمون ان الانسان وهم ، وان ليس في عالم الكون الا الفكر ، فما نراه ونلمسه ونتعامل معه ليس الا وهما .

اما القرآن الكريم فانه يرفض هذا التفكير ويرى ان هناك مخلوقات ، وان هذه المخلوقات قائمة وذات وجود عيني وواقعي .

٢- ان هذه الكائنات التي هي موجودات قائمة وحقيقية حقيقتها قائمة بغيرها لانها ليست وجودات ذاتية والا لم تكن محتاجة الى الخلق ، وبناء على ذلك فانها وجودات غيرية قائمة بالغير ، ولذلك فاننا نرى كل شيء اعتبارا من العرش وما دونه قائم بالله - سبحانه وتعالى - ، فلو سلب الاشياء تأييده ونوره ولطفه وفيضه فانها ستتلاشى وتنتهي في أقل من لحظة . وعلى هذا فان هناك حيا قيوما قائما بذاته ، ومقيما لغيره .

٣- اما المعنى الثالث الذي هو المهم في هذا البحث فهو ان كل شيء مخلوق قابل للانتهاء ، اي انه بعبارة اخرى قابل لان يصغر وقابل لان ينمو ويكبر في نفس الوقت ، فالله - تعالى - قد جعلني من حفنة تراب ، فاصبحت هذه الحفنة الترابية انسانا سويا فيه من الآيات والمعاجز مالا يحصى .

وعلى هذا فان من معاني الخلق الاساسية قابلية النمو ؛ اي ان كل شيء من الممكن ان ينمو ويتطور ، ويتسامى ويتعالى .

وتأسيا على ما سبق تتحصل لدينا ثلاثة معان هي : ان الشيء قائم ، وانه قائم بغيره ، وانه ممكن الزيادة والنمو ، وعلى هذا فمادام الانسان من الممكن ان يغنى

ويتقدم فلابد ان نسأل الله الغنى والزيادة ، والزيادة هنا تعني العبادة ، والعبادة تعني اضافة فكرة وبصيرة جديدتين ، وهنا لابد من التأكيد ان الزيادة يجب ان تكون في الاتجاه الصحيح ، لان بعض الزيادة تمنع المزيد كما يشير الى ذلك الحديث الشريف : " رب نعمة خلفت حسرات " ؛ فربما يطالب الانسان ببغية بسيطة فتأتي وراءها الحسرات .

متى تمنع الزيادة من المزيد :

فهناك بعض النعم والزيادات تكون مانعة عن المزيد كأن يزداد الانسان علما ولكنه لايزداد مع هذا العلم تواضعا ، فزيادة العلم هذه ستضر به لان الحديث الشريف يقول : " من ازداد علما ولم يزدد تواضعا ما ازداد عن الله الا بعدا " وكذلك الحال بالنسبة الى زيادة المال ، والى الحصول على الجاه والسلطة ، فقد يكون كل ذلك سببا لعدم نمو الانسان .

وعلى هذا فان الزيادة يجب ان تكون في الطريق الصحيح وحينئذ تكون (عبادة) وفي الحقيقة فان هذه السلوكية السليمة هي تجسيد لاسماء الله الحسنى ، فنحن نقرأ في القرآن الكريم في سورة الحشر هٰذه الآيات المباركات : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر/٢٢-٢٤)

وهذه هي بعض من اسماء الله التي هي وسيلة للتقرب اليه - سبحانه - ، ووسيلة التعبد الحقيقية ، ونحن أمرنا ان نعبد الله باسمائه : " ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها " ، فنحن عندما نتعمق في فهم هذه الاسماء نجد انها كلها تتمثل كمالات

ودرجات لنمو الانسان وحركته .

العلم عبادة :

ومن ضمن هذه الاسماء التي اشارت اليها الآيات السابقة (العلم) في قوله - تعالى - : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ، فالعلم هو الحبل الموصل بين الانسان وبين الله ، فاذا كان هذا العلم في طريق الله فانه يكون وسيلة للتقرب ، فمن ازداد علما ازداد قربا من الله ، ومن تعلم لله وعلم لله دعي عند الله عظيما .

وهكذا فان اسم (العالم) الذي جاء في سورة الحشر هو من الاسماء الاولى لله - تعالى - ؛ والنقطة الاساسية التي اريد ان أبينها هنا هي ان هذه الاسماء هي الدرجات التي يرتفع بها الانسان الى الله - تعالى - ولذلك فقد حثنا الله - على ان ندعوه بها ، فالعبادة ليست مجرد الركوع والسجود لان العلم هو ايضا عبادة .

ومن الاسماء الاخرى لله - تعالى - هو (الرحمان) ، وهذا يستدعي ان تكون رحيما ، وان يضمر قلبك الرحمة . وقد وصف - تعالى - نبينا (صلى الله عليه وآله) بانه رحمة في قوله : ﴿ ومَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الانبياء/١٠٧) فهو نبي الرحمة وامامها ، وعلى هذا فان قلوبنا يجب ان تكون رحيمة شريطة ان تكون هذه الرحمة في طريق الله - تعالى - .

ومن اسمائه - جل جلاله - (العزيز) ، والعزة تعني القوة مع استخدام هذه القوة في السيطرة ، والعزة في سبيل الله عبادة ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَااسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ ﴾ (الانفال/٦٠)

وبعد ، فتلك وغيرها هي اسماء الله الحسنى ، ولذلك فان الله - عز وجل - عندما يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فانه يعني ان يتدرجوا في مدارج الكمال ، ومعارج العظمة والنمو بشرط ان يكون ذلك كله في سبيل الله ،

فالعظمة في غير طريق الله انما هي حقارة ، والعلم لغير الله جهل يأخذ بأيدينا الى النار .

وهكذا فان حقيقة العبادة التي جاءت الاشارة اليها في قوله - تعالى - : " ليعبدون " هي التحرك في مناهج الله ، فالعبد الحقيقي هو الخاضع والمسلم أمره لله - تعالى - .

نستنتج من كل ذلك ان الانسان خلق لينمو ويتقدم ويسير نحو الله : ﴿ يآ أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾ (الإنشقاق/٦) حتى يصل الى لقائه - سبحانه - : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر/٩٩)

وعلى هذا فان الهدف من خلق الكائنات هو الانسان ، اما الهدف من خلق الانسان نفسه فهو ان ينمو ويتكامل ، فالانسان الذي لاينمو ولايتكامل ولايزداد قربا من الله - تعالى - مع مرور الزمن ، فالاولى به ان يموت وقد جاء في الحديث الشريف عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان آخر يومه شرهما فهو ملعون ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان الى النقصان اقرب ومن كان الى النقصان اقرب فالموت خير له من الحياة .[1]

ضرورة تجلي اسماء الله في حياتنا :

واذا ما طبقنا - نحن المسلمين - مضامين هذه الآيات القرآنية فان بلادنا ستكون افضل البلاد ، وعلومنا احسن العلوم ، وسنكون اكثر قدرة وسيطرة ومنعة من غيرنا لان حوافز العبادة عندنا كبيرة ، فالقرآن جعل العلم عبادة ، والعمل عبادة ، والتقدم عبادة ، فأنت اذا استصلحت الارض وبنيتها فانك قد مارست في الحقيقة عبادة .

وهكذا فان اسماء الله - تعالى - يجب ان تتجلى في حياة المسلمين ، وهذا هو

---

(١) بحار الانوار د ٦٨ ص ١٧٣ رواية ٥

معنى العبادة في قوله – تعالى – : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ ، وتلك الفكرة مستوحاة من هذه الآية القرآنية ، لان القرآن يقول بعدها : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (الذّاريات/٥٧) ، أي انه – تعالى – يريد ان يعطيهم ، ولايريد ان يأخذ منهم ، فالعبادة هي العطاء الالهي وتحرك الانسان للحصول على المزيد من العطاء الالهي .

ان تلك الاسماء كلها لها تجليات في خلق الانسان ، وهي باجمعها تقرب الانسان من الله – تعالى – ، وقد قال الله – عز وجل – في حديث قدسي : " خلقت الاشياء لأجلك ، وخلقتك لأجلي " ، وقال – جل وعلا – في حديث قدسي آخر : " عبادي لم اخلقكم لاربح عليكم وانما خلقتكم لتربحوا علي " .



الفصل السادس

اسماء اللـه تتجلى في أحكامه

الله - تعالى - هـو ينبوع كـل خـير ، ومعـدن كـل عظمـة ، وهـو نـور السـماوات والارض ، ولكل اسم من اسمائه الحسنى اشارة ودلالة على صفة من صفاته الحميدة التي هي وسائل الخير ، ووسائط النور ، وامثلته .

ونوره - عز وجل - تجلى ويظل يتجلى من خلال المشكاة التي اشار اليهـا القرآن الكريم في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ (النُّور/٣٥) ، والوسيلة الى هـذا الافـق الرحب ، والعالم الأسمى هي الأسماء الحسنى ، فهي الحبل الموصل بين العباد وربهم كما قال - تعالى - : ﴿ وَلِلَّـهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَـادْعُـوهُ بِهـَا ﴾ (الاعـراف/١٨٠) فمـن خلالها نتقـرب اليه ونزداد معرفة به ، وبالتالي نـزداد قربـة وزلفـى اليـه - عـز وجل - .

اين يتجلى النور الالهي :

وهو – سبحانه – ليس بجسم او مادة حتى يحتل حيزا او مكانا ، بل ان مكانه في صميم قلوب اوليائه والمؤمنين به شريطة ان تكون طاهرة نقية من حجب الشرك ، وحجب النفس السوداء ، ففي هذه القلوب يتجلى الله – تعالى – ، ويتجلى نوره الذي لايمكن ان ينطفئ ، ولقد جاء في الحديث القدسي : " لا تسعني سماواتي ولا ارضي ، انما يعني قلب عبدي المؤمن " ، وفي الدعاء الشريف عن المعصومين (عليه السلام) تأكيد على هذه الحقيقة الايمانية : " وانك لاتحجب عن خلقك الا ان تحجبهم الأعمال دونك وان الراحل اليك قريب المسافة " .

ان ما يحول بين قلب الانسان المؤمن ، وبين معدن النور ، وينبوع العظمة هو ذلك الهوس المادي ، والركون الى الدنيا ، والانهماك في ملاذها ، والتشبث بزخارفها وبهارجها ، واذا ما انقطع الانسان عن كل ذلك فعندما يتصل قلبه بمعدن النور العظيم ، وينبوع العظمة الكبرى ، اي بخالقه الرؤوف الرحيم حيث تنعدم الحجب وتتمزق .

الاسماء الحسنى تنسجم مع حقائقها :

ان الاسماء الحسنى تنسجم مع حقائقها ، وتقوم في مواضعها المنطقية ، ومالاسماء والصفات الالهية تنبثق السنن الربانية ، والوجود والكون قائمان بهذه السنن الالهية ، وان اي خلل او انحراف يحدث صغيرا كان أم كبيرا سوف يسفر عن انقلاب كوني كبير يخل بنظام الوجود كله ، ولذلك أبى الله – سبحانه – الا الثبات والاستقرار والدوام لهذه الانظمة والقوانين التي يطلق عليها القرآن الكريم اسم (السنن) . وهذا هو حال الوجود والكون منذ ملايين السنين ؛ فالشمس تنطلق باتجاه معين ، والارض وغيرها من الكواكب السيارة تدور حول الشمس بلا زيادة في السرعة ولا نقصان ولا أدنى انحراف الى اليمين او الشمال ، ثم هناك العناية واللطف الالهيان الى

جانب السنن الدقيقة الثابتة ، وعلى سبيل المثال فقد توقع العلماء قبل سنوات ان تحدث ثغرة في الغلاف الغازي للارض بسبب التلوث البيئي ، وان الاشعة الكونية الخطيرة ستنفذ من خلال هذه الثغرة ، وتتسبب في القضاء على الحياة في كوكبنا شيئا فشيئا ، ولكن المعلومات الحديثة أكدت ان هناك بعض الظواهر الكونية التي هي جزء من القوانين والسنن الكونية تعمل على اغلاق وردم هذه الثغرات ، وهذا هو عين اللطف الالهي . وهناك عشرات الامثلة الاخرى التي تؤكد هذه الحقائق الايمانية في سنن الله في أرضه وسماواته ، وكيف ان أسماءه الحسنى - تعالى - تتصل وتتعلق بسننه ؛ كل اسم بما يرتبط به من سنة ؛ فسنة الرحمة تتصل بأسم الرحمان الرحيم ، وسنة الانتقام تنبع من مواضع انتقامه ، وهكذا الحال بالنسبة الى بقية الأسماء ، والصفات الالهية .

سنة الانتقام من الطواغيت :

وحول سنة الانتقام الالهي نقول : ان الله - عز وجل - شاء بمشيئته العليا ان ينتقم من كل طاغوت متجبر في الأرض ، فهو - سبحانه - أبى ان لاتكون الكبرياء والجبروت الا له ؛ فقد جاء في الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام) يقول عن الله تعالى : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما قصمته ..» [1] ، ولذلك فعندما يأتي طاغية كفرعون ، ويدعي الربوبية قائلا : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النَّازعات / ٢٤) ، فان السنة الالهية تفعل هنا فعلها في الانتقام ، ولذلك رأينا ان رب العالمين أخذ فرعون وجنده واغرقهم في اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

وفي مقابل هذه السنة ، هناك سنة الدفاع عن المستضعفين المتصلة بسنة الرحمة ،

---

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ٣١٢

ومن كونه - تعالى - الرحمن الرحيم فهـو يدافـع عـن المسـتضعفين وينصرهـم في نهضتهم ضد الظالمين ، ويجعل انتقـامه على أيديهم ان هم اخلصوا النصرة له ولكلمته العليا ، ووجد منهـم - سبحانـه - الاخلاص والتفانـي فـي سبيله ، وفـي ذلك يقـول - عـز وجل - : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القَصَص/٥-٦)

الحكمة منطلق السنة ومنتهاها :

والحكمة تلي السنة ، وتنطلق منها ، ونحـن نستنتج مـن ذلـك انـه لابـد مـن ان نستوحي من سنن اللـه وقوانينه حكما عامة نعمل وفقها وفي اطرهـا ، فعندمـا يوقـن العبد بأن ربه رحمان رحيم فانه يستوحي من هذه السنة الالهية المتمثلة في الرحمـة حكمة يجعلها نصب عينيه في حياته وتعامله مع اخوتـه مـن بـني الانسـان ؛ اي انـه يتخلق بهذا الخلق الالهي فيكون رحيما بالآخرين ، ويتجنب التكبر والظلم ، فالمؤمن الحقيقي رؤوف رحيم بالعباد ، يرحم كبيرهم ويعطف على صغـيرهم ، ورحمتـه هـذه لاتقتصر على بني جنسه انما تتعدى ذلك لتشمل حتـى الحيوانـات والنباتـات وكـل شيء يستحق الرحمة والرأفة .

والوصايا الالهية هي الاخرى تنبعث من الحكم الالهية ، ومن هـذه الوصايـا تنبثـق الاحكام الشرعية ؛ اي ان هناك على الدوام سلسلة قيمة تجب مراعاتها في الاحكـام الشرعية ، ابتداء من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وسننه وحتى وصاياه واحكامه .

الاحدية اعظم الاسماء الحسنى :

وتعتـبر الاحـدية المشار اليها فـي قـوله - تعالـى - : ﴿ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً

ءَاخَرَ ﴾ (الاسراء/٢٢) ، من اعظم أسماء الله الحسنى ، وهـي تدعـو الى نبـذ الشـرك وتوحيده – عز وجل – ، ومن هذا الاسم العظيم ، والصفة المقتصرة عليه – تعـالى – تتبلور سنة الهية عظيمة وهي ان لا معبود في الوجود الا الله – جلت قدرتـه – ، وبـه تنهار وتتحطم كل الآلهة والاصنام البشـرية والماديـة ، ومـن هـذه السـنة او القـانون الالهي تتفـرع امـور هي في غاية الاهمية منها ما اشار اليه الحديث الشريف : " مـن تعصب أوتعصب له فقد خلع ربقة الاسلام مـن عنقـه "[1] ، فـالتعصب للشـيء يعـني التزامه وتأييده بلا حدود ودون تحقق ، وهــو أمـر مرفـوض اذ يجـب تـأييد الشـيء واتباعه في إطار الحق ودائرة الشرعية والصلاح ، اما ان نؤيـد شـيئا مـا ونتبعـه دون نظر وتحقيق لهوى في النفس او لاسباب جاهلية اخرى فانه أمر غير منطقي ومغلوط يبعث على الضلال والانحراف .

ثـم يقـول – تعـالى – بعـد تلـك الايـة : ﴿ وَقَضَـى رَبُّـكَ أَلاَّ تَعْبُـدُوا إِلاَّ إِيَّـاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (الاسراء/٢٣) ، فالسياق القرآني يؤكد هنا سنة الاحديـة الـتي تصدر عنها الحكمة الالهية المتعلقة بها وهـي الاحسـان بـالوالدين ، فمجمـل الطاعـة للوالدين تمثل أمرا مطلوبا وواجبا ، ولكن المستثنى من هذه الطاعة ، الطاعة العمياء .

ويستأنف السياق القرآني الكريم قائلا في نفس الموضوع السابق : ﴿ إِمَّـا يَبْلُغَـنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُـل لَهُمَـآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَـا وَقُـل لَهُمَـا قَـوْلاً كَرِيمـاً ﴾ (الاسـراء/٢٣) ، وفي هـذه الايـة نلحـظ الدقـة والبلاغـة القرآنيــة العظيمــة المنبعثتين عن اسم الرحمة الالهية ؛ فالوالدان هما اصل الانسان ، وهما اللذان وهبـاه الوجود الذاتي ، فلا يجوز التجرؤ عليهما ، والنيل منهما ولـو بكلمـة تـأفف واحـدة ، وللأسف فان ما نراه في المجتمعات الغربية هو سحق كرامة الآباء ، وجرح مشاعرهم

---

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ٢٩١ رواية ١٦

واحاسيسهم من قبل ابنائهم ، فبالاضافة الى التربية المادية الفظة التي قطعت الوشائج والصلات الرحمية واذابت الكيان الأسري ، فان الآباء والاجداد المسنين أجبروا على العيش بعيدا عن ابنائهم واحفادهم في المصحات ودور العجزة ، فلا يتصل بهم الابناء الا نادرا ، اما الاسلام فانه يوصي بل ويحتم على المجتمع ان يحترم الآباء والاجداد ويوقرهم .

أمرنا بالاحترام لا العبودية :

ومع ذلك فان الاحترام والتوقير شيء ، والعبودية والطاعة شيء آخر ؛ فالعبودية والطاعة لايكونان الا لله تعالى ، اما الاحسان والرأفة والرحمة وغير ذلك من الاخلاق الايجابية فلابد من وجودها واستمرارها في المجتمع الانساني الذي يطمح الى بلوغ التكامل .

وهكذا فان التسلسل الموضوعي في القرآن الكريم فيما يخص أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وسننه وشرائعه وحكمه واحكامه ووصاياه انما وضع ليفهم العقل البشري من خلاله الحياة والوجود الفهم الصحيح والمنطقي ، ويكون قادرا على التطور ضمن حدود الزمان والمكان خالدا ما خلدت السماوات والارض ، والذي يحول دون ان يبلى الاسلام هو انسجامه مع فطرة الانسان حيث صيغت قوانينه وشرائعه واحكامه ونظرته للحياة بطريقة يفهمها العقل البشري والفطرة السليمة النقية .



الفصل السابع

الاسماء الحسنى تجليات السنن الالهية

عندما نتصفح كتاب اللـه - سبحانه وتعالى - نجده حافلا بالمئات مـن اسمـاء الله الحسنى ، ففي فاتحته المباركة - مثلا - نجد رغم قلة عدد آياتها العديد مـن اسمـاء الخالق - تبارك وتعالى - كالرحمان ، والرحيم ، والملك ، والمالك ... وهكذا الحال بالنسبة الى جميع السور القرآنية الاخرى ، وحتى السورة الخاتمة (سـورة النـاس) التي تعتبر من السور القصيرة للغاية فانها تحتوي على بعض مـن اسمـاء الله الحسـنى كالرب ، والملك ، والاله .

سر التأكيد على الدعاء باسماء الله :

والسياق الذي سيدور بحثنا حوله في هذا الفصل يبتدئ باسم جليل من اسماء الله

الحسنى ألا وهو " السبحان " حيث يقـول - عـز مـن قـائل - : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ (الاسراء/١) ، وهذا الاسم الشريف المقدس وغيره من الاسماء التي أمرنا اللـه - جل وعلا - ان ندعـوه بها يدعونا الى التساؤل : ماهو السر في هذا الأمر الالهي والدعوة الميمونة ؟

للاجابة على هذا السؤال نمهد لذلك بالقول ؛ لما استحال على الانسـان ان يحيـط بكنه الله - تعالى - ، وذاته المقدسة لمحدوديته الذهنية ، وقصور طاقته العقلية مهمـا بلـغ مـن النبـوغ والتفتـح ، ولذلـك فقـد كـانت علاقتـه بربـه منحصـرة في دعوتـه ، ومناجاته ، والتوسل اليه باسماءه الحسنى ، وآلائه العليا . علما ان الانسان يزداد ايمانا بالله ، وعبودية له ، وتقوى ، و ورعا كلما ازداد علمـا بضآلـة نفسـه ، وتفاهتها امام عظمة الله ، وجبروته ، وكبريائه .

استحالة الاحاطة بالذات الالهية :

وهناك الكثير من عوالم النفس الانسانية مازالت طي الجهـل ، واسـرارا لا يعـرف الانسان كنهها ، فيقف حائرا امام تلك المجاهيل ، والآفاق الواسـعة المتراميـة فيهـا ، فكيف الامر - يا ترى - بالنسبة الى الذات الالهية المقدسة ؟ فكما ان من المستحيل ان تجمـع ماء المحيط في قدح صغـير ، فكذلـك الامـر بالنسـبة الى معرفـة الـذات الالهية .

جهلنا بانفسنا وبالعالم :

على اننا مانزال نجهل انفسنا ، ولم تزل معرفتنا بها ضحلة ، ولازلنا لحد الآن على ساحل بحرها ، فلم نبلغ قيعانها ، ونكتشف ما تنطوي عليه من مجاهيل واسرار رغـم ان هذه النفس هي اقرب الاشياء الى الانسان . فلا يبهرننا هذا التطور العلمي ، وهـذه التكنلوجيا الجبارة ، والآفاق الواسعة ، والاكتشافات الهائلة التي حققها رواد العلـم .

فمازالت هناك - رغم ذلك - الكثير من ابواب العلم مؤصدة تبحث عمن يعثر على مفاتيحها ، علما ان عظمة العلم تكمن في انه كلما انفتح منه باب أطلت هذه الباب على مئات الابواب التي تحتاج الى جهد لفتحها . وعلى سبيل المثال فان الخلية التي هي وحدة بناء الكائن الحي والتي لا تراها العين المجردة ، اثبت العلم انها عالم واسع ومنظم تحكمه القوانين والانظمة ، ومع ذلك فهناك عقد علمية في الخلية لم يتمكن العلماء المختصون من اكتشاف اسرارها ، واعطاء تحليلات وتفسيرات مقنعة حولها . فمازالت الكثير من الظواهر فيها تفسر على اساس نظري بحت ، وربما تضاربت النظريات العلمية فيها .

فاذا كان ذلك غير ميسور بالنسبة الى اولئك الذين انفقوا عمرهم في العلم والبحث والدراسة والاختبار ، فكيف بنا نحن الذين لم نغترف غرفة واحدة من هذا البحر الواسع المترامي الاطراف ؛ واذا كنا نجهل هذه الخلية الصغيرة في اجسامنا ، فكيف يمكننا ان ندّعي القدرة على معرفة كنه الذات الالهية المقدسة التي اوجدت الاشياء والوجود والكون الواسع اللامتناهي بمجرد الارادة ؟

لا طريق امامنا سوى التوسل بالاسماء الحسنى :

واذا كان الأمر كذلك تبقى علاقتنا بالخالق - تعالى - ان ندعوه ، ونعرفه باسمائه الحسنى كما يقول - سبحانه - : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الاعراف/١٨٠) ، وكما يقول ايضا : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى ﴾ (الاسراء/١١٠) . وكلما دعونا الله - جل وعلا - باسم من اسمائه الجليلة كلما ازدادت معرفتنا به ، وقربنا منه ، وحبنا له ، وفي المقابل سوف يزداد حب الخالق لنا ورحمته ولطفه بنا .

فلندعه دائما ، ولنناده باسمائه ، ولنغتنم كل فرصة تسنح لنا في الذكر ، والدعاء ،

وان انشغل اللسان فليبق القلب ذاكرا متهجدا فهو - سبحانه - قريب يسمع النجوى ، ويعلم ما في الصدور ، ويعرف كل هاجس فينا ، وكل نية في قلوبنا ، فهو - سبحانه - يجيبنا ان دعوناه ، وناجيناه ولو بقلوبنا ، او دموع اعيننا .

الاسماء الحسنى تجليات للسنن :

وبناء على ذلك فلكي نبلغ القربة عند الله فلابد من ذكره ، ومعرفة اسمائه الحسنى . ثم يجب ان لا ننسى ان لهذه الاسماء الجليلة معاني اخرى ، وهي كونها تجليات لسننه - سبحانه - في الكون والوجود .

وعلى سبيل المثال فبخصوص الرحمة الالهية فان هناك سننا وقوانين وانظمة تعبر عن هذه الرحمة ، وهكذا الحال بالنسبة الى بقية صفات الله - جل وعلا - ، واسمائه الحسنى كالعظمة ، والكرم ، واللطف ، والحلم ، والعلم وغيرها . وعلى سبيل المثال فانك عندما تتأمل الظواهر الطبيعية والكونية المذهلة ، وتفكر في خلقها ، ووجودها ، واستمرارها ، وعظمة حجمها من شمس وقمر ونجوم ، ومن جبال وسهول ، وكائنات حية عجيبة ... فان عظمتها تدفعك بشكل لا ارادي الى ان تذكره - سبحانه - باسماء عظمته وكبريائه . وهذا هو تعبير عن النظرة السليمة التي لم تخالطها الشائبات المادية والالحادية ، فعظمة الشيء دليل على عظمة خالقه .

سنة تحمل المسؤولية :

وكذلك الحال عندما يتبادر الى اذهاننا قوله - تعالى - : ﴿ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (البقرة/١٩٦) ، فهذا تعبير عن سنة الهية هي سنة الجزاء والعقاب ؛ فلكل قول وفعل جزاؤه خيرا كان أم شرا ، ثوابا كان أم عقابا . وقد أكد - سبحانه - على هذه الحقيقة عندما قال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ (النجم/ ٣٩ - ٤٠) ،

وهذه هي سنة الجزاء التي جعلها الله لعبـاده في حيـاتهم الدنيـا . فالانسـان مسـؤول ومكلف بذاته ، وهو في اطاره مملكة هو ربهـا وسـيدها ، وكيـان مملكتـه هـذه هـو جسده الذي لابد من ان يعتني به ، وإلا فانه - اي الانسان - مسؤول عن أي تقصير تجاهـه . ولسنة الجزاء اسماء الهية عديدة تتعلق بها ، واكثرها صلة بهذه السنة اسمـه - تعالى - (السميع البصير) . فالانسان متمرد ومجادل بطبعه ، وهذا الطبـع كـان فيـه منذ اليوم الاول الذي نفخت فيه الروح ، ولذلك كان لابـد مـن رادع وكـابح لجمـاح التمرد الكامن في ذات الانسان ، ولعل الوازع النفسي هو من أهم هذه الكوابح . فـاذا ما فقد الانسان هذا الوازع الذي يحافظ على سلوكه ، ويكون له خير ناصح و واعـظ فان نصائح وارشادات الآخرين لا تكفي لوحدها ولا تنفع معه .

وبالاضافة الى ذلك فان القوانين والنظم سوف لا تجدي معـه نفعـا هـي الأخـرى ، ذلك لان الذي يفقد الوازع النفسي يعرف كيف يتحايل على القانون ويتهرب ويتملص منه ، وشواهد التحايل والالتفاف والتهرب هذه كثيرة تعج بها مجتمعاتنـا ، فمـا اكـثر عمليات التزوير والتهريب والارتشاء والمحسوبية وما الى ذلـك مـن انـواع الخـرق ، والاعتداء على القوانين والانظمة .

ترى ما الذي يضبط سلوك الانسان ومواقفه وحركاته ، وما الذي يجعل قلبه واعيا متبصرا بحيث يبادر الانسان عندما يلج في دهاليز المعصية الى الامساك بزمام نفسـه بنفسه ، والوقوف امام تدنّيها ، وترديها في المعاصي والذنوب ، وبتعبير آخر : من ايـن يأتي هذا الوازع النفسي ، وكيف ينمو وينشط في الذات البشرية ؟

لاريب ان هذا الوازع النفسي يتمثل في معرفة الله - سبحانه وتعالى - ، والاحاطـة بعظيم صفاته واسمائه ، ومنها انه - سبحانه - سميع عليـم ، يسـمع ويـرى ؛ وحـس المسؤولية انما يظهر ويترسخ فـي وجدان الانسان وضمـيره كلما ازداد معرفـة باللــه - جل جلاله - بحيث يعيش الشعور برقابتـه سـبحانه إيـاه في كـل حركـة وسـكنة تصدر منه ، فهو معه في كل مكان ، و في كل لحظة وأوان .

والرقابة الالهية هي التي تجعل الانسان يتـزن ، ويستقيم في حياتـه ، فتخلـق فيـه روح التقـوى ، وتقويهـا شـيئا فشـيئا ، وتنمـو في ذاتـه روح الرقابـة ، والمحاسـبة ، والشعور بالذنب والندم حين التقصير او ارتكاب المعصية . وهذا هـو مـا نسميـه بـ (الوازع النفسـي) الذي ينبـت ويتجسـد فـي الضـمير الحـي ، والوجـدان الطـاهر . فالمهـم ان يكون قلب الانسان نقيا ، طـاهرا لتنمـو ، وتنشـأ فيـه المعرفـة الالهيـة ، ولذلك جاء التأكيد في الاحاديث الشريفة على ان نذكر الله – تبـارك وتعـالى – في الخلوات .

وحقيقـة كـون الله سميعـا بصـيرا يجـب ان نعيشـها لتختلـط بدمائنـا ، وارواحنـا ، ولتتجلى في قلوبنا ، وحينئذ نزداد ايمانا ، وتقوى ، وهدى من الله – سبحانه – . واذا ما نفذت هذه المعاني والخصال النورانية في قلوبنا ، وانسجمت مع ارواحنا ، فعندئـذ سنعيش حس المسؤولية ، والواجب ، ونسـدد قلوبنـا بالطاعـة ، والاداء ، والالـتزام ، والاستقامة ، فترضى ضمائرنا ، وتطيب ارواحنا ، وبالتالي يرضى الله – سبحانه – عنا وهو الرضا الذي ننشده .

بنو اسرائيل انموذج التملص من المسؤولية :

وكمثـال تاريخي على حالة عـدم الشعـور بالمسـؤولية وعواقبـها تذكر لنا سـورة (الاسـراء) قصـة بنـي اسرائيل ، وكيف انهـم كانـوا يرفلـون فـي النعـم ، وان اللـه – تقدست اسماؤه – فضلهم على العالمين عندما عاشـوا روح المسـؤولية ، واظهـروا الولاء والطاعة لنبيهم موسى بن عمران (عليه السلام) ، وتحركوا وهاجروا وجاهدوا معه ، ولكنهم عنـدما بلغوا الشبع ، وبطرت معيشتهم ، شرعوا شـيئا فشـيئا بالطغيـان ، والكفران بانعم الله ، وراح الكبر ، والشعور بالافضلية والتفوق على غيرهم يدخل الى نفوسهم ، ويدب في اذهانهم ، حتى تأصلت فيهم النزعة العنصرية .

وانا لا أدري بالضبـط لماذا يتكبر هـذا الانـسان ، ويشمخ بانفه بغير حق ، ويحيط

نفسه بهالات العظمة والكبرياء وهو الصغير الحقير الضئيل الذي يصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) خير وصف عندما يقول : " مسكين ابن آدم تقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة ، وتؤلمه البقة ، مكتوم الأجل ، مكنون العلل " . فهذا الانسان الذي لايدري متى يموت ، ومتى يمرض ، وفي اي وقت يكون فقيرا ، او يصبح غنيا ، وهل سيصبح سيدا ، ام سيعيش عبدا يكاد يجهل كل شيء عن نفسه وحاله ومستقبله ، فلماذا التكبر ، ولماذا الغرور ، ولماذا كل هذا العجب بنفسه ؟!

وعلى سبيل المثال فان نمرود الطاغية الذي بلغ فيه الكبر ، والغرور ، والطيش درجة بحيث غدا يتصور نفسه الها ، فادعى هذه الالوهية ، وراح يضطهد الناس ، ويحرقهم ، ويسجنهم ، ويعذبهم كي يسجدوا له ، ويعبدونه من دون الله – تعالى – . هذا الطاغية شاء الله – تبارك اسمه – ان يذله اشد اذلال من خلال دويبة دخلت في اذنه ، واستقرت في مخه حتى اخذت تتغذى عليه ، فتهيج الآلام المبرحة في رأسه ، ويصرخ ، ويستغيث ، وكان لابد له من ان يضرب على رأسه لكي يسكن الآلام ، فكان يعطي الاموال لعبيده كي يضربوه على رأسه ، وظل على هذه الحال حتى هلك ، وانتقل الى سواء الجحيم .

وهكذا الحال بالنسبة الى بني اسرائيل ، فعندما بطرت معيشتهم ، واصابهم الغرور بانفسهم وقوتهم ، قالوا مقولتهم العنصرية وهي :

﴿ نَحْنُ أَبْنَآءُ اللَّهِ وَأَحِبَّآؤُهُ ﴾ (المائدة / ١٨) . وهذا الاتجاه هو الذي حرفهم عن الطريق القويم ، وامات فيهم روح المسؤولية ، فتبخرت التقوى من قلوبهم ، وكتب الله – سبحانه – عليهم الذلة ، والمسكنة الى يوم القيامة بسبب ما ارتكبوه من جرائم ، وانتهاك للحرمات ، وانطلاقا من نزعتهم العنصرية ، وغرورهم ، وكبريائهم الذي ازلهم عن جادة الصواب ، فانزلقوا في متاهات الفساد ، والإفساد في الارض . فالشبكات الصهيونية العالمية التي تعاني امم الارض من ويلاتها ، ومؤامراتها ، وجرائمها ليست

بالظاهرة الجديدة بالنسبة الى الاتجاه اليهودي العنصري القديم .

النصر قرين الشعور بالمسؤولية :

ان علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار ان النصر الالهي انما يـنزل علينا في اليوم الـذي يشعر فيه الجميع بمسؤوليتهم ، ويعرفونها ، ثم يعملون ويحرصـون على ادائها على احسن ما يكون الاداء والاتقان . اما عندما نتهرب ونتملص ، ونلقي هذا الحمل الـذي لابد من حمله وراء ظهورنا ، ونـبرر تقاعسنا ، وهروبنا بآلاف التـبريرات ، فلنغسـل ايدينا - عندئذ - من نصر ننتظر من الله - سبحانه - ان ينزله علينا .

وبعد ان نحس بالمسؤولية ، ونعيشها في وجداننا ، ونعمل بها ، ونؤديها لابد من ان يكون هذا الاداء والعمل متسما بالاخلاص ، والحرص على اتقانـه . وعلينـا ان نبعـد الانانية والمصلحية العمل بالمسؤولية الملقـاة علـى عواتقنـا ، ولنعلـم ان ذلـك الـذي يحلم بمنصب او مقام يفوز به من وراء جهاده وسعيه لا يمكن ان يوفق وينجـح ، ولا يصلح لان يكون مجاهدا .

فلابد - اذن - من ان تشيع روح الاخلاص ، وتدب في كل فـرد منـا لكـي نصـل الى اهدافنا المتمثلة في تحقيق النصر ، وبلوغ الحرية . فمادام الانسان يعيـش داخـل اطار ذاتـه فلـن يستطيـع فعـل شيء ، او انجاز عمـل مثمر ، فـالاولى بـالجميع ان يذوبوا في بوتقة الامة الواحـدة ، ويتحركـوا ، وعندئـذ بامكـانهم ان ينتظـروا النصـر والتسديد الالهي .

الفاعلية تجسيد للمسؤولية :

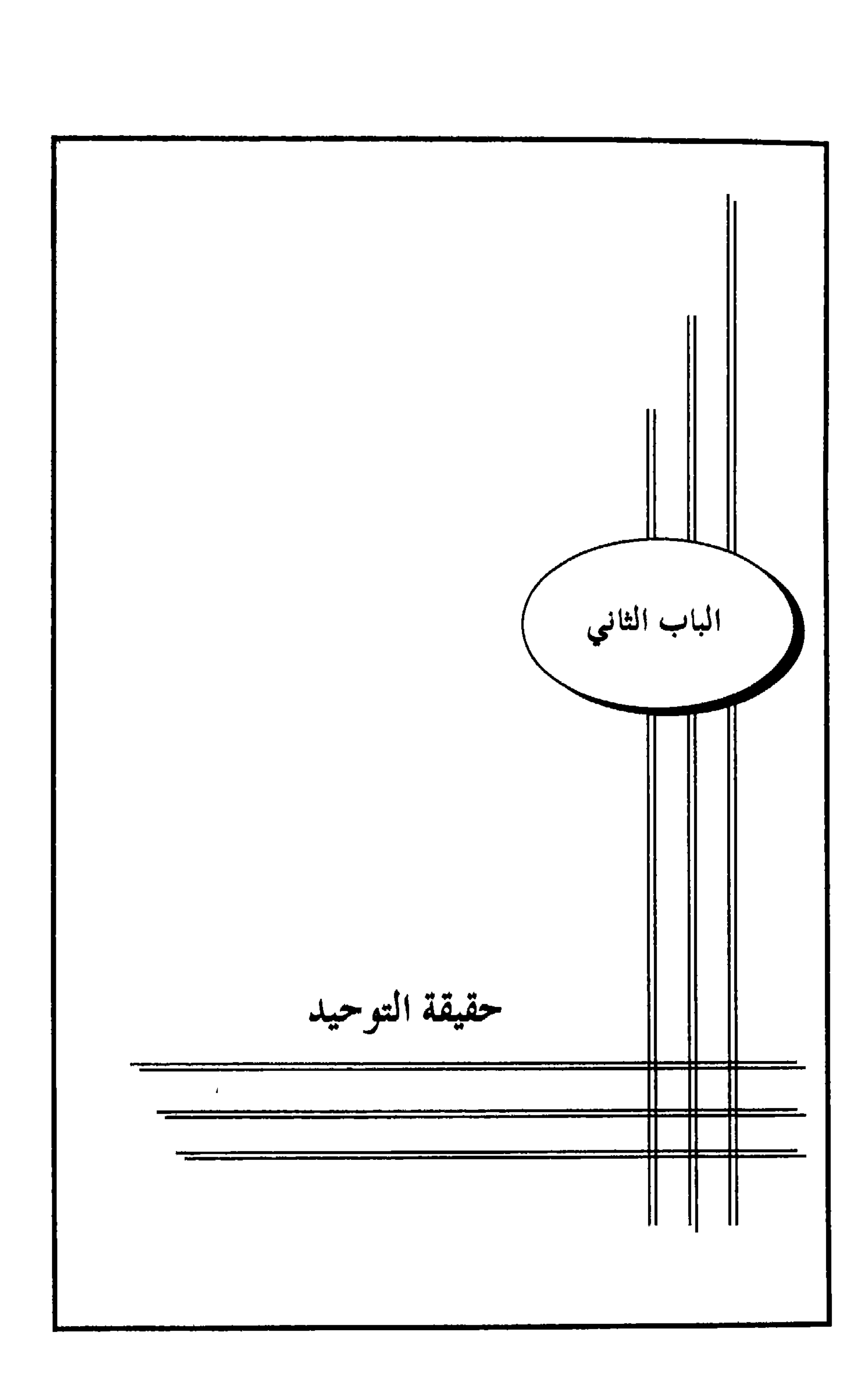
ولابد لنا في هذا المجال من الفاعلية التي هي تجسيد لعمق الشعور بالمسـؤولية ، وهذه الفاعلية تتأطر في أمور وسلوكيات عديدة منهـا ؛ اغتنـام الفرصـة ، واسـتغلال الزمن باقصى ما يمكن استغلاله للعمل والعطاء ، ومن ثم تكثيف الجهود ، والمثابرة ،

والهمة في العمل والتحرك .

فلابد - اذن - بعد كل ذلك ان تتبنى هـذه الحقيقة ، وننطلق منها ؛ وهي اننا عندما نعمل بجـد واخـلاص ، وانطلاقـا مـن المسـؤولية التي تمـلأ وجودنـا ، ووجداننـا ، وضمائرنا ، وحينما نكشـف ونوحـد جهـودنا ، ونخلـص في اعمالنـا للـه - تبـارك وتعالى - ، ونكون مجاهدين لله بمعنى الكلمة ؛ اي ان نكون مجاهدين حق الجهـاد ، فحينئذ فان الله - جل وعلا - سيغدق ويفيض علينا بالامكانيـات ، والقـدرات .. مـن خلال فتح ابواب الرزق امامنا .

اما عندما ننسى - لا قدر الله - االمسؤولية ، ونتملص من ادائهـا ، واداء الواجبـات الملقاة على عاقتنا ، ونتهرب منها فان الأمـر سـيكون معكوسـا - والعيـاذ بـالله - اي بمعنى ان النصر الالهي سـوف يحبـس عنـا . فـلا يسـتجيب - سـبحانه - لدعائنـا ، وسـنظل في هـذه الحالـة نـتردد في متاهـات عـدم الشـعور بالمسـؤولية ، وانعـــدام الاخـلاص في العمـل لان كل انـسان يجـازى بمقـدار عملـه ، ويكـون مصـيره مـن جنس الاعمال التي يقوم بها ، كما يقرر - جل وعلا - هذه الحقيقة في قوله : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الاسراء/٧) .





الباب الثاني

حقيقة التوحيد



التوحيد قمة الهرم القيمي

لوجمعت الفضائل وجّدت وركّب منها شكل هرمي لكانت " مخافـة اللـه " رأس هذا الهرم ، وفي الحديث الشريف " رأس الحكمة مخافة اللـه " ما يشهد علـى صحة قولنا ، ذلك لان مخافة اللـه – سبحانه – هي ميرات معرفته ، وليس بمستطاع القلب ان يستوعب معرفة اللـه الا اذا استشعر الوجل والخشية منه – تعالى – .

هذا ن ناحية ، اما من الناحية الاخرى وهي الناحية السلبية فان الخبائث والرذائـل لوجمعت لوجدنا ان مصدرها هو حب الدنيا ، وقد صدق امام المتقين علـي بـن ابـي طالب (عليه السلام) عندما قال : " حب الدنيا رأس كل خطيئـة " .

والقيم النبيلة الفاضلة التي تصب في نهرها روافد كـل القيـم ، والـتي تنطلـق منهـا حكم الشريعة الالهية ، هذه القيم ذات ارتباط وثيق بالتوحيد والمعرفة الالهية ومخافة

الله - جل وعلا - .

أعظم القيم :

وتفصيل سبب ذلك ان قيمة الاستقلال والحرية هي أعظم القيم الانسانية واسماها ، وهي مبعث كل خير في هذه الدنيا ؛ فالانسان الذي يتمتع بالاستقلالية ويستشعر العزة والكرامة ، فانه حر في كل كيانه ولايكون حاله كحال اولئك الهمج الرعاع الذي ينعقون مع كل ناعق ، ويميلون حيث مالت الريح ؛ فهم أسرى الأهواء والشهوات لا حرية لهم ولا كلمة مستقلة .

ولكي يكون الانسان حرا ولكي يعيش مستقلا لابد ان يتجنب ما يرسخ فيه تلك الخصائص السلبية المقيتة ، فهو ولكي يعيش في هذه الحياة انسانا بمعنى الكلمة عليه ان يجعل عزته وكرامته نصب عينيه حتى يشعر بحلاوة الحرية ولذة الاستقلال ، واذا ما فقد هاتين الميزتين فما الذي يبقى له من انسانيته ، وما قيمة تلك الحياة التي يلفها الذل والحرمان والاضطهاد وسحق الكرامة ، ويسير الانسان فيها كالآلة ذليلا مهانا ؟ وهكذا فان الحرية والاستقلال هما أعظم القيم ، وفيهما ينطوي معنى التوحيد الالهي ، فعندما نهتف في وجه الطغاة فان هذا الهتاف التوحيدي يعني رفض العبودية لغير الله ، والايمان بالله وحده حيث لاخشية الا منه - سبحانه - .

الفطرة دليل التوحيد :

ان البشرية تدرك بفطرتها ان الله هو ربها ، وهو الذي خلق كل شيء كما يشير الى ذلك - تبارك وتعالى - :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزّخرُف/٩) ، فلم يشهد التأريخ دينا لايعترف بألوهية الله - تعالى - ، وحتى الماديون والماركسيون الذين كانوا الى الأمس القريب ينكرون وجود الله - سبحانه

وتعالى - نراهم اليوم وقد تنكروا لمبادئهم وتراجعوا عن افكارهم ، فالبشرية قد خلقت على فطرة التوحيد والايمان والاعتراف بوجود الله وربوبيته ، رغم انها قد تختلف بالطريقة والاسلوب عن بعضها البعض .

وعلى هذا فان الموضوع الاساسي ليس هو الاعتراف بوجود الله او انكاره ، وانما التوجه اليه ، ورفض سائر الالوهيات الزائفة المتمثلة في الاصنام ، والاوثان الحجرية والبشرية الطاغوتية . فكلمة (لا اله الا الله) تعني رفض الآلهة المزيفة ، والطواغيت ، وكل قوة سلطوية من خارج ذات الانسان كقوة السلاح او المال او الفكر الباطل ، او من داخله مثل الشهوات والاهواء التي هي اصنام النفس الداخلية ، وهذا هو التوحيد بمعناه الفلسفي .

ان الانسان الذي يعيش حياته خاضعا للطاغوت ، منفذا لإرادته ووسيلة بيده ، مثل هذا الانسان ليس مؤمنا بالمعنى الحقيقي للايمان ، وهو غير حر ولا عزيز عند الله والمؤمنين ، ولايمكن ان يحبه الله - تعالى - ولو نطق بشهادة التوحيد آلاف المرات وتعبد اياما وليالي في المساجد ، لان هذه الشهادة ستكون منه مجرد لقلقة لسان لا اكثر ولا اقل . فصدق الايمان والعقيدة يجب ان ينعكس في السلوك والعمل على صعيد المجتمع والحياة .

فالتوحيد - اذن - هو القيمة الاولى ، ورأس الهرم في مجموع القيم والمفاهيم والعقائد الالهية النبيلة ، وهو مصدر الحرية والاستقلال ، ويتجسد في اولئك الذين يريدون الحرية والاستقلال اللذين يعتبران مصدر كل خير وبركة وسعادة في الحياة .

الاسلام يخاطب المظلوم أولا :

ونحن لو تفحصنا الثقافات البشرية السائدة لوجدنا انها ومن أجل ان تقضي على ظاهرة الظلم فانها تخاطب الظالم أولا ، وتطلب منه ان ينتهي عن ظلمه ، في حين اننا لو نظرنا الى ثقافتنا الاسلامية الرسالية فاننا سنجد انها لاتطلب من الانسان ان

لايكون ظالما لكي ينعدم الظالمون في الارض ، بل تتبع اسلوبا ذكيا واقعيـا فتلتفـت الى الانسان وتأمره ان لايكون مظلوما ، وان لايرضى بـالظلم ، فهـي تثير فيـه روح التحدي والتصدي للظلم .

وهكذا فان الثقافة الاسـلامية لاتوجـه اللـوم الى الطغـاة كمـا هـو حـال الثقافـات الاخرى ، لان هؤلاء الطغاة قد اختاروا طريقهم ، فلا فائدة ترجى من لومهم ، بل هي تنهى الانسان عن اتباع الطاغوت والرضوخ اليه ، فهي لاتطلب من الحكـام ان يهبـوا الحرية لانها حق فطري للانسان ، بل تخاطب الانسان وتحثه على انـتزاع حريتـه ان لم يستطـع نيلها بسهولة ، فالثقافة الاسلامية تهتف بالانسان ان : " لاتكن عبد غـيرك وقد خلقك الله حرا " .

ضمان التقدم :

ومما لاشك فيه ان الحرية والاستقلال أمران أساسيان لتقدم المجتمعات واستقلالها وهذا ما نلحظه في البلدان الـتي يتمتـع ابناؤهـا بهـاتين الخصيصتـين ، فاننـا نجدهـا متطورة متقدمة على جميع الاصعدة ؛ السياسية والثقافية والاقتصاديـة والاجتماعيـة ، فالانسان فيها حـر كريـم عزيـز ، يتحـرك وينشـط ويبـني وينتـج ، ويطـور انتاجـه ونشاطه .

ولايغيب عنا ان الاستقلال والحرية تمثلان قيمة انسانية منبعثة من صلب التوحيد ، ذلك لان الاسلام يريـد مـن الانسـان المؤمـن ان يعيـش حـرا أبيـا ، يشـعر بـالعزة . والكرامة لاتعطى ولاتمنح عادة بل تؤخذ وتنتزع بكل غال ونفيس ، فتحقيقها بحاجة الى بذل التضحيات والانفس والدماء .

اننا لو تساءلنا : كيف نصبح احرارا ، ودرسنا التأريخ لوجدنـاه انعكاسـا وتجسـيدا لمعاني قوله - تعالى - :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن

بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَانفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة/٢٥٦)

لقد اضحينا في عداد الموتى بسبب رضانا بالذل ، ورضوخنا وخصوعنا للظالمين ، في حين ان على الانسان المؤمن ان يصون حريته وكرامته ، فلو كنا لانمتلك شيئا سوى الايمان والتوكل على الله – تعالى – فان هذا وحده يكفي للوقوف في وجه الطغاة :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطّلاَق/٣)

فما قيمة قوى الطاغوت أمام قوة الله وجبروته وعظمته ؟

النبي ابراهيم (عليه السلام) تحدى لوحده تجبر نمرود وسلطانه ، فحاجهم وحاجوه ، وتعجبوا من جرأته قائلين : اما تخاف ، اما تخشى الموت وانت ماتزال شابا يافعا ليس من ورائك عشيرة تدافع عنك ، ولاتملك سلاحا تحارب به ؟!

ولكن ابراهيم (عليه السلام) ابتسم مستهزئا بهم وقال لهم كما صرح بذلك القرآن الكريم :

﴿ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الانعام/٨٠)

فلقد أنعم الله على النبي ابراهيم بنعمة الهداية وهي أعظم نعمة يمنّ بها الله على عباده .

ويستمر النبي ابراهيم (عليه السلام) في محاجة قومه من اتباع نمرود قائلا :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الانعام/٨١) ، ويأتي الجواب على هذا التساؤل في السياق نفسه متمثلا في قوله – جل وعلا – :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ ﴾ (الانعام/٨٢) ،

فالأمن الحقيقي هو لذلك الانسان المطمئن قلبه برحمة اللـه ونصره ، فـالمؤمن يتجـه بكل جوارحه ، وبحقيقة ايمانه ، وسلامة موقفـه نحـو اللــه - عـز وجـل - ويعتمـد ويتوكل عليه .

الاعتماد على اللـه :

فالانسان مادام مؤمنا فانه يعتمد على اللــه - عـز وجـل - وحـده ولا يمـدنّ يـد الحاجة الى هذا او ذاك وهو يعلم ان ثقته باللـه واعتماده واتكاله عليـه سيضمن لـه رزقه وهـذا نابع من قيمة التوحيـد . لذلك تراه فـي حركة ونشــاط ومثابرة يضـرب في الارض ويستثمر طاقاتها وكنوزها وينتـج ليقـدم النفـع الى نفسـه ومجتمعـه فهـو لايستيغ العيش كلاً على الاخرين وقـد وضع نصب عينيـه الحديـث الشريــف الـذي يقول : " ملعون من القى كلّه على الناس " .

ولكننا وللأسف الشديد اذا احتجنا الى حاجة ولينـا وجوهنـا غربـا او شـرقا ، وان أردنا بضاعة او معونة اقتصادية تملقنا للغرب او الشرق ، وهذا هــو حالنـا في أغلـب أمورنا وكأن الله - سبحانه وتعالى - لم ينعم علينا بهذه الخيرات والثروات والكنــوز والرزق الوافر فلماذا لانعتمد على انفسنا ونســتثمر هـذه المعـادن والطاقـات ، أليـس الاجدر بنا ان نفكر ونعمل بدلا من التسكع على ابواب الشرق والغرب ؟

ان علينا ان نعلم ان من يلقي كله على غيره ، ويهمـل طاقاتـه الفكريـة والجسـدية فانه سيعيش حالة الفقر والتخلف طيلة حياته ، اما الانسان الذي يتكل على الله وحده ويستغل المواهب والطاقات الفكرية والبدنية التي منحه الله اياها فانه هو الذي يحيـى الحياة الطيبة الحرة الكريمة ، والله - سبحانه وتعـالى - يحـث الانسـان دومـا علـى السعي والتحرك كما جاء في قوله : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ ﴾ (الملك/١٥)

وبناء على ذلك كله فـان التوحيــد هـو قمة الهرم القيمي ، والانسان الذي يعيش

في ظل الايمان الصادق بالله لابد وان يحيا حياة فاضلــة يســودها الأمــن في جميــع اصعدتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما يقول - عز وجل - :
﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ ﴾ .



الفصل الثاني

التسليم شرط التوحيد

ليس من العبد ولا لمصلحة يبتغيها الله - سبحانه وتعالى - وحاشى له وهو الغني الحميد ، عندما أنزل شرائعه لبني آدم وأوجب عليهم ما اوجب من الفرائض والسنن وحينما أمرهم ونهاهم ؛ فوراء كل ما نزل من التشريعات والأوامر والنواهي حكم ربانية تقوم عليها .

حكمة التشريعات والاحكام :

والقرآن الكريم لم يذكر حكما شرعيا ، او فريضة الهية الا وشفعهما ببيان الحكمة والقيمة اللتين ينطويان عليهما ، فعندما جاء الامر باقام الصلاة بين القرآن حكمة الصلاة فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(العَنْكَبُوت/٤٥) وفي آية اخرى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه / ١٤) .

وعندما أمر – عز وجل – بالطهارة والتطهر استعدادا للصلاة فانه قد اوضح الحكمة من ذلك قائلا :

﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة/٦) ، فالهدف الاسمى من عملية التطهر سواء كان وضوء او غسلا او تيمما هو ذات التطهر .

واذا تحدث القرآن عن الزكاة بين الحكمة من وراءها ذاكرا انها تطهيراً للذات وتزكية للنفس : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة/١٠٣)

وهكذا الحال بالنسبة الى الحث القرآني على الجهاد بمختلف انواعه ، فربما تكون الحكمة منه التمحيص ورفع درجة الانسان المؤمن ، او بلوغ احدى الحسنيين ، او اقامة العدل وتحرير الشعوب من سلطان الكفر والجور وما الى ذلك من الحكم والاهداف العديدة .

وفي بعض الاحيان يصرح القرآن الكريم بمفهوم الحكمة ويشير اليه كما في قوله – سبحانه – : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (الاسراء/٣٩)

هرمية القيم الالهية :

وهذه الحكم والعلل ٠والاهداف والغايات المثلى تنتظم ضمن مجاميع ، وتشكل بالترابط بينها هيكلا هرميا ؛ أي انها تتصل ببعضها حتى تنتهي الى قيمة واحدة تقع

في قمة هذا الهرم .

فالصلاة – على سبيل المثال – هي فريضة واجبة ، وهي لم تصبح واجبة الا لانها تمثل ذكر الله ، والذكر هذا لم يكن واجبا الا لان الله – عز وجل – قد خلقنا ، وتفضل علينا بنعمه التي لا تحصى ، ولانه كذلك فلابد ان نقف امامه خاشعين نذكره من خلال الصلاة التي فرضها علينا فالصلاة هي قيمة تتسلسل وتنتظم حتى تصل الى القمة ، وكذلك الحال بالنسبة الى الزكاة فهي واجبة لانها طهارة للقلب وتزكية للنفس ، والطهارة والتزكية هما مقدمة وتمهيد لذكر الله – تبارك وتعالى – .

متى يتصل القلب بالنور الالهي :

ان القلب المشحون بحب الدنيا محجوب عن ذكر الله ، واذا ما فرغ هذا القلب من حب الدنيا فحينئذ سيكون بامكانه الاتصال بالنور الالهي ، ذلك لان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، فالرغبات والحاجات الدنيوية المادية هي حائل دون الذكر الخالص .

والدليل على ذلك ان احدنا لو كان على عطش او جوع شديد فليس باستطاعته ان يفرغ قلبه ، ويتوجه بشكل كامل الى ربه ليذكره ويصلي له دون ان يبالي بالجوع او العطش الذي اصابه ، ونحن في احوالنا الطبيعية نجد انفسنا عندما نقف للصلاة تهجم حشود الشياطين على قلوبنا وافكارنا ، وما أن نفرغ من هذه الصلاة حتى نرى انفسنا في واد ، وما لقلقت به السنتنا من ذكر في واد آخر ، ذلك لان القلوب والنفوس لم تتطهر بعد لتكون اهلا للذكر الخالص الواعي .

اصلاح وتطهير القلوب :

ومثل هذه القلوب من الممكن اصلاحها وتطهيرها وتهيئتها للذكر الخالص من خلال استثمار مواسم التطهير والتزكية من مثل شهر رجب و٠شعبان وشهررمضان المبارك . ففي شهر رمضان نقرأ الادعية التي تسهم في تطهير القلوب ، وتزكية

الانفس مـن الماديات والرغبات الدنيوية مثل الدعاء الذي يقـول : " اللهم صل على محمد وآل محمد واعمر قلبي بطاعتك ، ولاتخزني بمعصيتك ، وارزقني مواساة مـن قتّرت عليه من رزقك بما ورسعت علي مـن فضلـك ، ونشـرت علـي مـن عدلـك ، واحييتني تحت ظلك " .

ان القلب الذي يركض لاهثا وراء الدنانير والدراهـم ، ويحلـم بـالذهب والفضـة ، ويبحث عن الجاه والشهرة والمناصب ، وتجرفه تيارات الانانيات انما هـو محجـوب وان كان صاحبه عالما او فقيها فالعالم الذي لا يزيـده علمـه قربـة الى الله وتواضعـا للناس انما هو محجوب عن ذكر الله - تعالى - .

واذا وجدت فـي قلبك الرغبة فـي القـرآن واداء العبـادات فـاعلم ان القلـب منـك نظيف ، وان فقدت تلك الرغبة ولم تستشعر حلاوة قراءة القرآن واداء الصـلاة فـاعلم ان غيوم الدنيا السوداء قد لبدت سماء قلبك فحجبته عن بارئه ، وعليك ان تعمل بما تخرق به هذا الحجاب ، وتقشع تلك الغيـوم لكـي تستشـعر في نفسـك التلهـف الى النظر في كتاب الله وتلاوته ، وتؤدي صلاتك وعباداتك بكـل شـوق فليـس صادقـا ذلك الذي يدعي حب اللـه ثم لايستأنس بتلاوة كتابه الذي هـو حديـث اللـه اليـه كما يقول الحديث الشريف : " من قرأ القرآن تحدث الله معه ، ومن صلى تحدث مـع اللـه " .

فليسع الانسان المؤمن كي يجعل قلبه يهفو الى الصـلاة ويعشـقها ، فـالصلاة خـير موضـوع وهي معراج المؤمن وقربان كل تقي ، فلنعظمها ونحببها الى قلوبنا ، ولنكثر من مستحباتها بالاضافة الى الخلوص في ادائها .

وهكذا فان علل واهداف الشـرائع وحكـم الفرائـض والقيـم الناجمـة مـن الطاعـة الالهية لأوامره - تعالى - ونواهيه انما تجتمع في هيكل هرمـي تقـع القيمـة الالهيـة العليا في قمته ، وتنحدر منها سائر القيم متسلسلة حتى تصل الى الاحكام الشرعية ، والفرائض الدينية .

التسليم القيمة الالهية العليا :

ورب سائل يسأل : ماهي القيمة او الحكمة الاساسية التي تتفرع عنها سائر القيم والحكم ؟ وبتعبير آخر : ماهي القيمة الالهية العليا التي تقع في قمة هرم القيم ؟

ان هذه القيمة هي التسليم لله – سبحانه وتعالى – ، فكل الاحكام تنتهي عند هذه القيمة الاساسية ، والحقيقة الايمانية الكبرى ؛ فالاحكام والشرائع والفرائض الالهية وكل ما يتعلق بالطاعة تهدف كلها خلق روح التسليم لله عند الانسان المؤمن . فالتسليم هو روح العبادة ، والى ذلك يشير قوله – عز وجل – عن لسان ابراهيم (عليه السلام) : ﴿ **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الانعام/٧٩)

فالانسان الذي يجد في نفسه روح المعارضة والرفض امام الله – تبارك وتعالى – واحكامه واوليائه فهو ليس بمسلم .

والله – سبحانه وتعالى – لايحتاج الى القسم عندما يعكس ويطرح الحقائق في كتابه المجيد ، ولكننا نجده رغم ذلك ولعظم وخطر بعض المفاهيم والقيم يطرحها بعد القسم بنفسه المقدسة كما هو الحال في حقيقة التسليم التي نحن بصددها فهو – عز وجل – يقول : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ (النساء/٦٥) ، وهذا هو التسليم المطلق .

عدم تسليم ابليس سبب لعنه :

وابليس – عليه اللعنة الدائمة – لم يكن قد طرد من رحمة الله وأبعد من مقام الملائكة السامي الا لانه لم يسلم لأمر الله – تعالى – عندما أمره بالسجود لآدم ، وكان قد عرض على الله ان يسجد له سجدة تطول أربعة آلاف سنة على ان يعفيه من

السجود لآدم ، ولكن اللـه – جل وعلا – رفض عرضه هذا لانه كان في غنى عن هذه السجدة الطويلة .

وسبب تمرد أبليس ، وعدم تسليمه لأمر الخالق استكباره ونزعتـه العنصريـة وقـد صرح بذلـك عندما سأله الخالق – سبحانه – عن سبب امتناعه عن السجود فقـال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (ص/٧٦)

وربما يروادنا الاستغراب والتعجب من سجود الملائكة التي خلقت مـن نـور لآدم المخلوق من طين اذا أخذنا بنظر الاعتبار مجـرد السـجود ، ولكـن هـذا الاسـتغراب والتعجب سرعان ما يزولان اذا ما راجعنا الحوار الذي يرويـه القـرآن بـين الملائكـة وربهم عندما خلق آدم ؛ تأملوا هذا الحوار : ﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة/٣٠)

فالاعتراض قد حصل من الملائكة على خلق آدم لعلم علموه بمـا سـتجنيه ايـدي ذرية هذا المخلوق ، ولكن ما في العلم المطلق للـه هو غـير مـا في علـم الملائكـة المحـدود ، وهذا مـا اشـار اليـه – عـز وجـل – في قولـه : ﴿ إِنِّـي أَعْلَـمُ مَـا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقد قيل في تفسيره ان الله – سبحانه وتعالى – يعلـم ان فـي آدم نـور النبـوة ، فمـن ذريتـه سينطلق الانبيـاء وعلى رأسهم الخاتم المصطفى محمد (صلـى اللـه عليه وآله) ، ومن ذريته ايضا ستنبت شجرة الامامة ، فلأجلهم كان ذلـك الأمر بالسجود ، وهذا ما يزيل الاستغراب من سجود النـور والنـار للطـين ، اما رفـض ابليس فكان يعـود الـى الاستكبـار والاستعـلاء الشيطانيين .

الولاية مصداق السجود الملائكي في حياتنا :

ان مفهوم هذا السجود الملائكي ينعكس عندنا اليوم ويتجسد في قيمة الولاية ،

ولذلك فان (التولي) ليس بالامر الهيّن ، فالولاية هي أثقل ما في ميزان يوم القيامة ، فهي تبدأ من ولاية الله - عز وجل - ، ومنها تنحدر الى ولاية انبيائه ورسله ثم ولاية الائمة ، ثم ولاية من فرض الائمة طاعتهم واتباعهم والرجوع اليهم .

ومع ذلك فان الانسان يكابر ويصر على غيه ويمعن في مخالفة الحق عندما نجده يعكف على عبادة غير الله من الاصنام والاوثان بل وحتى الحيوانات والجمادات ! فتعشش روح ابليس بين احشائه لتحجب قلبه عن النور ، وتفسد ضميره ووجدانه بل وتميتها ، واني لمثل هذا الانسان ان يشم رائحة الجنة فضلا عن دخولها مالم يخرج مافي قلبه من آثار الكبرياء والعناد .

وقد جاء في الحديث الشريف : " كل انسان يضمر ما أظهره فرعون " وهذه هي صفة الكبرياء التي تحكّم بها فرعون على الناس ، ومن خلالا استذلهم واخضعهم لطغيانه فقال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النّازعات/٢٤)

الكبر كامن في نفوسنا :

وفي الحقيقة فان هذه الصفة كامنة في نفوس الكثير منا ، وآثاره تظهر في سلوكنا وتصرفاتنا واخلاقنا ، فهناك الكثير ممن كانوا يقرؤون القرآن وما ان سمع احدهم انه قد ارتقى الى سدة الحكم حتى اطبق القرآن ، ووضعه في الرف مخاطبا اياه : هذا فراق بيني وبينك .

وهناك حاكم آخر يضع القرآن الكريم امامه ليرميه بسهامه قائلا :

تهددني بجبار عنيد فها انا ذا جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلندع الله - جلت قدرته - ان يمنحنا السلامة في ديننا ، وحسن العاقبة والا فان الاستكبار قد يكون سببا في انحرافنا وفسادنا وخروجنا عن الصراط المستقيم .

ان الولاية الحقة التي يشهد لها القول والعمل هي التي تزيل الكبر من النفوس ، وتطرد الوساوس الشيطانية منها ، وتزكي القلب وتطهره وتفتحه لنور الايمان .

فلننبذ التوجهات الشيطانية من نفوسنا ، ولنتمسك بحبل الولاية الذي هو حبل الله فأهل البيت (عليه السلام) هم سفن النجاة ، وتجسيد موالاتهم في اخلاقنا وسلوكنا واعمالنا نجاة لنا من النار والعذاب ، ففي يوم القيامة لابد ان يسألنا الله – جلت قدرته – عن هذه الولاية ، والنعمة الكبرى التي ما بعدها من نعمة ، كما يشير الى ذلك – تعالى – في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر/٨)

التسليم المطلق للولاية :

وفي هذا المجال تروى قصة طريفة عن علي بن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) والذي كان من كبار فقهاء الشيعة ، وكان اخ الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، وعم الامام الرضا (عليه السلام) ، وبمنزلة الجد للامام الجواد (عليه السلام) ، وقد كان هذا الرجل قد عمر حتى ادرك إمامة الجواد (عليه السلام) للامة ، وكان الامام يأتي وهو طفل صغير الى مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) فينهض هذا السيد الفقيه رغم كبر سنة وشيخوخته ويأتي بالنعل ويضعه امام قدمي الامام الجواد (عليه السلام) ، فتنبري جماعة لتعيب علي بن جعفر على سلوكه هذا تجاه الامام فيرد عليهم غير آبه بهم : وما تروني افعل والله – سبحانه – لم يجد أهلية الامامة في هذه الشيبة ، والله اعلم حيث يجعل رسالته .

حاجتنا الى هذه الولاية :

واننا بحاجة الى مثل هذا التولي ، فالولاية ليست بالمفهوم الجديد ، بل جاء التأكيد عليها بعد ظهور الاسلام ، بل هي عهد قطع منذ خلق الله – تبارك وتعالى – آدم حيث قال – عز وجل – : ﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ الأَسْمآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة/٣١) ، كما

جاء في الحديث الشريف : " ما من نبي ولا وصي الا أخذ عليه الميثاق بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وولاية علي (عليه السلام) " .

ولذلك فان الولاية هي جوهر التسليم لله – سبحانه وتعالى – والرضا بقضائه وقدره ، وطاعته في أوامره ونواهيه ، ولذلك فانها ليست بالأمر الهين السهل فمن طبع الانسان الرفض والمعارضة بسبب ما ينزغ الشيطان ويوسوس في صدره .

ولقد دأبت الامم على مقاومة انبيائها من حيث نقطة الولاء والتسليم هذه ، فلابد من تدريب النفس وترويضها على التسليم للخالق ، وهذا التسليم لايكون الا بالولاء لأهل بيت العصمة والطهارة الذين هم سفينة النجاة يأمن من ركبها ، ويغرق من تركها ، والمتقدم لهم مارق ، والمتأخر عنهم زاهق ، واللازم لهم لاحق .

التسليم سر قبول العبادات :

فلننزع ما في انفسنا من علو وكبرياء فهما لايكونان الا لله – تعالى – ، والا فلا أمل لنا بأن نشم ريح الجنة فضلا عن دخولها ، والتنعم في ظلالها ونعيمها الوارف . فلابد من ازالة الكبر والعجب من نفوسنا ولو كانا بمقدار ذرة ، والا فان عباداتنا من صوم وصلاة وحج وزكاة .... سوف لاتنفعنا فالكبر هو سبب هلاك ابليس ، فالصلاة والسجود لاينفعان وان طالا آلاف السنين ، بل ان عبادات الانسان انما يعودان بالفائدة على الانسان اذا قرنا بالخضوع والتسليم لله – سبحانه وتعالى – .

وهكذا تبقى الولاية هي صاحبة العقبى الطيبة بعد فناء الباطل والكفر والضلال وأهله مهما علوا في الارض ، وأفسدوا فيها وظلموا وتجبروا وسفكوا الدماء وذلك بشهادة قوله – تعالى – : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (القَصَص/٨٣)



الفصل الثالث

فلسفة التوحيد

من المعطيات المهمة لفلسفة التوحيد النظرة الوحدوية الى العالم ، فبينما نجد الشرك يقسم الحياة تقسيمات حادة دون ان نرى فيه ذلك التفاعل والتمازج بين اركانها ، بل نرى ان كل نوع من انواع الموجودات في الحياة ينتهي الى إله يخصه ، وان هناك صراعا مريرا بين أرباب هذه الانواع في حين نجد في المقابل ان الفلسفة التوحيديه تربط كل شيء بالله – سبحانه وتعالى – ؛ فاليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، واليه تصعد الملائكة وتعرج ، والسماوات مطويات بيمينه ، والارض في قبضته ، وحياة الانسان تبتدئ من ارادته وتنتهي اليه ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وله الخلق والأمر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ...

فلسفة التوحيد تنفي الشريك :

وهكذا فان فلسفة التوحيد تعني بالدرجة الاولى ان ليس هناك آلهة وأرباب غيرالله – سبحانه – ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف/٣٩)

فهو الواحد بلا شريك والملك بلا تمليك ، لايمكن لأحد ان يقهر سلطانه او ان يهرب من حكومته او ان يخالف أمره الا بمشيئته ، ولايعصى عن غلبة ولايطاع الا بقوته ولا حول ولا قوة الا به ...

ان هذه الفلسفة تشير الى ان كل شيء لابد ان ينتهي الى ذلك الرب الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد ، وحتى ابليس ذلك المتمرد اللعين الذي ينسب اليه كل شر والذي يغوي الانسان عن الصراط المستقيم والذي عصى ربه ودفع البشرية الى العصيان ، فانه خاضع – هو الآخر – لارادة الله ، ولولا ان الله – سبحانه – قد أمهله الى يوم يبعثون لما كان قادرا على ان يؤثر على الخليقة ؛ والانسان اذا استعاذ بالله من شر الشيطان اللعين الرجيم فانه سوف يدحره ويبعده عن نفسه ، لانه – اي الانسان – قد سمّى الله وهو عارف بمعنى التسمية .

انسجام الحياة في فلسفة التوحيد :

وبعد فهذه فلسفة التوحيد وتلك فلسفة الشرك ، وهاتان الفلسفتان تظهران في كافة أبعاد الحياة ؛ فالفلسفة الاسلامية المنبعثة من التوحيد ومن ان كل شيء لابد ان يرجع الى الله ترى وجود حالة التفاعل والتمازج والتكامل بين ارجاء الوجود وحقول الحياة . فالعلم مع العمل ، والتعليم مع التربية ، والارادة مع الفكر ، والحكمة مقترنة بالقول الفصل ، والرسالة الالهية الهابطة من السماء منسجمة مع ضرورات الحياة

المنبعثة من الارض ، والروح مع الجسد ، والجسد مع الروح ، والعلوم الدينية مع العلوم المادية الطبيعية ...

وعلى هذا الاساس فان نظرة الاسلام هي نظرة التوحيد ، في حين ان نظرة الشرك هي نظرة التجزئة . فنحن نلاحظ فيما يسمى بـ (الحضارة الحديثة) ان العلم منفصل عن العمل ، والاخلاق معزولة عن السياسة ، والسياسة في واد والدين في واد آخر ، وان كل حقل من حقول الحياة منفصل عن سائر الحقول الاخرى ، في حين اننا لانجد في الفلسفة الاسلامية مثل هذه النظرة التجزيئية .

التمازج بين الدين والسياسة :

اننا نجد في الاسلام ان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) هو الذي يقود العساكر والجحافل الجهادية كما يشير الى ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران/١٢١) وهو نفسه الذي يقودهم في الصلاة ويحكم بينهم كما يقول - عز وجل - : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء/٦٥) ، وهو إمامهم في حياتهم السياسية وقدوتهم في ذلك ، وهكذا الحال بالنسبة الى خلفائه الاطهار (عليه السلام) ، فهم يمثلون فلسفة التوحيد التي لاتعرف التجزئة ولا التفرقة في جميع جوانبها ؛ فالذي لايهتم بنظافة جسده وبيته لايهتم ايضا بصلاته لان من شروط الصلاة ان يكون الانسان نظيفا ، كما ان الذي لايهتم بحقوق الآخرين لايمكنه ان يهتم بصلاته لان من شروط الصلاة ايضا ان يؤدي الانسان حقوق الناس .

العالِم في ظل فلسفة التوحيد :

ان الصلاة هي واحدة من فرائض الاسلام ولكنها ترتبط ارتباطا مباشرا بسائر

حقول الحياة ، ولذلك نجد ان الشخص الذي يطلب العلوم الدينية لابد وأن يهتم بكافة أمور الحياة وحقولها ؛ فهو عالِم وهو رياضي وهو مؤرخ وهو مطلع على بعض المبادئ الاولية في الطب .. فالعالِم في الاسلام لايعد عالما الا اذا استوعب سائر العلوم استيعابا كافيا .

وبالاضافة الى ذلك فان العالم الاسلامي زاهد في الدنيا ، وعابد مخلص في عبادته ، كما انه مدير ومدبر في الحياة ، وعندما سئل العلامة الميرزا الشيرازي صاحب ثورة التنباك عن شروط المرجعية قال انها تبلغ مائة شرط ؛ الشرط الاول هو العلم ، وألشرط الثاني التقوى ، اما الشروط الثمانية والتسعون المتبقية فتتمثل كلها في (الادارة) ، لان عدم تمتع الفقيه بالقدرة على الادارة والتدبير لايمكنه من قيادة الناس وادارة حياتهم .

ولو كان العلم في الاسلام منفصلا عن العمل ، والمعرفة منفصلة عن الادارة ، ولو كانت الثقافة منقطعة عن التوجه الى الحياة الاجتماعية لكان يكفي ان يكون المرجع الاعلى في البلاد الاسلامية اعلم العلماء ، ولكن هل يمكنه في هذه الحالة ان يجند ويعبئ الطاقات الجماهيرية لمقاومة الاستكبار العالمي ؟

ملكة الادارة :

والسؤال المهم في هذا المجال هو : ماهي الادارة ، وكيف يستطيع الانسان اكتسابها ؟

هناك البعض من الناس يعملون لمدة طويلة في الصفوف الاجتماعية ولكنهم لايصبحون مدراء جيدين ، ذلك لان الادارة ليست صفة من السهل اكتسابها ، وحتى لو أراد الانسان ان يكون مديرا جيدا فانه لايمكنه خلال فترة قصيرة اكتساب هذه الملكة من خلال قراءة ودراسة الكتب والاكتفاء بالجانب النظري .

ان الادارة تعني معرفة المجتمعات البشرية والاطلاع على طبائعها وكيفية التعايش

معها ، والمدير المدبر للمجتمع الاسلامي لابد ان يتعرف بصورة مباشرة على نفسيات المئات من الاشخاص ، وان يعرفهم معرفة عميقة وشاملة تمكنه من ان يوظفهم لتحقيق الاهداف الاسلامية ، وان يلقي على عواتقهم مسؤوليات الامة .

ونحن بامكاننا تعلم الادارة من النصوص الشرعية ؛ فالادارة هي الصبر والحكمة والاستقامة وخدمة عباد الله والاحسان اليهم والتضحية من اجلهم ، وجميع هذه المعاني وغيرها نجدها في النصوص الشرعية .

الانسان كون مصغر :

وعلى هذا فان التوحيد تنظمه فلسفة تتمثل في النظرة التوحيدية الى الكون ، وتستند الى ان الانسان جرم صغير يجد كل آفاق الكون في ذاته ، كما تشير الى ذلك الحكمة المعروفة :

اتزعم انك جرم صغير　　　وفيك انطوى العالم الاكبر ؟

وهذا يعني ان كل شيء في هذا العالم يمثل جزء في ذات الانسان ، فهو - اي الانسان - بمثابة دولة صغيرة تمتلك جميع الدول الاخرى ممثليات فيه .

وبناء على ذلك فاذا اصبح الانسان ذا بعد واحد في حياته فان بالامكان الاستغناء عنه بانسان آلي يحل محله ويقوم بدوره ، ولكن الانسان الحقيقي لايمكن ان يعوض بآلة صماء .

فالمطلوب - اذن - تربية الانسان الذي يعرف الفقه والادارة والتحقيق .. وان يقوم - في نفس الوقت - بكافة الخدمات التي يحتاجها ويحتاج اليها المجتمع في المستقبل عندما يتخرج هذا الشخص من المعهد العلمي الذي يدرس فيه سواء كان هذا المعهد متمثلا في الحوزة الدينية او المدرسة المهنية . فنحن بحاجة ايضا الى مثقفين اكفاء قادرين على التعامل مع شرائح المجتمع المختلفة ، وفي نفس الوقت نحن بأمس الحاجة الى علماء دين لاينشغلون في الدراسات والبحوث العلمية

فحسب ، وانما تكون لهم القدرة الكافية على التعامل مع الجماهير بمختلف طبقاتها وميولها .

واذا ما توفرت هذه القدرات والمواصفات والشرط في عالم الدين والمثقف الاسلامي ، فان المجتمع سيكون بمسيس الحاجة اليهما ، وفي هذه الحالة فقط سيكون بامكان الواحد منهما ان يكون إماما وقائدا للجماهير .

وكل ذلك يعود الفضل فيه الى النظرة التوحيدية التي يتميز بها الاسلام دون سائر المذاهب والمعتقدات والاديان .



الفصل الرابع

العقل دليل التوحيد

لايختلف اثنان في ان العقل هو من ابرز خصائص الانسان ، ومن اعظم ميزات العقل القدرة على الانتقال من الحقائق المشهودة الى المغيبة ، ومن المسائل الجزئية الى الحقائق العامة ، ومن الامثلة الواقعية الى السنن الالهية ، ومن الظواهر المعروفة الى القوانين العامة المجهولة .

و عندما يفقد الانسان امتياز الانتقال مما يراه الى ما يفعله ، ومما يبصره الى ما يستبصره فانه والحيوان سواء في القدرة العقلية .

ومن اعظم مظاهر هذه الحقيقة الكبرى ان الانسان عندما يتأمل الكون بما فيه من آثار رحمة الله وقدرته وعظمته وينتقل الى معرفة ربه ، فانه سيكون ممن يعقل المعلومات ويستثمر البصائر ويستفيد من الحقائق التي يراها ، اما اذا لم يتأمل الكون

ولم يصل الى حقيقة معرفة ربه فانه سيكون ممن لايعقل بسبب جموده عند الظاهر ؛ فهو يرى جريان الشمس لمستقرها ولايعرف ان ذلك من تقدير العزيز العليم ، ويشاهد الودق يخرج من كتل السحاب ويتدفق غيثا على الارض الجرداء ليحولها الى جنة خضراء ولكنه لايبصر ان هذا من رحمة الله ، ويرى ان الانسان ينام في الليل ويصبح كالميت - اذ النوم اخ للموت - واليقظة من النوم كالانبعاث من بعد الممات ، ولكنه لايستشعر من خلال هذه الظاهرة قدرة الله - جل شأنه - ولا يبصر اصابع الغيب في ذلك .

والله - سبحانه - بعد ان يستعرض في سورة الروم طائفة من آياته التي جعلها دليلا اليه ، وسببا لمعرفته ، ووسيلة للتقرب اليه يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرُّوم/٢٨) ؛ اي نبينها بوضوح وتفصيل للذين يعقلون ، اما الانسان غير (العاقل) فانه لايبصر ولو ضرب القرآن ابرز امثلة الكون واروعها .

معنى العقل :

لو فتشنا عن المعنى الاصلي لـ (العقل) لعرفنا انه المحافظة على شيء ينطلق باندفاع ، ولهذا يقال لمن يمنع تدفق الماء من علو انه قد (عقله) ، ولمن يمسك البعير المنطلق في الصحراء انه قد (عقله) ، وهكذا الحال بالنسبة الى العلم الذي لايستقر في دماغ الانسان لكونه يأتي بخطفة سريعة كالوميض ، ولذلك يحتاج الانسان الى مزيد من النشاط والحركة وقوة الارادة والحزم لكي يعقل العلم ، ويحفظه في قلبه من التبدد والتلاشي .

هل العقل في اجازة :

ان هناك حقائق كثيرة يغفل عنها الانسان ، واكثر هذه الحقائق يرتبط ارتباطا وثيقا

بدور العقل في الحياة ومن ضمنها : -

١- ربط الحوادث ببعضها :

ان يرى ضوء منبعثا من مصابيح الاضاءة دون ان يعرف ماوراء هذا الضوء المنبعث من نظام يولد الكهرباء فان في عقله خللا ، اذ لابد من ربط الظاهر الحاضر بالخفي الباطن ، وهكذا الحال بالنسبة الى جزئيات الشريعة وكلياتها ، اذ ان الغالبية العظمى من الآيات القرآنية تحدثنا عن الخطوط العريضة للشريعة او (الاصول العامة) حسب التعبير الفقهي ، و (الهدى) طبقا للتعبير القرآني ، ذلك لان المهم ان يعي الانسان الهدف العام اولا ، وبعد ذلك تتكفل السنة الشريفة والاحاديث المروية عن الائمة المعصومين (عليه السلام) بشرح الجزئيات وايضاحها .

ومع ذلك فقد اشار الائمة (عليه السلام) الى مجموعة من الاصول العامة وتركوا أمر تفريعها وتطبيقها على الحياة الى الفقهاء والمراجع من بعدهم ، وهذا هو سر مرونة الاسلام ، وقدرة احكامه الشريفة على ان تطبق في كل عصر ومضر وفي كل الظروف ، لانها تحدّث العقل الذي يكيّف بدوره القوانين العامة حسب الشروط الموضوعبه والجزئية .

وعلى هذا فان استيعاب الكليات ، ومعرفة الاصول هما الأهم لكي يعرف الانسان حدود الشرك ، وطرق الابتعاد عنه ، اما التفاصيل فانها موجودة في السنة الشريفة او في عقل الانسان المهتدي بالسنة وهو الفقيه العادل .

٢- تكاملية الاحكام :

أ - ان الايات القرآنية تأمرنا باقامة الصلاة كقوله - تعالى - : ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ (الاسراء/٧٨)

فهذه الآية تأمر باقامة الصلاة إنابة الى الله ، واقامة الصلاة لم تأت منفصلة عن سائر الآيات القرآنية بل جاءت في اطار الآيات الاخرى ، اذ ان كثيرا من الآيات أمرت بالتوبة الى الله والتقرب اليه ، والصلاة هي الطريقة والوسيلة الى هذا التقرب ؛ فهناك آيات تأمر بالتقرب الى الله – تعالى – وآيات تأمر بالتوبة وأخرى بالصلاة لان الصلاة هي " خير موضوع فمن شاء اقل ومن شاء اكثر " و " الصلاة قربان كل تقي " كما جاء في الحديث الشريف عن الامام علي – (عليه السلام) [١] .

وعلى هذا فان علاقة الصلاة بالانابة هي علاقة السبب بالمسبب والوسيلة بالهدف والطريق بالغاية ، ولذلك تقول الآية القرآنية : ﴿ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾ (الرُّوم/٣١) ، فالانابة الى الله تكون عبر التقوى ، والتقوى تتحصل من خلال الصلاة .

ب – ان الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة ، والسبب في ذلك ان هناك اهدافا رسالية تحققها فريضة الحج منها وحدة الامة وصحة الانسان وسلامة الاقتصاد ..

ج – ان آيات القرآن تهدف الى تنمية الثروة ، والعيش المبارك الكريم في الدنيا ، وفريضة الزكاة هي وسيلة تحقيق هذا الهدف .

ان من أخطر ما أبتليت به أمتنا الاسلامية تجزئة الاحكام عن بعضها ، وعدم فهمها بصورة متكاملة ، وعلى سبيل المثال فان المسلمين يصلّون ولكنهم لايدركون العلاقة الوثيقة للصلاة بالنهي عن الفحشاء والمنكر ، ويحجّون دون ان يعرفوا علاقة الحج بالوحدة ، ويزكّون دون ان يربطوا بين الزكاة وبين تنمية الثروة وتوزيعها العادل .

والادهى من ذلك كله ان آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن التوحيد والشرك فصلت تماما عن الحياة السياسية في الامة على الرغم من ان هذه الآيات تمثل الاطار العام لحياة الانسان في الدنيا بل في كل جوانب حياته .

---

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ٩٩

وعندما يأمرنا الخالق – عز وجل – بتحقيق هدف ستراتيجي او قيمة الهية وغاية مقدسة فان هذا يعني ان نبحث عن الوسائل التي أمرنا بها الله – تعالى – لتحقيق هذا الهدف .

٣- التوحيد أساس الانطلاق :

ولقد أمرنا الله بالاستقامة على التوحيد فكيف نستطيع ذلك ؟

فالمحافظة على التوحيد تقتضي من الانسان ان لايتطرف يمينا او شمالا ، وهذه مهمة صعبة . فتوحيد الله – عز وجل – يمثل اعظم زاد يحمله الانسان الى الآخرة ، اما لو ذهب مشركا فلا شك انه سيدخل الجحيم كما يشعر بذلك قوله – عز من قائل – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء/٤٨)

اي ان الله – عز وجل – لايغفر ذنب الشرك ، وعلى هذا فان التوحيد هو المنقذ وهذا ما يثبته الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى : " كلمة لا اله الا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي " .

وللأسف فان الكثير من الناس يقولون (لا اله الا اللـه) في الوقت الذي يخضعون فيه عمليا للطاغوت ، فان هذه الكلمة سوف تكون حجة بالغة عليهم لكونها تتنافى مع عبادة الطاغوت والاصنام البشرية . اذ كيف يجوز ترديد هذه الكلمة باللسان وثقافة القلب وطعام الروح مستقيان من الآخرين ، فالتوحيد لايمكن ان يجتمع مع هوى النفس . يقول – تعالى – : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ ﴾ (الرُّوم/٢٩) ثم يقول – عز وجل – : ﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ (الرُّوم/٣٠) ، وقد قال بعض المفسرين ان (الحنيف) هو المنحرف عن الباطل ، الا اني ارى ان هذه الكلمة تعني

الطهارة والنظافة ، لان الشرك هو بحد ذاته نجاسة وقذارة ورجس من الاوثان بدليل قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (التوبة/٢٨) .

كيف نحقق الاستقامة :

ثم يحذرنا الخالق – سبحانه – قائلا : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الرُّوم/٣١) ، فان لم نكن حنفاء مستقيمين طاهرين فاننا سوف نكون من المشركين ، والاستقامة تتحصل من خلال تكييف الحياة مع هذا الهدف ، اما الذي يعيش على موائد السلطان ، وامواله فانه لايمكن ان يحافظ على توحيده لله ، لان الطاغوت سوف يستعبده . وهذا هو عين الشرك ، لانه اتبع السلطان منذ البدء أملا في المال ، ففقد استقلاله ، واعتمد في رزقه على سلطته بشكل كامل حتى وصل الى هذه الحالة ، ولذلك يؤكد الحديث الشريف على اهمية الاستقلال الاقتصادي فيقول : " من لا معاش له لا معاد له " ، ولذلك ترى الانسان المؤمن يسعى من أجل الكد على عياله معتبرا عمله هذا كعمل المجاهد في سبيل الله .

وهكذا فقد بين القرآن في البدء آيات الله في الكون ، ثم اشار الى سبب الانحراف ، وأمرنا بالاستقامة ، وحذرنا من ان نكون من المشركين ، واذا لم تتحرك الحمية في ذات الانسان ويتكل على الله وحده ويسقط التبريرات ويتحول الى كتلة من النشاط والحيوية ، فانه سينساق وراء الطواغيت ، وعلى العكس من ذلك فانه ان حافظ على التوحيد وترك التكاسل والاتكال والافكار السلبية التي تخلفت الامة بسببها ، ووطد ثقته بالله وبالطاقات الكامنة في نفسه ، فانه سوف يتحول الى فريق عمل ثم الى امة تحافظ على توحيدها واستقلالها وحريتها نتيجة لأعتماد على قواها العقلية في اثبات وجود الخالق ، والوصول – بالتالي – الى حقيقة توحيده .

❀ ❀ ❀

الفصل الخامس

السبيل الى اليقين

من خصائص المؤمنين انهم لايبصرون شيئا الا ويتذكرون من خلاله الله - سبحانه وتعالى - واسماءه الحسنى لان الحجب النفسية تساقطت عن بصائرهم ، فالحياة كلها تتحول بالنسبة اليهم الى مدرسة نور وبصيرة وهدى ، فاذا اسدل الليل ستاره نظروا الى النجوم البازغة ، والى خريطة الوجود الجميلة التي ترصع الفضاء ، وتفكروا في خلق الله - سبحانه وتعالى - من خلال هذه النظرة ، فتنفذ بصائرهم الى أعمق أعماق الحقائق ؛ كيف خلق الله هذه الاجرام العملاقة ، وكيف نضدها في هذا الفضاء الرحيب ، وكيف أتقن صنعها وأضفى عليها الجمال والروعة ؟ فالنجوم التي تبعد عنا ملايين السنين الضوئية ماهي علاقتها بنجمتنا هذه المسماة بـ (الشمس) وما حولها من الكواكب ، وكيف نظمت علاقة الشمس بهذه الكواكب وخصوصا بأرضنا التي لو

ابتعدت قليلا او اقتربت انملة او تغير مسارها بعض الشيء لانعدمت الحياة على ارضنا ؟

المؤمن انسان متفكر :

ولذلك تجد ان هؤلاء وعندما يجن عليهم الليل يفتحون على الفضاء الرحيب ليس ابصارهم واعينهم فحسب ، وانما بصائرهم وقلوبهم ايضا كما يروي عنهم ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران/١٩١) .

فمن خلال النظر الى النجوم يكتشف الانسان المؤمن ماوراءها من حكمة عميقة ؛ فخالق هذا الكون تعالى وتسامى عن العبث ، ولذلك فان المؤمن يطبق تلك الحكمة على نفسه ، فيستنتج انه هو ايضا لم يخلق عبثا ، ولايمكن ان يترك سدى ، وانه لابد ان يكون هناك امتحان وابتلاء وجزاء ، وهناك ينتبه ويعود الى رشده قائلا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

كيف نكون بصيرين :

ترى كيف يمكن للانسان ان يحصل على هذه البصيرة ، ولماذا حجبت بصائر البعض من الناس ، ولماذا لاينفذون الى اسماء الله وصفاته ولايزدادون معرفة من خلال النظر الى آياته فتكثر امامهم العبر ولكنهم لايعتبرون بواحدة منها حتى تعمى بصائرهم ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء / ٧٢) ، وكيف يتميز المؤمنون بالبصيرة النافذة كما يقول - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (الفرقان/٧٣) وكيف يتميزون بأنهم : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الانفال/٢) ، وهناك ايضا سؤال آخر واخير

وهو : كيف يكون بمقدورنا بلوغ ذلك المستوى الذي يقول عنه الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : " ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ومعه وبعده " ؟؟

اننا عندما نرى آثار رحمة الله - عز وجل - في الكون ننظر الى الارض حين تخضر ، والنباتات عندما تنمو وتربو وتحصد ، والانسان حينما يترعرع ويشيب ثم ينكسه الله الى ارذل العمر ليموت ويدفن ... فان كل ما في الحياة يتحول بالنسبة الينا الى مدرسة ومنهل للمعرفة والحكمة ، وبالتالي الى معراج روحي ووسيلة للتكامل والتسامي في حياتنا ، اما كيف يمكننا ان نصل الى هذه الدرجة الرفيعة فان القرآن الكريم يجيبنا على ذلك المرة بعد الاخرى في آيات عديدة منها قوله - تعالى - : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (ق/٨).

البصيرة تبدأ من الذات :

وهكذا لابد ان نوجه شرط التحول في داخلنا ، فالبعض من الناس يتصورون انه بمزيد من التعمق والتفكر وربط المعلومات ببعضها يمكنهم ان يحصلوا على البصيرة ، في حين ان البصيرة لاتحصل للانسان بهذا الاسلوب بل على العكس من ذلك فان الناس الذين يتعمقون ويجادلون في الحقائق تراهم أبعد البشر عن معرفتها ، فهي لاتتأتى للانسان بهذا النوع من التعمق والجدال والمراء في الدين ، بل لابد اولا ان نوجد شرط البصيرة في انفسنا ؛ الا وهو تمزيق حجاب الكفر ودفع ثمن الايمان ، ولذلك يقول - تعالى - : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ ، فاذا حصلت الانابة تهيأت لدى الانسان الحالة النفسية التي تجعله يستقبل الحقائق ، وحينئذ ترى الانسان يكتشف ويرى من خلال حركة الافلاك والفصول المتعاقبة التي تطرأ على الارض ... المعاد والبعث والنشور .

انه يرى - على سبيل المثال - ان الارض هامدة ، فينزل الله عليها من السماء ماء فاذا بها تهتز وتربو ، ثم يمرر عليها الرياح الهوجاء فاذا بها تذوي وتتحول الى ارض

جرداء قاحلة ، وهذه هي دورة الحياة ، وسنة الله - تعالى - فيها ، وهكذا الحال بالنسبة الينا ، فنحن نولد ثم ننمو ثم نموت ثم نولد من جديد .. ان الانسان المؤمن يبصر هذه الحقيقة من خلال هذه الدورة السائدة في الكون والحياة ، اما الآخرون فانهم لايبصرون لانهم لم يوفروا في انفسهم شرط البصيرة المتمثل في الكفر بالطاغوت او أية قوة غير الهية مهيمنة على المجتمع ايا كانت ؛ فقد تكون قوة الأرهاب ، وقد تتمثل في قوة المال والثروة والترغيب ، وقد تتجسد في التضليل والثقافة الباطلة .

ان على الانسان المؤمن - اولا وقبل كل شيء - ان يتحرر من هذه القوة ؛ اي أن يتحرر من العبودية ويعود الى جوهر وحقيقة نفسه ، ولايكون تابعا فيكتشف عقله من داخل عقله لتبدأ عنده بعدئذ وبهدى من ربه المسيرة العلمية المتصاعدة ، وقد كانت اول كلمة قالها ابراهيم الخليل (عليه السلام) وفتحت أمامه ابواب المعرفة هي : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً ﴾ (الانعام/٧٤) ، لقد قال ابراهيم (عليه السلام) هذه الكلمة ليفتح ثغرة في جدار المسلمات والمواضعات الاجتماعية والثقافية آنذاك ، فاعلن عن انه لايعترف بالاصنام : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الانعام/٧٤) .

رحلة ابراهيم الى اليقين :

وعندما بدر من ابراهيم ذلك السلوك أراه الله - جل وعلا - حينئذ ملكوت السماوات والارض فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الانعام/٧٥) ، وهنا علينا ان ندقق في كلمة (كذلك) فهي تعني انه بهذه الصورة والكيفية والاسلوب اوصلنا ابراهيم الى الحقيقة ، وانت ايضا اذا اردت ان تصل الى ملكوت السماوات والارض فلابد ان تقتحم غمار الصراع مع الطاغوت فتنكره ، وتدين المسلمات الذهنية التي خلقها هذا الطاغوت في المجتمع ادانة شديدة لكي تتسنى لك رؤية ملكوت السماوات والارض

ببصيرتك ، فوراء ملك السماوات قدرة وسنة وحكمة الهية ، وقد وصل ابراهيم من خلال رفضه الباطل الى قدرة الله – سبحانه – اي الى سنة الله والقواعد والقوانين التي يجريها في الكون ، والى حكمته ؛ اي الى اهداف هذه القوانين والسنن ونهاياتها وغاياتها ففي كل شيء قدرة وسنة وحكمة ، والقدرة هي تلك القوة التي تسيّر هذا الشيء وتحقق وجوده ، والسنة هي ذلك القانون المتحكم به ، والحكمة هي الهدف الذي يتحرك ذلك الشيء نحوه .

اليقين يبدأ من الرفض :

وهكذا فقد نفذ ابراهيم (عليه السلام) ببصيرته في اعماق الملكوت من خلال رفضه للطاغوت ، والمواضعات الاجتماعية والثقافية والسياسية المغلوطة التي خلقها الطاغوت في المجتمع ، ومن خلال رفضة هذا استطاع ان يغوص ببصيرته في الملكوت ؛ اي الى كل هذه المنظومة المتكاملة في الكون ، والى سنن الله وقدرته وحكمه في الاشياء ، وقد فعل ابراهيم (عليه السلام) كل ذلك ليكون من المؤمنين ، فارتقى بهذه البصيرة الدرجة تلو الدرجة حتى وصل الى الذروة المتمثلة في اليقين . فعندما يصل الانسان الى اليقين فان هذا يعني انه قد وصل الى الذروة ، فتتكشف أمامه كل الحقائق ، فاذا به يشهدها ويعايشها ويتفاعل معها .

وهكذا فان اليقين الذي يشير اليه – تعالى – في قوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر/٩٩) هو ذروة الذرى ، وقمة القمم ، وقد كان الامام زين العابدين (عليه السلام) يطيل الجلوس بعد صلاة العشاء سائلا الله – جل وعلا – اليقين ، فالانسان عندما يصبح من الموقنين فانه سيحقق آنئذ كل أمنيته المتمثلة في الهدى والفلاح .

وقد فصّل القرآن الكريم القول في ذلك تفصيلا ، فبين كيف وصل ابراهيم (عليه السلام) الى ذروة اليقين ، فلننظر – اذن – الى هذا الطريق الذي سلكه ابراهيم

ببصيرته ؛ يقول - تعالى - في هذا المجال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً ﴾ (الانعام/٧٦) ، فعندما خيم الليل نظر ابراهيم الى النجوم ، وهذه هي اول مرحلة على الانسان ان يجتازها وهي ان يكون مندفعا في ذاته الى الحقيقة ، فلا يدعي ان هذه الحقيقة في ذهنه ، بل عليه ان يبحث عنها ، ولذلك فان من المستحب شرعا ان يخرج الانسان في الليل تحت الفضاء الرحيب لينظر في النجوم تاليا الآيات الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّآتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران/١٩١-١٩٣) .

نعم .. ان على الانسان المسلم ان يقرأ هذه الآيات ليزداد معرفة ويقينا وهو يدقق النظر في صفحة السماء ، وينظر في هذه الخريطة الكونية الجميلة الرائعة ، وبالتالي يستلهم منها نور اليقين ، فلا يغمض عينيه ويغرق في وساوسه وأوهامه وأفكاره ، بل يخرج من نطاق ذاته ، وقد يصبح هذا السلوك واجبا اذا توقفت معرفة الله - تعالى - عليه ، كما يشير الى ذلك - عز وجل - في قوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (الروم/٤٢) ؛ اي فتشوا عن الحقائق الموجودة على الارض ، وعلى سبيل المثال فان هناك ديارا كانت عامرة في يوم من الايام ولكنها تحولت الى خرائب بسبب نزول العذاب الالهي عليها .

وفي هذا المجال يروى عن ابي ذر (رض) انه كان اكثر عبادته الوقوف على الديار المتهدمة سائلا عن ساكنيها وبانيها ، كما كان يتفكر في الطبيعة وما حولها ... ونحن

ايضا يجب ان لاينصب اهتمامنا على الأكل والشرب والنوم ، بـل علينـا ان نفكـر في انها لابد ان تنتهي الى عاقبة ونهاية .

ان من عادة الناس – للأسف – انهـم يتحركـون مـن أجـل غـيرهم لا مـن أجـل انفسهم ، فلا ينمونها ولايعملـون على تزكيتها بل يدسونها في تراب الشهوات وركـام الاوهام والخرافات ، ولذلك فقد نظر ابراهيم (عليه السلام) وتفكر كما يحدثنـا بذلـك القرآن الكريم قـائلا : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الانعام/٧٦) ، وبهــذه العبارة القصيـرة اختصر (عليه السلام) كـل النواحـي الجماليـة والكمالية في الكوكب الذي رآه ؛ فقد فكر ان هذا الكوكب الذي رآه يتحـرك ويؤثـر ويشع نورا لابد ان تكون له قدرة هائلة ، هتف قائلا : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ومن الملاحـظ هنا انه لم يقل : (هذا الهي) بل قال : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ؛ اي ان هذا الكوكب يؤثـر في تأثيرا مستقلا .

ولكنـه فـي نفس الوقت نظر الى ذلك الكوكب نظرة أخـرى فوجـد ان فيـه جانبـا آخر ، جانب الضعف والنقص : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ ، فهذا الكوكب يأفل وينتهي ويتـأثر ، فهو محكوم وليس حاكما ، فالأفول لايعني الغياب فقط بل يعني ايضا كونه محكوما ومدبرا ، وعلى سبيل المثال فان هذه االشمس العملاقة هـي ايضـا مسـخرة ، ولذلـك فانها لايمكن ان تكون الها ، فهي تتحرك وفق ما رسم لها من نظام وتدبير .

ثم يستأنف – تعالى – على لسان ابراهيم (عليه السلام) قائلا : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ (الانعام/٧٦) ، والملاحظ هنا ان ابراهيم (عليه السلام) لم يقل ان الآفل ليس الها بل قال : ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ، فعلينا ان نتدبر في دقائق ولطائف الآيات القرانية وكأنه (عليه السلام) كان يريد ان يقول : ان فطرتي ووجداني يرفضان ان يكون هذا الآفل هو الحاكم في حين انه محكوم ، فالانسان الذي يعبد الطغـاة الا يرى انهـم محكومـون ؛ فلقد كانوا هم الآخرون اطفالا ثم نموا وكبروا ومن ثم يكون

مصيرهم الموت ، فكيف يتخذهم آلهة من دون الله ؟

ان وجدان ابراهيم ، ووجدان كل انسان سوي يرفض ان يكون المحكوم حاكما ، ولذلك قال ابراهيم ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ، وهكذا الحال بالنسبة الى القمر الذي رآه ابراهيم : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً ﴾ فبالرغم من ان القمر هو بدوره يمثل نوعا من الكواكب ، ولكنه أقرب الى الارض وأكثر تأثيرا فيها كما أثبت ذلك العلم الحديث .

ولذلك فقد قال ابراهيم (عليه السلام) عن القمر مقولته في الكواكب الاخرى التي رآها كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم قائلا : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الانعام/٧٧) ، ولكنه سرعان ما اكتشف ان القمر لايختلف عن سائر الكواكب من ناحية النقص والضعف ؛ فهو يمتلك حركة معينة ، ويدور في مدار محدد من لحظة ان يولد هلالا الى ان يصبح بدرا وحتى يعود كالعرجون القديم .

الحقيقة الكبرى :

وهنا بالذات يكتشف ابراهيم بعد هذه الرحلة الملكوتية في اعماق الفضاء الحقيقة الكبرى كما يشير الى ذلك قوله - عز من قائل - : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ ﴾ (الانعام/٧٧) ، فقد اكتشف ابراهيم (عليه السلام) في نهاية رحلته الحقيقة الكبرى ؛ فالله رب السماوات والارض نوره أجلى من نور القمر ، وضوؤه ابهر من ضوء الشمس ، فهو - اذن - الذي يهديني ، والانسان لايمكنه ان يصل اليه بل هو الذي يصل الى الانسان كما يشير الى ذلك الدعاء الشريف : " دل على ذاته بذاته ، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته " .

و هنا اعترف ابراهيم (عليه السلام) بحقيقة اخرى هي حقيقة عجزه وضعفه ، وانه عبد محدود بحاجة الى هدى الله - جل وعلا - ، وهكذا استمر في مسيرته كما يروي لنا ذلك القرآن قائلا : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الانعام/٧٨) ، فهناك بشر مايزالون يعبدون الشمس ، وقد كان الطغاة آنذاك يعبدونها ،

وكان ابراهيم معـاصرا لتلـك الفـترة فـأراد بهـذا الاسـلوب ان ينفـي ويسـتنكر هـذه الخرافات ، فاثبت ان الشمس هي بدورها محدودة ومحكومة وان هناك من يوجهها : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الانعام/٧٨) ، وهنا وصل ابراهيـم الى قمـة القمـم ؛ الى التوحيد الخالص .

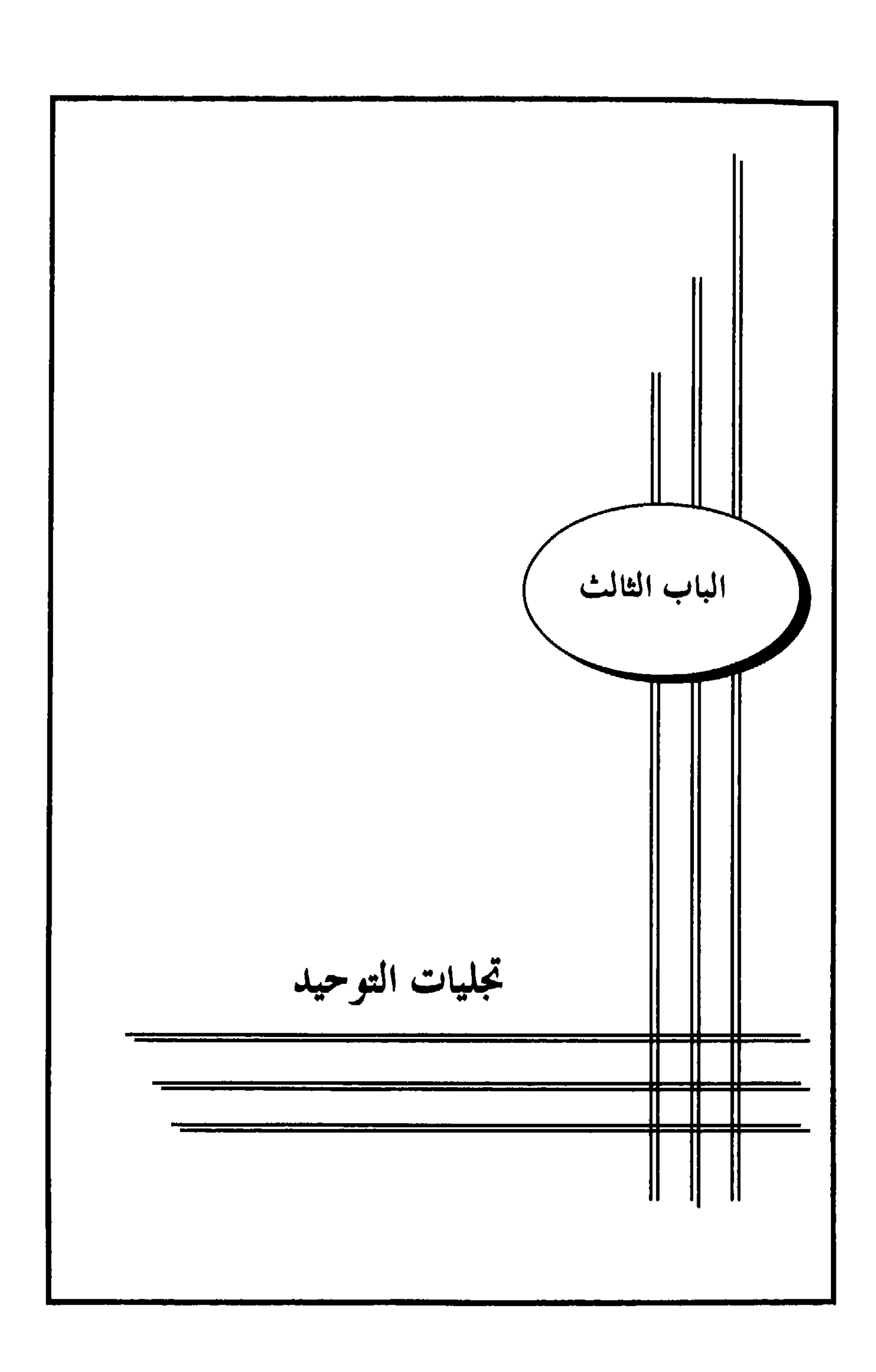
ولكي يصل ابراهيم الى الهدى لابد ان يعلن البـراءة من الضلالة فقال : ﴿ يَـا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، وعندما أعلن الـبراءة مـن ضلالـة قومـه ، واعلـن انـه يتحداهم حينئذ هداه الله وقذف في قلبه نور التوحيد فقال (عليه السلام) :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّـذِي فَطَرَ السَّمَـاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/٧٩) ، فأعلن البراءة من شركهم وأصبح موحدا وحنيفا .

وفي الحقيقة فان التفسير الذي اراه قريبا من المعنى الحقيقي لكلمة (الحنيف) ومن مواضع اطلاق هذه الكلمة هـو انها تعني (الطاهر) ، ولذلك يكون تفسير الآية حسب هـذا المعنى هـو انه وجه وجهـه للذي فطر السماوات والارض طاهـرا من كل دنس وانحراف ، ولذلك فاننا اذا اردنا ان نصل الـى نـور المعرفـة فلابد ان نطهر انفسنا من الحجب والشوائب فنرفض الطاغوت ، ونرفض المسلمات الخاطئـة التي يخلقها هذا الطاغوت في المجتمع .







الباب الثالث

تجليات التوحيد



الفصل الاول

ذكر الله اساس الاستقلال

من اسوء الظواهر السلبية التي يعاني منها الانسان في حياته الدنيا نسيانه لربه وغفلته عنه ، ومن أثمن وأعز ما ينعم به مناجاته للخالق - تعالى - من خلال اللقاءات الروحية معه .

ان اولئك الذين وجدوا حلاوة مناجاة الله - سبحانه وتعالى - يعلمون ويدركون انها فوق كل لذة وكل هدف وغاية ، كما يشير الى ذلك رب العزة في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ (النجم/٤٢)

والانسان يبحث عن الجمال ويجد فيه ما يعطيه الرواء والروعة ، ويشبع فراغات كثيرة في حياته ، وهو - ايضا - يبحث عن الكمال المادي وكلما بلغ درجة من هذا الكمال استطاع ان يشبع مستوى معينا من حاجاته النفسية .

فوق كل غاية غاية :

ومع ذلك فان فوق كل جمال جمالا ، وفوق كل كمال كمالا ، وفوق كل غاية غاية ، ووراء كل هدف تطلعا جديدا أسمى من التطلع السابق ، ولذلك يستمر الانسان في البحث عن ما يشبع طموحه ويحقق تطلعه ، حتى يصل في نهاية المطاف الى الله – جل وعلا – ، وحينئذ يكتشف انه قد وصل الى غاية الجمال ، والى مرحلة لايستطيع بعدها استيعاب درجة ما فوق الجمال والكمال اللذين هما جمال وكمال الله – تبارك وتعالى – .

وهنا يجد الانسان الراحة والاطمئنان ، كما يقول – عز من قائل – : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد/٢٨) ، وببلوغ درجة الاطمئنان يجد الانسان كل ما كان يبحث عنه ؛ الروعة والجمال والكمال المطلق ، فهو – بطبيعته – مجبول على التطلع نحو الأسمى ، إذ ان كل طموح وتطلع في الوجود دون الله – تعالى – هو أصغر ما يصبو اليه الانسان .

وفي هذا المجال يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ * لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر/١٨-٢٤)

البقاء شرط لتحقيق التطلعات :

ومن خلال التأمل في الآيات الكريمة السابقة ندرك ان من الشـــروط الموضوعيـة للوصول الى ما يصبو الانسان لتحقيقه هو (البقاء) ؛ فاذا ما انهار الانسان وانتهى فأين المالك والواجد ؟

ولايضاح الفكرة السابقة نضرب المثل التالي :

ان النفس البشرية تشبه وعاء يستوعب كل ما في الحيـاة ويمسـك مـا في داخلـه ويحـيط به ، واذا ما انكسر هـذا الوعاء وتهشم فهل من الممكن ان يحـافظ علـى مـا فيه ؟

والله – عز وجل – يحذر النفس البشـرية مـن نسـيانه ، لان المصـير الـذي ينتظـر النفس الناسية لربها هو العدم ، واذا انعدمت النفس فانها سـوف لاتسـتطيع ان تمتلـك شيئا ، وبناء على ذلك فان شخصية الانسان مرتبطة بذكـر الله – عـز وجـل – فلـولا هذا الذكر لانتهى الانسان .

ضرورة ذكر الله :

ويحذرنا الخالق – تعالى – مـــن ان نكـــون مـن جملـة الذيـن نسـوا الله فكـانت النتيجة ان انساهم الله انفسهم فكانوا فاسـقين : ﴿ **وَلاَ تَكُونُـوا كَـالَّذِينَ نَسُـوا اللَّـهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُـمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (الحشر/١٩) ، فالانسـان الـذي لايذكـر الله – تعالى – من خلال العمل الصالح فانه سينسـى ربـه ، ومـن المسـتبعد ان يذكـر الانسان ربه وهو لايعمل صالحا لان ذكر الله – عـز وجـل – لايبقـى في قلـب غـير معمور بالعمل الصالـح .

ان الانسان الفاسق لايستطيع ان يذكر الله ، وهو ان ذكره بلسانه فانه لايذكره بقلبه

لان العمل السيئ يحجب الانسان عن ربه ، فمن يذكر الله لايفقد شيئا ، ومن يفقـد الله بنسيانه لايجد شيئا ، ولذلك نقرأ في دعاء عرفة : " ماذا وجد من فقدك ، وماذا فقـد من وجدك ؟ " .

فالذي يجد الله - سبحانه - يجد كل شيء ، لانـه سـيجد نفسـه فيثبـت شـخصيته ويكرس ذاته واستقلاله ، ومن يكرس ذاته واستقلاله فانه سـيكون في غنـى عـن اي شيء آخر .

وفيما يلي سنضرب امثلة لتوضيح الفكرة السابقة لانها ليست فكرة فلسـفية نسـمعها او نقرؤها فنعقلها بل انها فكرة وجدانية بحاجة الى معاناة ، ولابـد لنـا مـن ممارسـة واقعية لكي نفهمها ، وعلى سبيل المثال فان الذي يفقد حاسة الذوق لايستطيع التمييز بين طعم الحنظل والبرتقال ، ولا بين السم والشهد ، لانه فقد قدرته الذاتية ، فلو فقـد الانسان حواه الخمس فقد كل شـيء ، وسـوف لايعـود بمقـدوره ان يسـتلذ بالحيـاة ونعمها وملاذها .

ولـو كان الانسان يملك الملايين بل البلايين وهو عبد مملوك للغير فهل يمكن ان يقال عنه انه يملك شيئا ؟

كلا بالطبع ، لان نفسه اصبحت ملكا لغيره ، فالعبد وما مُلكا يداه ملك لمولاه .

وفي هذا المجال يروي لنا التأريخ ان (نابليون) قال ذات مرة لأبنه : أنت تملـك العـالم لانك تملك قلب أمك ، وأمك تملكني وانا أملك العالم ، فأنت - اذن - تملك العالم !

وهكذا فان الانسان لو نسي الله - تعالى - فانه سيتركه للاقدار ويكله الى نفسه ، فقـد يملك الانسان الدرهم والدنانير ، وقد يملكه بيته او زوجته او إبنه او منصبه او علمه ....

ونحن اذا اردنا ان نحقق الاستقلال فعلينا ان نذكر ربنا ، وليكن رسـول الله (صلـى الله عليه وآله) في هذا المجال أسوة حسنة وقدوة لنا حيث كـان يجـد لـذة المناجـاة ويتمتـع بحـلاوة الابتهـال الى الله - تعـالى - ، فكـان يـدأب علـى العبـادة والتبتـل

والاستغفار ليلا حتى ان احدى زوجاته قالت له : أو لم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيجيبها (صلى الله عليه وآله) قائلا : " أفلا أكون عبدا شكورا ؟ "

فما الذ الشكر عندما تقف امام بارئك - جل وعلا - وتشكره على عينيك البصيرتين واذنك السميعة ، وعلى نعمة الهدى والعقل والعافية المعنوية قبل الجسدية ، فكم يبدو الانسان غبيا عندما ينغمس في الظواهر الدنيوية وينبذ جانبا الاتصال برب العالمين في حين ان كل شيء في هذا الكون يسعى من أجل الوصول الى خالق الكون ؟

اقرب من حبل الوريد :

وفي هذا المجال لابد لنا من اغتنام المناسبات الروحية ؛ فالله - تعالى - ليس ببعيد عنا ، فهو قريب والراحل اليه قريب المسافة ، وهو لايحتجب عن خلقه الا ان تحجبهم الاعمال دونه ، ونحن واجدوه كلما انكسرت قلوبنا وجرت دموعنا واحسسنا بالندامة على ما سلف من خطايانا .

ان الله - تبارك وتعالى - موجود كلما تطلعنا الى مستقبل مشرق ؛ فهو في كل مكان وزمان ، وعندما نهتف بإسمه المقدس فاننا سنخترق كل الحجب ، ونختصر المسافة بين الارض والسماء ، وقد سئل في هذا المجال الامام علي (عليه السلام) عن المسافة تلك كم هي ؟ فقال (عليه السلام) : " دعوة مستجابة ". [1]

ويسأل (عليه السلام) مرة اخرى فيجيب : " وبين السماء والارض مد البصر ودعوة المظلوم ". [2]

والمسافة هذه ماهي الا لحظة او اقل منها ، فالله - عز وجل - أقرب الى الانسان من

---

(١) بحار الانوار ج ١٠ ص ٨٤ رواية ٥

(٢) بحار الانوار ج ١٠ ص ٨٨ رواية ٨

حبل الوريد ، ولو كان هناك شيء أقرب الى الانسان من حبل الوريد لجاء به القرآن اذ يقول - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق/١٦)

واذا ما وجد الانسان ربه فان هذا يعني انه قد وجد استقلاله ، والاستقلال هو ان لايكون الانسان عبدا لغيره وقد خلقه الله حرا .

العبودية الثقافية :

والعبودية لغير الله على اقسام ، اسوءها العبودية الثقافية ، وعلى سبيل المثال فان استماعك للاذاعات الاستكبارية يجعلك مستعبدا للرجل الفاسق الجالس وراء المايكروفون ، فهذه الاذاعة ستوجهك من خلال اثارة الاحاسيس فيك دون ان تشعر لانك لم تضع رقابة بينك وبينها ، فهذه السموم التي تفرزها اذاعات الاباطيل والاضاليل سوف تستقر في ذاتك وتوجهك حيثما تريد ان اصغيت اليها دون وعي .

وقد تجلس في مجلس شياطين الأنس فيوجهونك كما يريدون ، ويغتابون هذا ويتهمون ذاك ويبهتون آخرين ، اما انت فتجلس بينهم كدمية يحركونها كيفما شاؤوا ، فتندفع بالاتجاه الذي يريده هؤلاء الشياطين ، وبذلك يستعبدونك .

من هنا قال الامام الصادق (عليه السلام) : " من اصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وان كان الناطق عن ابليس فقد عبد ابليس " .[١]

وهكذا فان الناطقين عن ابليس يدفعونك الى ان تتخذ موقفا سلبيا تجاه اصدقائك ومن هم في خطك ، وهذه هي العبودية الثقافية ؛ عبودية الانسان للشيطان .

الاستقلال الثقافي :

وربما يأتيك الشيطان ليخدعك فلا يستطيع ذلك ، فيعمد الى خدع صاحبك

---

(١) بحار الانوار ج ٦٩ ص ٢٦٤ رواية ١

ليخدعك عبره . فمن يأتيك من الباب قد يكون ملاكا وقد يكـون شـيطانا فعليـك ان تميز بينهما ، فلا تجلس في كل مجلس لتفتح قلبك لكل انســان ، فـاذا مـا اردت ان تتخذ من شخص ما صديقا فان عليك ان تبحث في اعماله وماضيه ، وهذا هو معنــى الاستقلال ، وهو ان تكون مستقلا في فهمك للأشياء . اذ لايصح ان تسلم نفسك لكل انسان .

فالاستقلال الثقافي يعني ان تكون لديــك رقابـة ، وان تكـون نـاقدا للكـلام ، وان تحذر من ان تكون إمّعة اي انسانا عديم الارادة يميل مع كل ريح . وهذا يتطلب منــا ذكر الله – تعالى – دائما وابدا ، وطرد الشياطين من حولنا .



الفصل الثاني

التوحيد حصن المؤمن واستقلاله

لاشك ان البشرية فطرت على الاستقلال ، ورضعت حبه منــذ ان خلقهـا الله - تعالى - ، واكاد اقول ان الانسان لايحس بثقل في تأريخه ودافـع لحياتـه كثقـل الاستقلال ، وما الصراع المرير بين ابناء البشـر الا وجـه مـن اوجـه الدفـاع عـن الاستقلال من قبل طائفة والاعتداء عليه من قبل طائفة اخرى .

ولو انتزعت صفة الاستقلال من الانسان لكان افضل ما يقال فيـه انـه كالأنعـام بل هو اضل سبيلا ، والرسالات الالهيـة جاءت لتؤكد هذه الفكـرة المتأصلـة في نفس الانسان وضرورة الدفاع عنهـا فكلمـة التوحيـد الاولى تبـدأ بنفـي الانـداد والشركاء اعتبار من نفي كل من يريد ان يتسلط على الآخرين بشكل او بـآخر ، وبالتالـي فان كلمة التوحيـد تبدأ برفض التبعية ، اما كلمتها الثانية فهـي تكريس

الاستقلال والعمل على تحقيقه .

كلمة التوحيد حصن اللـه :

ان كلمة التوحيد هي حصن الله الذي من دخله كان آمنا ، وهـي الكلمـة الـتي من ختم له بها دخل الجنة كما جاء في الحديث الشريف ، وكما جاء في حديث قدسي رواه الامام الرضا (عليه السلام) قائلا : " لا اله الا الله حصني فمـن دخـل حصني امن عذابي " ثم علق على ذلك (عليه السلام) بقوله : " بشروطها وانا مـن شروطها " [1] ؛ اي اننا لايمكن ان نحقق مقتضيـات هـذه الكلمـة دون ان نعـرف محتواهـا ، ومحتواهـا هـو رفـض التبعيـة والجبـت والطـاغوت ، والدفـاع عـن الاستقلال تحت قيادة الهية .

الاستقلال قيمة سامية :

ان كل ما يدفعه ويقدمه الانسان من أجل الدفاع عن استقلاله او تكريسه انمـا هو اقل بكثير من قيمة الاستقلال نفسه ، فاذا ما نظرنا الى التأريخ فاننا سـنجد ان بني اسرائيل – مثلا – كانوا شعبا مستضعفا فقد استقلاله ، وقد قام فرعون بقمعهم حين ذبح ابناءهم واستحيا نساءهم وصب عليهم بلاءات عظيمة ، فلم تبق جريمة الا وارتكبها ضدهم .

وجاء موسى بن عمران (عليه السلام) من قبل الله – جل وعـلا – ليعيـد هـذه الامة المستضعفة الى شاطئ الاسـتقلال ، ودفـع بنـو اسـرائيل مـن أجـل تحقيـق الاستقلال هذا الكثير من الجهد والتعب .

ويعتبر الاستقلال الثقافي شرطا ضروريا لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والسياسـي والاجتماعي ، فهو الطريق الى الاستقلال الكامل ، لان الانسان الذي زرعـت في

---

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ٧ رواية ١٦

نفسه العبودية وألفت روحه الذل سيجلب التبعية لنفسه ، وعلى سبيل المثال فان الكثير من الشعوب الاسلامية استقلت ظاهريا ولكنها ما لبثت ان عادت الى اسيادها السابقين ليستعبدوها من جديد .

والقرآن الكريم يؤكد على الاستقلال الثقافي مرات عديدة في مجاليه العام والخاص كقوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران/٧٩) فالرسالات الالهية جاءت من أجل تحقيق الاستقلال للانسان لا من أجل استعباده ، والرسول لايدعو الناس الى عبادته بل يدعوهم الى عبادة الله :

﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ (آل عمران / ٧٩) ؛ اي اعبدوا الله عبادة خالصة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلاَ يَأْمُرَكُم أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ﴾ (آل عمران /٧٩ -٨٠) ؛ اي لايدعوكم لكي يستعبدكم لنفسه ، كما لايريد - في نفس الوقت - ان يستعبدكم الآخرون حتى وان كانوا ملائكة او نبيين .

وبعدها يشير - تعالى - الى الاستقلال الخاص في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ (آل عمران / ٨١) .

وهذا هو الاستقلال الخاص اي الاستقلال الثقافي ، وعندما يكون العالِم مستقلا ، غير خاضع للضغوط ، ومتحديا لشهواته الذاتية فانه سيصدّق بالحق حتى لو كان هذا الحق معارضا - في الظاهر - لنفسه ، وقد أخذ الله - تعالى - هذا الميثاق من بني آدم كما يرويه لنا في قوله : ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا ﴾ (آل عمران/٨١) ؛ اي ان هذه المسؤولية هي

مسؤولية كبيرة ملقـــاة على عاتقكـــم .

ثم يقول - سبحانه - : ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَاْ مَعَكُم مِـنَ الشَّـاهِدِينَ فَمَـن تَوَلَّى بَعْـدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِـكَ هُــمُ الْفَاسِقُـونَ ﴾ (آل عمران / ٨١ -٨٢) .

من هنا يجب على العلماء والمثقفين الواعين والمخلصين ان لا ينسوا دورهم ، ولا ينسوا ان مســؤوليتهم هـي ان يدافعـوا عـن اسـتقلال أمـة اصبحـت مظلومـة مستضعفة .



الفصل الثالث

التوحيد سبيلنا الى الاستقلال

" لا اله إلا الله " هذه الكلمة الثقيلة في ميزان الكون ، لها ابعاد عديدة من جملتها ؛ الاستقلال ، والحرية ، والتقدم ، والكمال ، والتقرب الى الله - جل جلاله - ، ونحن في هذا الفصل سنصب اهتمامنا على البعد الاول (الاستقلال) ، لحاجة الساحة اليه .

بُعد الاستقلال في كلمة التوحيد :

ان الانسان لو قدر في ميزان المادة فسوف لن يعدو شيئا ضئيلا، لانه - بالتالي - جزء من هذا الكوكب الذي هو جزء من هذه المنظومة التي هي - بدورها - تمثل جزء من مجرات بُعدُ بعضها عن بعض آلاف الملايين من السنين الضوئية . وفي مجال ضعف الانسان ، وعجزه يقول الامام علي (عليه السلام) :

" مسكين ابن آدم مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، تؤلمه البقة

وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة " .

ولكن ما الذي يجعل هذا الانسان الضئيل المحدود قادرا على اقتحام المجهول ، وغزو الفضاء ، وسبر غور المحيطات ، وتسخير ما في الكون ؟

انه الاستقلال ، فاذا كان الانسان جزء من هذه الطبيعة ، وريشة في مهب رياح الشهوات التي هي رابط بينه وبين الطبيعة المحيطة به ، فسوف لن يتمكن من فعل اي شيء .

وهكذا فان معركة الانسان الاولى فوق هذا الكوكب انما يخوضها مع تلك الطبيعة ، وذلك المجتمع الذي يريد سرقة استقلاله ، وتحويله الى جزء من هذه الدورة التي لا تنفك عن الدوران .

التوحيد والتحدي :

ولذلك فعندما يعرج الانسان الى سماء التوحيد ، ويدخل حصن " لا إله إلا الله " ، ويصبح مرتبطا برب العالمين ، فانه يجد في نفسه القدرة على التحدي . وقول كلمة (لا) لكل من يريد سلب استقلاله كالطبيعة ، او المجتمع الذي يريد ان يسخره لمصالحه ، او القانون الذي يستهدف سحقه ، او السلطة التي تبتغي اخراجه من النور الى الظلمات ، وهنا تكمن فلسفة الحديث المعروف :

" كلمة لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي "

وعذاب الله – تعالى – اكثر من مجرد تعذيب بنار جهنم التي هي اسوء واشد عذاب يأتي من رب العالمين ، ولكن هناك عذابا آخر يصيب الله به المجرمين في الدنيا ؛ فان خرج الانسان من حصن الله احتوشته ذئاب التبعية والسلطة والشهوات ، وافترسته .

اصحاب الكهف رمز الاستقلال :

ولنا في اصحاب الكهف الذين تفجرت فيهم ينابيع الايمان خير قدوة واسوة في

مجال الاستقلال ، وقد كان هؤلاء الفتية من اتباع نبي اللـه عيسى بن مريم (عليهمـا السلام) ، وكانوا وزراء لملـك يدعـي " دقيـانوس " الـذي كـان واحـدا مـن العائلـة القيصرية ، وفيما يلي نستعرض قصتهم كما يرويها لنا الامام علي (عليه السـلام) عـن رسـول الله (صلـى الله عليـه وآلـه) نظـرا لاهميـة الاطـلاع عليهـا في ادراك ضـرورة الاستقلال ، وضرورة ان يجعله الانسان المؤمـن الهـدف الاول والاخـير لـه في هـذه الحياة . يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :

" كان بارض الروم مدينة يقال لها (اقسوس) وكان لها ملك صالح ، فمات ملكهم فاختلفت كلمتهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له (دقيـانوس) ، فـأقبل في مأئة الف حتى دخل مدينة اقسوس ، فاتخذها دار مملكته ، واتخذ فيها قصـرا طولـه فرسخ في عرض فرسخ ، واتخذ في ذلك القصر مجلسا طوله ألـف ذراع في عـرض مثل ذلك من الرخام الممرد ، واتخذ في المجلس اربعة آلاف اسطوانة ذهب ، واتخـذ الف قنديل من ذهب لها سلاسل مـن اللجـين تسـرج بـاطيب الأدهـان ، واتخـذ في شرقي المجلس ثمانين كوة ، ولغربيه كذلك وكـانت الشـمس اذا طلعـت طلعـت في المجلس كيفما دارت ، واتخذ فيه سريرا من ذهب طولـه ثمـانون ذراعـا في عـرض اربعين ذراعا له قوائم من فضة مرصعة بالجواهر ، وعلاه بالنمارق ، واتخذ من يمـين السرير ثمانين كرسيا من الذهب مرصعة بالزبرجد الاخضر ، فأجلس عليها بطارقته ، واتخذ من يسار السرير ثمانين كرسيا من الفضة مرصعة بالياقوت الاحمر ، فـأجلس عليها هراقلته ثم علا السرير فوضع التاج على رأسه .

واتخـذ خمسـين غلامـا مـن اولاد الهراقلـة فقرطقهـم بقراطـق الديبـاج الاحمـر ، وسرولهم بسراول الحرير الاخضر ، وتوجهم ، ودملجهم ، وخلخلهم ، واعطاهم اعمدة من الذهب ، ووقفهم على رأسه ، واخذ ستة غلمة وزراءه ، فأقام ثلاثـة عـن يمينـه ، وثلاثة عن يساره ، وكان يستشيرهم في جميع اموره ، وكان يجلس في كل يـوم في صحن داره والبطارقة عن يمينه ، والهراقلة عن يساره ، ويدخل ثلاثـة غلمـة في يـد

احدهم جام من الذهب مملوء من المسك المسحوق ، وفي يد الآخر جام من فضة مملوء من ماء الورد ، وفي يد الآخر طائر ابيض له منقار احمر ، فاذا نظر الملك الى ذلك الطائر صفر به فيطير الطائر حتى يقع في جام ماء الورد فيتمرغ فيه ، ثم يقع على جام المسك فيحمل ما في الجام بريشه وجناحه ، ثم يصفر به الثانية فيطير الطائر على تاج الملك فينفذ ما في ريشه وجناحه على رأس الملك .

ولما نظر الملك الى ذلك عتا وتجبر ، فادّعى الربوبية من دون الله ، ودعا الى ذلك وجوه قومه فكل من اطاعه على ذلك اعطاه وحباه وكساه ، وكل من لم يبايعه قتله . فاستجابوا له رأسا ، واتخذ لهم عيدا في كل سنة مرة ، فبينما هم ذات يوم في عيد والبطارقة عن يمينه ، والهراقلة عن يساره ، اذ أتاه بطريق فأخبره ان عساكر الفرس قد غشيته ، فاغتم لذلك حتى سقط التاج عن رأسه . فنظر اليه احد الثلاثة الذين كانوا عن يمينه يقال له (تمليخا) وكان غلاما فقال في نفسه : لو كان دقيانوس الها كما يزعم ، اذا ما كان يغتم ولا يفزع ، وما كان يبول ولا يتغوط ، وما كان ينام ، وليس هذه من فعل الآلهة . قال : وكان الفتية الستة كل يوم عند احدهم ، وكانوا ذلك اليوم عند (تمليخا) ، فاتخذ لهم من طيب الطعام ، ثم قال لهم : يا اخوتاه قد وقع في قلبي شيء منعني الطعام والشراب والمنام . قالوا : وما ذلك يا تمليخا ؟ قال : اطلت فكري في السماء فقلت : من رفع سقفها محفوظة بلا عمد ولا علاّقة من فوقها ، ومن اجرى فيها شمسا ، ومن زينها بالنجوم ؟ ثم اطلت الفكر في الارض فقلت : من سطّحها على ظهر اليم الزاخر ، ومن حبسها بالجبال ان تميد على كل شيء ؟ واطلت فكري في نفسي فقلت : من اخرجني جنينا من بطن أمي ، ومن غذاني ، ومن رباني ؟ ان لها صانعا ومدبرا غيرا دقيانوس الملك ، وماهو إلا ملك الملوك ، وجبار السماوات . فانكبت الفتية على رجليه يقبلونهما ، وقالوأ : بك هدانا الله من الضلالة الى الهدى ، فاشر علينا . فوثب تمليخا فباع تمرا من حائط له بثلاثة آلاف درهم وصرها في ردنه ، وركبوا خيولهم ، وخرجوا من المدينة . فلما ساروا

ثلاثة اميال ، قال لهم تمليخا : يا اخوتاه ؛ جاءت مسكنة الآخرة ، وذهب ملك الدنيا انزلوا عن خيولكم ، وامشوا على ارجلكم ، لعل الله ان يجعل لكم من أمركم فرجا ومخرجا . فنزلوا عن خيولهم ، ومشوا على ارجلهم سبعة فراسخ في ذلك اليوم فجعلت ارجلهم تقطر دما .

فاستقبلهم راع فقالوا : يا ايها الراعي هل من شربة لبن او ماء ؟ فقال الراعي : عندي ما تحبون ولكن ارى وجوهكم وجوه الملوك ، وما أظنكم إلا هرابا من دقيانوس الملك . قالوا : يا ايها الراعي لا يحل لنا الكذب ، أفينجينا منك الصدق ؟ فأخبروه بقصتهم ، فانكب الراعي على ارجلهم يقبلها ويقول : يا قوم لقد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم ، ولكن امهلوني حتى ارد الاغنام على اربابها ، وألحق بكم . فتوقفوا له ، فرد الاغنام ، واقبل يسعى يتبعه كلب له .

فلم يزل الراعي يسير بهم حتى علاهم جبلا ، فانحط بهم على كهف يقال له الوصيد ، فاذا بفناء الكهف فيه اشجار مثمرة ، فأكلوا من الثمر ، وشربوا من الماء ، وجنهم الليل ، فآووا الى الكهف ، وربض الكلب على باب الكهف ، ومد يديه عليه ، فأوحى الله – تعالى – الى ملك الموت بقبض ارواحهم ، ووكل الله بكل رجل ملكين يقلبانه من ذات اليمين ، الى ذات الشمال ، ومن ذات الشمال الى اليمين ، فاوصى الله – عز وعلا – الى خزان الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وتقرضهم ذات الشمال ...

عندما تدخل الروح كهف الاستقلال :

وبعد ، فهذه قصة رجال وجدوا استقلالهم فهتفوا والايمان يعمر قلوبهم : ﴿ **هَؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** ﴾ (الكهف/١٥) .

ان التنازل عن كرسي السلطة ليس بالامر اليسير على الانسان ، فهناك اناس

عندما يجلسون على كرسي لموظف صغير ، او يصبحون كتّابا في دوائر الحكام فانهم سرعان ما يفقدون استقلالهم وايمانهم ، ويبدؤون بالتكبر على الآخرين ، واصحاب الكهف كانوا في عز سلطانهم ، وبيدهم كل شيء إلا انهم جردوا انفسهم منها في سبيل الله - سبحانه - ، لان ارواحهم اتصلت بكهف الاستقلال ، وحصن التوحيد ، واصبحت قلوبهم مضاءة بنور الايمان ، ولذلك فقد خلد ذكرهم على صفحات التأريخ .

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّءْ لَكُم مِن أَمْرِكُم مِرْفَقاً ﴾ (الكهف/١٦) .

وقد زادهم الله - تقدست اسماؤه - شرفا فوق شرفهم إذ غير قوانين الطبيعة من أجلهم كما تصرح بذلك الآية التالية :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ (الكهف/١٧) .

الصفحات المشرقة في التاريخ :

وهكذا فان في تاريخ الاديان السماوية قبل ظهور خاتم الانبياء (صلى الله عليه وآله) ، وبالذات في تاريخ اتباع عيسى بن مريم (عليهما السلام) صفحات مشرقة تتلألؤ نورا وضياءا لابد ان ندرسها . فمع ان المسلمين في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) بذلوا من مهجهم الكثير ، الا ان هناك مسلمين آخرين ظهروا قبلهم كأتباع عيسى ، وموسى ، وابراهيم ، ونوح (عليهم السلام اجمعين) اجهدوا انفسهم في سبيل الله - عز شأنه - ، واذا كنا نرى اليوم ان نصف البشرية يعبدون الله بصورة او بأخرى فان الفضل يعود في ذلك الى اولئك المؤمنين الاوائل .

معركة الاستقلال هي معركة التوحيد :

ولذلك فان هذا الحديث ليس للماضي والتاريخ ، بل هو حديث اليوم الذي يعيش فيه العالم الاسلامي معركة الاستقلال التي هي معركة التوحيد . فالانسان الذي لا يؤمن بالله – سبحانه – لا يفكر في الاستقلال ، والمؤمن الذي لا يفكر في الاستقلال فان في ايمانه ضعفا وفشلا ، ولابد له من ان يغير منهجه . فكيف يمكن لانسان ان يدّعي الايمان بالله وهو يخضع لقوانين السلاطين ، ويحارب تحت ألويتهم ، ويكتب في دواوينهم ، ويغدو جزء من ستراتيجياتهم ، وكيف يمكن لانسان ان يدّعي انه عبد الله وهو من عبدة الطاغوت ، وما الفرق بينه وبين المشركين الذين حاربوا الرسول (صلى الله عليه وآله) ، فهم هم الآخرون كانوا يعبدون الله الا انهم كانوا يجعلون له – تعالى – اندادا ، ويعتقدون ان هؤلاء الانداد هم شفعاؤهم الى الله ، كما يصرح بذلك القرآن الكريم في قوله :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزُّمر/٣) " .

لا استقلال في ظل الاستعمار :

وفي خلال ثلاثمائة عام تقريبا استخدم الغرب التكنلوجيا الحديثة ، واتجه الى الصناعة والعلم ، وتمكن من الحصول على اسلحة افضل ، وبالتالي فانه استطاع بذلك الهجوم على البلدان الاسلامية .

وفي البدء وقفت بلداننا امام هجوم الغرب ، فالامبراطوية العثمانية وعلى الرغم من زلاتها كانت سدا منيعا امام الغرب ، ولكن المستعمرين استطاعوا هدم هذه السدود ، فاحتلوا البلاد ، واذلوا العباد ، واحرقوا المحاصيل دون ادنى شفقة او رحمة . وعلى سبيل المثال ففي معركة جرت في السودان بين البريطانيين والمسلمين قتل ثلاثة من البريطانيين ، بينما قتل من الطرف الآخر اكثر من ألف انسان بسبب عدم التكافؤ في

الاسلحة ، ونفس هذه المأساة تكررت في شمال افريقيا ، وآسيا الوسطى ، وبلدان الشرق الاوسط ، والهند ، واندونيسيا التي لها حصة الاسد من التاريخ المليء بالكوارث ، والمذابح الوحشية التي مارسها الاستعمار اثناء احتلاله وسيطرته عليها .

وحتى الآن لم يخرج المستعمرون من بلداننا ، وان تعددت الوجوه فان السبب في ذلك يعود الى استنتاجهم ان الافضل لهم ان يعيّنوا عملاء من قبلهم يحكمون قبضتهم على هذه البلدان شريطة ان تتجسد فيهم سمات التبعية والطاعة المطلقة ، اي ان يتحولوا الى مجرد دمى لا ارادة لها .

وعلى سبيل المثال فان احمد شاه في ايران اراد اجراء بعض التغييرات ، فما كان منهم إلا ان دعوه الى اوروبا ، ثم أمروا رضا خان بقلب الوضع عليه ، فقام بانقلابه العسكري ، ثم أراد الأخير ان يتحالف مع المانيا فأبعدوه الى جزيرة موريس وجاؤوا بابنه ، واجلسوه على كرسيه .

وفي العراق كان عبد الكريم قاسم قد ألقى ايام حكمه خطابا وصف فيه (جون كندي) بانه شاب مغرور ، فلم يمهله المستعمرون سوى اسبوع واحد نظموا خلاله انقلابا عسكريا على يد عبد السلام عارف ....

ان هذه الاساليب وغيرها انما هي وجه من الوجوه العديدة للسيطرة الاستعمارية ، ولو استعصت عليهم هذه الاساليب لاستخدموا غيرها مثل المحاصرة الاقتصادية ، او الغزو العسكري لكي يروضوا البلد المقصود .

وعلى سبيل المثال فبعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران ، ولانهم لم يتمكنوا من تغيير السلطة عبر انقلاب داخلي ، لم يقف امامهم اي رادع من شن حرب شعواء لا تبقي ولا تذر من خلال دعمهم لطاغية العراق (صدام حسين) صدام بكل المعدات والاسلحة الفتاكة ، ومحاصرتهم الاقتصادية والسياسية والاعلامية . وفي افغانستان بمجرد ان فكر الشعب المسلم فيها في نيل الحرية جنّد له الاستكبار الشيوعي قوة هائلة من الجيش الاحمر ، وقتل مالا يقل عن مليون ونصف مليون انسان بالاضافة

الى تشريد لخمسة ملايين لاجئ !

ان علينا ان نستفيد من كل هذه التجارب ، وان نحاول بكل ما نمتلك مـن طاقـات وقدرات ان نحصل على الاستقلال الحقيقي ، ونقاوم المؤامرات الاستكبارية ضدنا من خلال تحويل شعار التوحيد (لا إله إلا الله) الى واقـع عملـي ، ورفـض كـل سـلطة تريد العلو في الارض والتجبر واثارة الفساد فيها ، وتريد ادعاء الربوبية مـن دون الله - عز وجل - ، وهذه هي حقيقة التوحيد التي يدعو اليها الاسلام .



الفصل الرابع

الاساس التوحيدي للعلاقات

من خلال قصص واقعية سهلة الفهم يبين القـرآن الكريـم لنـا قضايـا وحقـائق علمية ، ولولا هذا البيان القرآني العذب والميسور لما اسـتطاع الانسـان الوصـول الى تلك الحقائق وايصالها الى الآخرين .

ومن تلك الحقائق التي يبينها القرآن الكريم طبيعة الانسـان ، والعقـدة الحقيقيـة التي تمنعه من الوصول الى الكمالات والدرجـات الرفيعـة مـع ان الله – سـبحانه وتعالى – خلقه في أحسن تقويـم ، واودع في ضمـيره مـا اودع مـن التطلـع الى الكمالات والسمو؛ فكل انسان يحب ان يسمو ويعلو ، وان تفتح امامه فرص النمو والعروج والتقدم الروحي ، ومع ذلـك فاننـا لانجـد الا القليـل مـن النـاس ممـن يستطيعون بلوغ الكمالات الروحية ، والدرجات الرفيعة .

مثال السمو الروحي :

هذا في حين اننا نجد الانبياء والائمة (عليه السلام) على قصر اعمارهم ، وقلة الفرصة التي كـانت متاحـة لهـم ، الا انهـم اسـتطاعوا ان يسـتغلوا هـذه الاعمـار القصيرة الاستغلال الامثل ليصلـوا الى الكمـال الروحـي ، وفي المقـابل نجـد ان هناك اناسا يأتون الى الدنيا عاديين ويرحلون عنها عاديين ، بل ان البعض منهـم قد يقدمون الى هـذه الدنيـا اناسـا ويغادرونهـا وحوشـا ، فبـدلا مـن ان يسـتغلوا اعمارهم ويسمو بأنفسهم الى الدرجات العلى نراهم يهبطون الى أسفل سافلين .

والقرآن الكريم يبين لنا اسباب هذه الظاهرة مـن خـلال سـور عديـدة ، وآيـات مختلفة وبالذات عبر قصة تأريخيـة اشـتملت في تضاعيفهـا علـى فلسـفة العمـر وحكمة الحياة ، الا وهي قصة ابليس مع آدم (عليه السـلام) ، ونحـن نسـتطيع ان نستنتج الظواهر التالية من هذه القصة :

ابليس رمز العنصرية والتكبر :

١- ان ابليـس هو اول من افتخر بعنصره ، وزعم ان العنصر او الذات يمكن ان يكون له قيمة ذاتية ، في حين اننا لو طرحنـا هـذه القضيـة مـن الناحيـة العقليـة لوجدنا ان الاشياء مادامت مخلوقات لله - تعالى - فلا تفاضل بينها الا بما جعله الله مقياسا للتفاضل . فلا يمكن ان يكون هنـاك شـيء مخلـوق لله ومـن صفاتـه العجز والمحدودية ، وخضوعه للسنن والقوانين ، أفضل من غـيره وهـو مشـترك مع هذا الغير من جهة كونه مخلوقا لله - عز وجل - .

هذا في حين ان ابليس يدعي انه أفضل من الانسان المخلوق من الطـين لانـه خلق من نار ، ومثل هذا التفكير نجده ايضا لـدى بعـض المجتمعـات ؛ فـالبعض منهم ممن يعيش في بلد ما يدعي انه افضل ممن يعيش في بلد آخر ، او ينتمـي الى عشيرة اخرى ، وهذا هو معنـى العنصريـة والعرقيـة الـتي منشـؤها الاعتقـاد

المغلوط بامكانية ان يكون للشيء المخلوق أفضلية على شيء مخلوق آخر في حين ان جميع الاشياء هي مخلوقات لله . فالله واحد ، والخلق واحد .

وفي الحقيقة فان جذور الشرّك تنمو في مثل هذه الارضية الاعتقادية الملوثة فالذين اشركوا بالله كانوا قد مالوا الى (الشيئية) وتقديس العناصر المخلوقة ؛ فالبعض منهم مال الى تقديس الوطن ، والبعض الآخر الى تقديس العشيرة او اللون ... وبالتالي فانهم قدسوا شيئا في مقابل تقديس الرب وتسبيحه .

العمل هو الاساس :

٢- ان ابليس - كما هو معروف - كان يسجد لله - تعالى - عشرات الالوف من السنين ، وقد كان من الجن فارتفع الى مستوى الملائكة بسبب كثرة عبادته ، وطول سجوده وركوعه وخضوعه لله - سبحانه وتعالى - ، ولكنه مع ذلك لم يدرك هذه الحقيقة البسيطة والواضحة ؛ فالعنصر ليس هو المهم وانما العمل ، فالعمل هو الذي رفع ابليس الى درجة الملائكة ، ولكنه - عليه اللعنة - لم يلتفت الى هذه الحقيقة .

هدف ابليس من عبادة الله :

٣- لقد كان ابليس مذعنا لعبادة الله ، ولكنه كان يستهدف من هذه العبادة اثبات شخصيته لا الخضوع والتسليم لله - عز وجل - ، فكان يطمح لنفسه وذاته ولم يكن يريد الله ، وكان في الظاهر يقر بعظمة الله وبكونه اكبر من كل شيء ، ولكنه في قرارة نفسه وفي اعمق اعماق ضميره كان يرى انه اكبر بدليل ان الله قد أمره بالسجود لآدم فرفض ، ذلك لانه اذا سجد لآدم فان هذا سيقتضي منه ان يخضع لهذا المخلوق ويطيعه ، لان آدم سيكون خليفة الخالق في الارض .

وفيما يلي ندرج الآيات التي تحدثت عن قصة آدم مع ابليس ، وقد اخترنا هذه الآيات من سورة (صلى الله عليه وآله) المباركة : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِـينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُـمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيـسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(ص/٧١-٨٣)

وهكذا فان الله – سبحانه وتعالى – صرح للملائكة قبل كل شيء بانه جاعل في الارض خليفة ، وان عليهم ان يسجدوا لخليفته هذا ، ويخضعوا له ويطيعوه بإذنه ، ولكن ابليس رفض الانصياع لأمر ربه ، لانه ادعى انه اولى بالخلافة من البشر ، فكان في داخله هوى حب الرئاسة والاستكبار .

الأمر الالهي هو المقياس :

وفي رأيي فان آيات القرآن صريحة في قضية السجود لآدم ، وليس من المنطقي ان نأولها الى غير ظاهرها ، فالقرآن الكريم يقول بصريح العبارة :

﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ؛ اي اسجدوا له ، فالخضوع لانسان أمر الله – تعالى – بالخضوع له واجب ، والا لما جاز لنا ان نقدس الحجر الاسود ، ولما وجب علينا ان نطوف حول البيت الحرام ، ونتوجه الى تلك الصخور السوداء من اقصى الارض متحملين المشاق والعناء . ففرق هذه الحجارة عن كل احجار الارض ليس في ذاتها وانما في أمر الله – سبحانه وتعالى – بتقديسها .

ومن هذا المبدأ تنطلق الولاية ، فالولاية تعني الامامة والقيادة الاسلامية ،

والخضوع لما أمر اللـه - عز وجل - هو محور جميع الاحكام الشرعية .

فلأن آدم كان خليفة الله في الارض فقد أمرت الملائكة بـالخضوع لـه ، ذلـك لأن نور الولاية كان عند آدم (عليـه السـلام) ، فقـد اقتضـت المشـيئة الالهيـة ان ينبعث من صلبه الآلاف المؤلفة من الانبياء والاوصياء والمرسلين ، ولذلـك فقـد أمرت الملائكة جميعا بالسجود لآدم ، وطرد ابليس ورجم هو ومن أتبعه الى أبد الآبدين ، لانه لم يمتثل للأمر الالهي بالسجود والخضوع لآدم .

وبناء على ذلك فان الولاية هي امتحان للانسان ولقدرته علـى طاعـة ربـه في جميع الأمور ومن ضمنها طاعة القائد حتـى وان كـان إبـني او أخـي الاصغـر او رجل لاتربطني به اية علاقة مادية او مصلحية او اقليمية ، وهنا بـالضبط تجـرب ارادة الانسان ومدى اخلاصه لرب العزة ، فلو أمرك الله - تعالى - بطاعة انسـان مستضعف ملاحق ومطارد ، والانسان الذي يستوجب اتباعك له الخوف والذعر ، ثم امتثلت لهذا الأمر الالهي فانك ستكون حينئذ مقربا من الله - عـز وجـل - ، لأنك ستكون قد اختبرت ايمانك بشكل عملي ، وجربت ارادتـك ، ووصلـت الى درجة الاخلاص لخالقك .

ونحن عندما نتبع ائمة الهدى (عليه السلام) ونخلص لهم ونجعلهم وسيلة بيننـا وبيـن الله - تبـارك وتعالى - فانـما نفعـل ذلك لان الله قـد أمـرنا بذلك قـائلا : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة/٣٥) ، ولكي نؤكد لأنفسنا اولا وقبل كل شيء حالة الايمان ، صحيح ان باب اللـه - عز وجل - مفتوح للسـائلين ، ولكنـه في بعض الاحيان يأمرنا ان نأتيه من ابوابه فيقول : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِـنْ أَبْوَابِهَـا ﴾ (البقرة/١٨٩) .

ان اللـه موجود في كل مكان ولكنه - مع ذلك - يأمرك ان تذهب الى الكعبة او الى عرفات في حين انه لايوجد اي اختـلاف بـين البيـت الـذي تسـكنه عـن الكعبة او جبـل عـرفات مـن ناحيـة العنصر ، ولكن فضيلة تلك الامـاكن تكمـن

في ان الله – سبحانه – أمرنا بالتوجه اليها ، وفضيلتي – كانسان – هي الخضوع للأوامر الالهية ، فمن خلال هذا الخضوع يمحص ايماني .

وهكذا فان تجميع الناس في ذلك البر القفر البعيد الذي يصعب الوصول اليه بين الاحجار والصخور انما هو لكي تجرب ارادة الانسان ويمتحن ايمانه .

وعلى هذا فان القضية الاساسية التي يجب ان نلتفت اليها اننا عندما نذكر الله – سبحانه وتعالى – صباح مساء ونسبحه ونقدسه ، لكي لانقدس شيئا آخر غير الله – سبحانه وتعالى – اللهم الا اذا أمرنا بذلك كما تقدم ومن خلال استقراء قصة ابليس وآدم نستفيد ما يلي :

١– ان الفكرة الرئيسية التي نستوحيها من قصة ابليس مع آدم اننا نحن ايضا نعيش الآن نفس الحياة ؛ فالانسان هو الانسان ، وسنن الله – تعالى – باقية لم تتغير ، فنحن ايضا قد نستكبر عن طاعة من أمرنا الله بطاعتهم .

٢– علينا ان نسأل انفسنا : ماهو الأساس الذي تقوم عليه علاقاتنا مع بعضنا البعض ومع سائر المجتمعات والشعوب والامم ؟ وهل هو اساس مادي قائم على اساس المصالح ، أم على اساس ان الغني منا يقول لابد ان تكون القيادة لي لانني أغنى من الآخرين ، أم على اساس ان المنتصر منا يقول لغير المنتصر إنني افضل منك لان الله منح لي منْ دونك نعمة النصر ؟

ان هذه الاعتبارات وغيرها هي بحد ذاتها علاقات عنصرية نحن لاندعو اليها ، وتجب علينا محاربتها والقضاء عليها ، فلا يجوز لاي انسان ان يدعي الفضل على انسان آخر ، فمثل هذه العلاقات الشاذة هي التي تهدم اساس التوحيد في المجتمعات الاسلامية ، فلا يجوز لي ان استهين بفلان من الناس لان بلده محتل ، ولانه مظلوم ، ومستضعف ولم يكتب له الله – تعالى – النصر لحد الآن .

وفي هذا المجال – مجال التواضع وعدم التكبر على الآخرين – يقول الامام الصادق (عليه السلام) : " اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن

تعلمونه العلم وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم "[1]" . فلا يجوز للانسان العالم ان يتجبر ، بل عليه ان يفعل العكس من ذلك فكلما ازداد الانسان علما لابد ان يزداد تواضعا .

وبالاضافة الى ذلك فان المكاسب الرسالية والتأريخ الجهادي الطويل يجب ان لايدفعا الانسان المؤمن الى التكبر على الآخرين ، والطلب منهم ان يخضعوا له . فالانسان قد يعيش عمرا طويلا وهو يعيش الاعتقاد بانه مؤمن ومخلص لله - تعالى - ، ولكن كل ذلك قد يتحول الى تمنيات وأحلام ، واذا بهذا الانسان يهتف قائلا : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون/٩٩-١٠٠)

فيأتيه الجواب من رب العالمين : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون/١٠٠)

حذار من التعصب :

وهكذا فان ابليس انما اصبح لعينا ، وانما طرد من الجنة لانه تكبر وقدس عنصره ، فحذار من هذا العمل ومن الاغترار بالمكاسب المادية .

ان هذه الحالات النفسية الشاذة هي التي تؤدي الى سقوط الانسان ، فلابد ان يكون الدين لله كما يقول - تعالى - : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزُّمر/٣) ، ولنعلم اننا لو اشركنا به ولو بمقدار ذرة فان اعمالنا جميعها ستحبط كما يشير الى ذلك - عز وجل - في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزُّمر/٦٥) .

وعلى هذا الاساس فان العلاقات في اوساط الامة الاسلامية ينبغي ان تقوم

---

(١)بحار الانوار ج ٢ ص ٤١ رواية ٢

على اساس ايماني توحيدي لا على اي اساس آخر ، فالاعتبارات المادية هي كلها مداخل للشيطان في قلوبنا ، فليس من حقنا ان نفتخر باللون او اللغة او الارض او التجمع الذي ننتمي اليه ، وانا اوجه كلامي هذا بالخصوص الى ابناء الطليعة من الامة الذين يجب ان تكون علاقاتهم راسية على اساس توحيد الله وتقـديسه وتنزيهه لا على اساس تقديس النفس والاعجاب بها والذي هو نوع من الشرك حذرنا الخالق - عز وجل - منه أشد التحذير .



الفصل الخامس

التوحيد منطلق محاربة الطاغوت

التوحيد يعني في حقيقته ان ملكوت السماوات والارض وغيبهما ، وحركة الليل والنهار والشمس والقمر ، وموت الانسان وحياته ورزقه وفقره ، كل ذلك وغيره بيد الله - سبحانه وتعالى - الذي يتفضل على طائفة من الناس بالرزق ويقدر رزق طائفة أخرى ، ويجعل فريقا ملوكا ثم يسلب الملك منهم لان بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الايمان لايستقيم مع الشرك :

والانسان الذي لايؤمن بهذه الحقيقة هو كمن لايؤمن بالله ، فالذي يدّعي الايمان ثم يرى في نفس الوقت ان ملكوت الارض والقدرة المهيمنة على هذا الكوكب بيد هذه القوة البشرية او تلك ، فان مثل هذا الانسان هو كافر في

الحقيقة ، ذلك لان الايمان بملكوت وقدرة الخالق - تعالى - هو جزء لايتجزأ من الايمان بالخالق ذاته .

ان الاله الذي نؤمن به واسع القدرة ، فعال لما يشاء ، مهيمن على السماوات والارض ، له الأمر وله الخلق واليه المصير ، وهذا هو الله - تعالى - الذي نؤمن به ، ومثل هذا الايمان لابد ان ينعكس على حياة الانسان المؤمن .

فالانسان الذي يؤمن بالله الها حقا ، له الاسماء الحسنى والصفات المثلى ، لايمكن ان يستسلم للطاغوت ، ولايخشى من متجبر ، ولايتنازل عن قيمه ومثله طلبا للدنيا ، لان قلب هذا الانسان متصل بنور الخالق - تعالى - ، ولذلك فانه الاعز بين المخلوقات كما قال - عز وجل - : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون/٨) .

ان انعكاس التوحيد على حياة الانسان يعني ان تكون حياته كلها عزة وكرامة واستقلالا وشرفا ، فهو لايبيع شرفه من أجل لقمة العيش ، ولايتنازع عن كرامته مقابل منصب ، ولايستسلم خشية من أحد ، فهو لايخاف الا الله ، لانه يعلم ان القوة والملك وغيب السماوات والارض بيد الخالق - تعالى - .

مظاهر الشرك في حياتنا السياسية :

ونحن في عالمنا المعاصر عندما ندخل عالم السياسة ونستمع الى الاخبار ونقرأ الصحف ونتفاعل مع الحوادث اليومية ، فاننا نرى ان الشيطان يظهر لنا من خلال هذه الوسائل الاعلامية ، فهو يحاول ان يوسوس في صدورنا ويجعلنا نعتقد - مثلا - ان الولايات المتحدة الاميريكية هي أقوى سلطة في العالم ، وهذا ما دفعنا الى ان نسميها بـ " القوة الكبرى " ، في حين ان هذا التصور هو نوع من الشرك .

ان ما تردده هذه الوسائل الاعلامية من شعارات هي في الحقيقة نفس

الكلمات التي كان يطلقها فرعون ، فهذا الطاغية كان يقول : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النّازعات/٢٤) ، والذين حوله كانوا يحلفون بعزته لا بعزة اللـه - سبحانه وتعالى - ، وفي النهاية رأينا مصير عزة فرعون في تلك المعركة التي أخذ الله - عز وجل - فيها هذا الطاغية وجنوده أخذ عزيز مقتدر ، فنبذهم في اليم واغرقهم ليذهبوا دون رجعة .

ولعل الحضارة الفرعونية هي الحضارة الوحيدة التي انقطعت جذورها ، وانقرضت بشكل نهائي في حين ان الحضارات الاخرى كان لها امتداد ، ذلك لان باني هذه الحضارة أعلن كفره وتحديه للخالق - عز وجل - .

واليوم تطرح نفس هذه الفكرة من خلال طرح اميركا كقوة عظمى لايمكن ان تنازعها قوة أخرى في حين ان القوة الكبرى لله - تعالى - ، فالاميريكيون عجزوا حتى الآن عن القضاء على فيروس الايدز ، واقتصادهم الآن في حالة تدهور ، ومع ذلك فاننا نقول ان اميركا هي ربنا الأعلى ، ونسميها بـ " القوة الكبرى " ؛ في حين ان اللـه - تعالى - هو المقتدر المهيمن ، فمن إعتز به أعزه ، ومن توكل عليه كفاه ، وهذه الحقيقة يجب ان لاتردد باللسان فحسب بل يتعين ان تتحول الى ستراتيجية في حياة الانسان بجميع مجالاتها .

الشهادة حصن الاستقلال :

ولهذا السبب فان علماءنا استطاعوا ان يحافظوا على استقلاليتهم عن الاتجاهات السياسية لانهم يعتقدون بالاكتفاء الاقتصادي فهم لايستلمون مرتبات من الحكومات ، ولانهم يؤمنون بقيمة الشهادة في سبيل الله - تعالى - ، ولذلك فان التهديد والترغيب لايؤثران فيهم ، فكم منهم اصبحوا شهداء عبر التأريخ اعتبارا من اصحاب الائمة (عليه السلام) الذين يمثلون السلف الصالح لعلمائنا ، وهذه مفخرة لنا .

وبناء على ذلك فان الانسان الذي يعشق الشهادة في سبيل الله - عز وجل - لايمكن لأي قوة في الارض ان تهزم إرادته او تسلب قيمته ، لانه استسلم لله وتوكل عليه .

ان هذه القيمة هي التي جعلت هذه السلسلة المباركة من علمائنا تسير في الطريق المستقيم دائما فلا الترغيب بامكانه ان يغير منهجهم ولا الترهيب ، وهذا هو الاستقلال ..

وهذه ظاهرة توارثناها كابرا عن كابر من ائمتنا (عليه السلام) وحتى فقهائنا ، ذلك لان هؤلاء العلماء يوقنون ان نظام الكون بيد الله - عز وجل - .

اساليب استعمارية جديدة :

وبالطبع فان شعوبنا وصلت اليوم - والحمد لله - الى المستوى المطلوب من الوعي ، وعرفت كيف تتصدى للمخططات الاستعمارية ، وقد ظهرت الآن اساليب استعمارية جديدة أشير الى اثنين منها فيما يلي ليدرك اخواننا العاملون في المجال السياسي ، وابناء الحركات الاسلامية انهم يواجهون عدوا شرسا متمرسا في الكيد ، وصياغة الخطط الجهنمية :

١- الاسلوب المالي والاقتصادي :

وعلى سبيل المثال فان البنوك المنتشرة في انحاء العالم متصلة ببعضها البعض من جهة ، وبالبنوك الدولية من جهة أخرى ، واذا ما دققنا في الأمر اكتشفنا ان المشرف على هذه البنوك يتمثل في الامبريالية والصهيونية ، وهكذا يحارب الاستكبار اقتصاد المسلمين ويحطمه عبر الشبكات المالية التي يمتلكها والمتمثلة في البنوك .

ومن جهة اخرى فاننا نرى ان الاسواق العالمية بأيدي الغربيين ، ولذلك فاننا نلاحظ ان اسعار المواد الأولية التي تصدرها البلدان النامية تهبط يوما بعد آخر ،

وعلى سبيل المثال فان سعر البرميل الواحد من النفط كان يبلغ في يوم من الايام (٦٥) دولارا ولكنه انخفض الآن الى أدنى مستوياته ، والأسوء من ذلك ان البلدان الغربية تأخذ هذا النفط من البلدان النامية بأبخس الاثمان لتحوله الى وقود ومواد اخرى لتبيعها لنفس البلدان بأكثر من (١٥٠٠) ضعف !

٢- الحرب الثقافية :

ان التقنية الآن بأيدي الغربيين ، وقد بدؤوا الآن يشنون علينا هذه الحرب من خلال توظيف تلك التقنية ، وعلى سبيل المثال فان الغربيين هم الذي يقفون وراء شبكات تجارة المخدرات التي أدت الى ان يتساقط شبابنا كما تتساقط اوراق الخريف ذلك لانهم هم الذين يروجون لها . ومن الطريف ان بعض الحكومات اذا ما عاقبت تجار المخدرات فان البلدان الغربية تعترض على ذلك تحت شعار (حقوق الانسان) !!

ومع ذلك فاننا نغط في نوم عميق في حين انهم يضعون المخططات الجهنمية لافسادنا وحرفنا عن تعاليم ديننا ، وهم يركزون في غزوهم الثقافي هذا على أولادنا من خلال أفلام الكارتون – على سبيل المثال – والافكار الخبيثة التي يدسونها في هذه الأفلام كما يدس السم في العسل الى درجة ان أولادنا اصبحوا لغيرنا لانهم تلقوا تربيتهم من هؤلاء الغير ، وعلى هذا فان وجد تهديد حقيقي لبلادنا في العالم الاسلامي فهو التهديد الثقافي .

هذه هي حقيقة العالم الغربي ، فهل نستسلم له أم نتحداه ؟

بالطبع يجب علينا ان نتحداه لان من أسس الايمان بالله – تعالى – الكفر بالطاغوت كما قال – عز من قائل – : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (البقرة/٢٥٦) .

اما الانسان الذي تغشي الحجب عينيه فلا يمكن ان يرى الحقيقة ، فالذي

يؤمن بالطاغوت لايمكن ان يؤمن بالله ، فالطاغوت هو ذلك الانسان الذي يطغى في الارض كفرعون وأمثاله .

كيف نحارب الطاغوت :

وهنا يتبادر الى الاذهان السؤال المهم التالي : بماذا نحارب الطاغوت ونحن لانمتلك الامكانيات اللازمة ؟

وللجواب على هذا السؤال نقول : ان الايمان بالله - تعالى - هو سلاحنا في هذه المحاربة ، فايماننا بأن ملكوت السماوات والارض بيده - عز وجل - هو بداية مواجهتنا للأعداء ، اما اذا لم نؤمن بالله حقا ، ولم ندرك انه هو الفعال لما يشاء ، وانه مسبب الاسباب والمهيمن فاننا سوف لن يكون في مقدورنا محاربة الطغاة .

ولذلك فان الله - جل وعلا - يعرض لنا في سورة الانعام حقيقة هيمنته المطلق على الكون والحياة في قوله - تعالى - : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً** ﴾ (الانعام/٦١) ، اي ان كل شيء في حياتنا مستمد منه حتى حركتنا وشعورنا بالأمن ، وحتى الموت فانه هو الآخر لايقع صدفة وعبثا بل ان ملائكة الله - تعالى - هم الذين يقبضون أرواح الناس ، فاذا أمر الله ملك الموت ان يقبض روح رجل كبير السن في المكان الفلاني فان من المستحيل ان يقوم بعمله هذا خطأ ، فيقبض - مثلا - روح شاب جالس الى جانب ذلك الرجل الكبير السن ، لان كل شيء عنده - تعالى - بمقدار ، هذا ما يشير اليه بقوله : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَيُفَرِّطُونَ** ﴾ (الانعام /٦١) .

ثم يستأنف السياق القرآني الكريم في سورة الانعام قائلا : ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن**

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِن هَـذِهِ لَنَكُونَـنَّ مِـنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الانعام/٦٢-٦٣)

فبالموت لاينتهي كل شيء ، فهـو بداية لا نهايـة ، ثـم ألم نقـع في المشـاكل وندعوا الله - سبحانه وتعالى - ان يحلها لنا ، فحلها وفرجها عنها ؟ فلماذا الكفر به - تعالى - ، ولماذا نعتقد بقوة هذا السلطان او ذلك الطاغوت ؟!



الفصل السادس

التوحيد يتحدى

اول واعظم ما يهبه القرآن الكريم للانسان المؤمن القدرة على ازاحة غشاوات الجهل ، وحجب الضلال عن قلبه ليتصل هذا القلب مباشرة بنور الحقيقة فيكتشف الحقائق ويرى الاشياء كما هي :

الانسان مفطور على فهم الحقائق :

ولقد فطر الانسان على فهم الحقائق ، ولو ترك لشأنه لأدرك ان لهذه السماء المبنية والارض المدحية الها فطرهما وقدر فيهما ارزاقهما ودبر شأنهما ، ولكننا نرى ان اغلب الناس يشركون بالله لان فطرتهم الاولى دنست برجس الشرك ، وحجبت بالاهواء والشهوات والتعصب والتربية السيئة والرغبة في تحقيق المصالح غير المشروعة .

ان هذه الأمور كلها تحجب عقل الانسان وبصيرته عن رؤية الحقائق ، لذلك نجد ان القرآن الكريم يعمل على رفع هذه الحجب المتراكمة على قلب الانسان فآيات القرآن تزكي القلب وتطهره وتجعله نقيا مضيئا يغمره نور الله ، ولذلك فان الانسان المؤمن ينظر بنوره – عز وجل – الحقائق ، بل انه يتوسم ايضا فيرى مالا يراه الآخرون ، ويكتشف ما هو خارج الشهود ؛ اي يكتشف من الشهود الغيب الكامن وراءه .

الانسان المؤمن متوسم :

والقرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة قائلا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر/٧٥) ، وكذلك الحديث الشريف حيث يقول : " انقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله " ، والمتوسمون هم الذين اذا نظروا الى سيماء الانسان اكتشفوا ما في قلبه ، واذا تأملوا ظاهرة عرفوا اسبابها وما ستنتهي اليه وهذه السمة التي يهبها القرآن للانسان لابد ان نحيطها بانتباهنا ، فعندما يقرأ البعض القرآن لايلتفتون الى ما ينبغي لهم ان يكتشفوه وينتفعوا منه ، لانهم يقرؤون القرآن قراءة سطحية ، ويمرون على الالفاظ فلا يتدبرون فيها ، في حين ان القرآن الكريم يأمرنا بالتدبر في آياته ، والتفتيش عن معنى كل كلمة فيه .

ولكي نوضح الفكرة السابقة نقول ان الكلمات – سواء كانت عربية ام غيرها – هي الفاظ وضعت للمعاني والحقائق الخارجية لا للمفاهيم الذهنية كما يقول الفلاسفة الاقدمون ، فالالفاظ تشير الى مدلولاتها مباشرة من دون مرورها على ذهن الفرد او على المفهوم ، وهي تشبه بذلك علامات المرور التي توضع على الطرق فتدل على المعاني الخارجية ، والحقائق الموجودة خارج اذهاننا ومفاهيمنا .

الفاظ القرآن تدل على الحقائق :

وكذلك الحال بالنسبة الى الفاظ القرآن ، فلقد استخدمت الفاظه للدلالة على

محض الحقائق التي لاتشوبها شائبة ولايحجبها حجاب ، وعلى سبيل المثال فان القرآن عندما يحدثنا عن الكون فانه يستخدم لفظتي (السماوات والارض) ويعرض عن استعمال لفظة الكون كما في قوله - تعالى - : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (طه/٦) ، فالقرآن الكريم لايستخدم الالفاظ الدالة على المجردات المجهولة بالنسبة الى الانسان بل يستخدم عادة الحقائق الملموسة حتى في عالم المجردات .

وحتى عندما يريد رب العزة ان يتحدث عن ذاته المقدسة - تعالت عن الوصف والتشبيه - فانه يستخدم عبارات كهذه : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح/١٠) ، ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة/٢٣) ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه/٥) ، فمثل هذه التعبيرات تبين الحقائق الخارجية ، وتجعل الانسان قريبا منها ، فيرى - عندما ينظر عبر منظار القرآن - كل شيء كما هو .

ان الادباء والفلاسفة والكتّاب عادة ما يغلّفون الحقائق بمفاهيمهم ، في حين ان القرآن الكريم يوضحها بصورة مباشرة ، فالانسان عندما يتلو آيات الذكر الحكيم فانه يحس بأنه يعيش الوجود ، ويعيش حركة الظواهر المخلوقة في السماوات والارض بشكل مباشر ودونما حجاب ، فعندما يهطل الغيث من السماء ينظر المؤمن الى قطرات المطر وهي تصب في الارض خصبا وبركة وخيرا ، يهتز قلبه كما تهتز الارض وتربو بقطر السماء : ﴿ فَانظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (الرُّوم/٥٠)

وهكذا فان القرآن الكريم يجعل الانسان يعيش الحقائق الخارجية ، في حين ان الثقافات الاخرى تعمل على تغليف قلب الانسان ، وحجبه عن هذه الحقائق ، فالانسان المؤمن - في عالم المعرفة - مثله كمثل الشخص الذي يقف عاريا تحت زخات المطر فيعيش الطبيعة كما هي على انه يعيش الطبيعة والخليقة بعلمه

ومعرفته لا بجسده العاري ، بينما يوضع الانسان المثقف بالثقافات الجاهلية في سيارة مصفحة ثم تدخله هذه السيارة في قاعة مغلقة ينظر منها الى المطر دون ان يرى آثاره التي يتركها على الارض .

اسباب الابتعاد عن الله :

وبناء على ذلك فاننا كثيرا ما نتعرض الى مثل هذه الحجب بشكل مضاعف ومكثف والسبب في ذلك ان الانسان لايهوى معرفة الله - سبحانه وتعالى - وهذا بدوره يعود الى اسباب منها :

١- الشهوات والغرائز :

فلقد اودعت في قلب الانسان الشهوات والغرائز وهي تجعله يخلد الى الارض وتصده عن الارتفاع الى السماء ، ومن هذه الغرائز غريزة الجنس والأكل وحب السيطرة والتملك والحسد ... وما الى ذلك من الغرائز التي تجعل الانسان ارضيا ترابيا تمنعه من السمو والانطلاق في سماء معرفة الله ، ولذلك فان نفس الانسان لاتهوى معرفة الله ، ويبقى حجاب الشهوات والغرائز حائلا بينه وبين هذه المعرفة .

٢- الثقافات الدخيلة :

تمثل الثقافات الدخيلة ايضا غشاوة تصد الانسان عن معرفة الله - جل وعلا - ولكننا نلاحظ ان القرآن الكريم يحاول دوما خرق هذه الحجب والغشاوات بأجمعها .

٣- الشرك بالله - تعالى - :

ان قضية الشرك تمثل قضية هامة وحساسة للغاية ، فالانسان لو مات مشركا لايغفر الله - عز وجل - له ، ولذلك ينبغي للانسان ان يعرف معاني الشرك ، من

جهة ، ويطلع على معنى التوحيد من جهة اخرى ليكون على بينة من أمره .

ولقد كان هناك نزر يسير من الناس يتصورون انهم قادرون على خلق ، وايجاد الاشياء مثل نمرود الذي قال لابراهيم (عليه السلام) : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة/٢٥٨) ، فأجابه ابراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة/٢٥٨) ، فلقد وقف نمرود ساكتا مشدوها امام ابراهيم (عليه السلام) ، لانه لم يكن يعلم بذاته انه بشر كالآخرين ، فمسألة الاحياء والاماتة لايدّعيها احد الا ادّعاء مجازيا .

ان الناس كلهم يقرون ان الله هو خالق السماوات والارض كما يؤكد على ذلك القرآن الكريم في قوله : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (ابراهيم/١٠) ، فليس هناك من شك ان الله هو الخالق ، وحتى الذين يعبدون الاصنام كانوا يقولون : انما نعبدها لتقربنا الى الله زلفى ، فالناس عادة ما يغلفون بغلالة من التوحيد ، فيلبسون بذلك الحق بالباطل ، ويعبدون غير الله زاعمين انهم يعبدونه .

على ان الطاعة العمياء تعتبر هي الاخرى نوعا من الشرك كما يقول - عز وجل - بشأن اليهود والنصارى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة/٣١) ، فالذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا لم يعبدوهم بالركوع والسجود بل اطاعوهم عندما حرموا حلال اللـه وأحلوا حرام ، فكان هذا العمل بمثابة عبادة لهم جسدتها طاعتهم لغير الله وبدون إذنه ، ولذلك يقول القرآن الكريم على لسان احد اوليائه : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ (الانبياء/٢٤)

المؤمن لايخشى الا الله :

والآلهة هي كل ما يعبد من دون الله ، وهذه الآلهة المزيفة تشمل السلاطين والرهبان وكل من يعبد من دون الله - تعالى - بطريقة او بأخرى ، والمشكلة

التي تعاني منها البشرية هي خضوعها للمعادلات الضاغطة ؛ فكـل منهـم يخشـى من هو فوقه ، واغلب الناس عندما ينحرفون عن جـادة الحـق لايعـترفون بخطـأ طريقهم وانحراف مسلكهم خشية وخوفا من كلام الناس ، ولذلك نجد ان القـرآن الكريم يقول عندما يصف المجاهدين : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ (المائدة/٥٤) ، فهم يطيعون الله ويعبدونه ويجاهدون في سـبيله دون ان يتأثروا بكلام الآخرين ، لان رضا الله هو منتهى ما يصبون اليه .

ولنا في اهل البيـت (عليه السلام) قـدوة حسـنة في هـذا المجـال فكـم سُبّوا ووجهت اليهم الشتائم وهم قدوة الصلاح ورمز الهـدى ومصـابيح الهدايـة وسـفن النجـاة فلقـد سبّوا علـى منـبر جدهـم رسول الله (صلى الله عليـه وآلـه) لمـدة اربعة وثمانيـن عاما فلـم ينقص ذلك مـن شـأنهم ، ولم يحـط مـن اقدارهـم بـل ازدادوا رفعة وخلودا .

وعلى هذا فان على الانسان المؤمن ان لايتهرب من السباب ، بل ليكن هروبه من غضب الله ، لان هدفه ارضـاؤه - تعـالى - والا فانـه سـيدخل في معادلـة الخوف من كلام الناس والبقاء تحت رحمة الضغوط .

الخضوع للمعادلات يتنافى مع العبودية :

اننا لايمكن ان نكـون عابدين للـه حق عبادته اذا أردنا ان نخضع للمعادلات بشكل او بآخر ، فنخشى كل من هو أعلى منا مركزا ومنصبا فنحن عندمـا ننطـق بشهادة التوحيد فان هذا يقتضي منا عدم الخضوع للمعادلات والمجتمع والسـلطة السياسيـة ، وعـدم الاستسـلام للنظـام الاقتصـادي والتربيـة الفاسـدة ومـؤامرات الاستكبار العالمي ، بل الخضوع المطلق لله وحده لاشريك له .

اما اذا قلنا (لا اله الا الله) كمجرد كلمات نرددها فان هذا يعـني اننـا لم نعـرف المعنى الحقيقي للإله ولكننا اذا عرفنا ان معنى الآلهة مـن دون الله هـو شـياطين

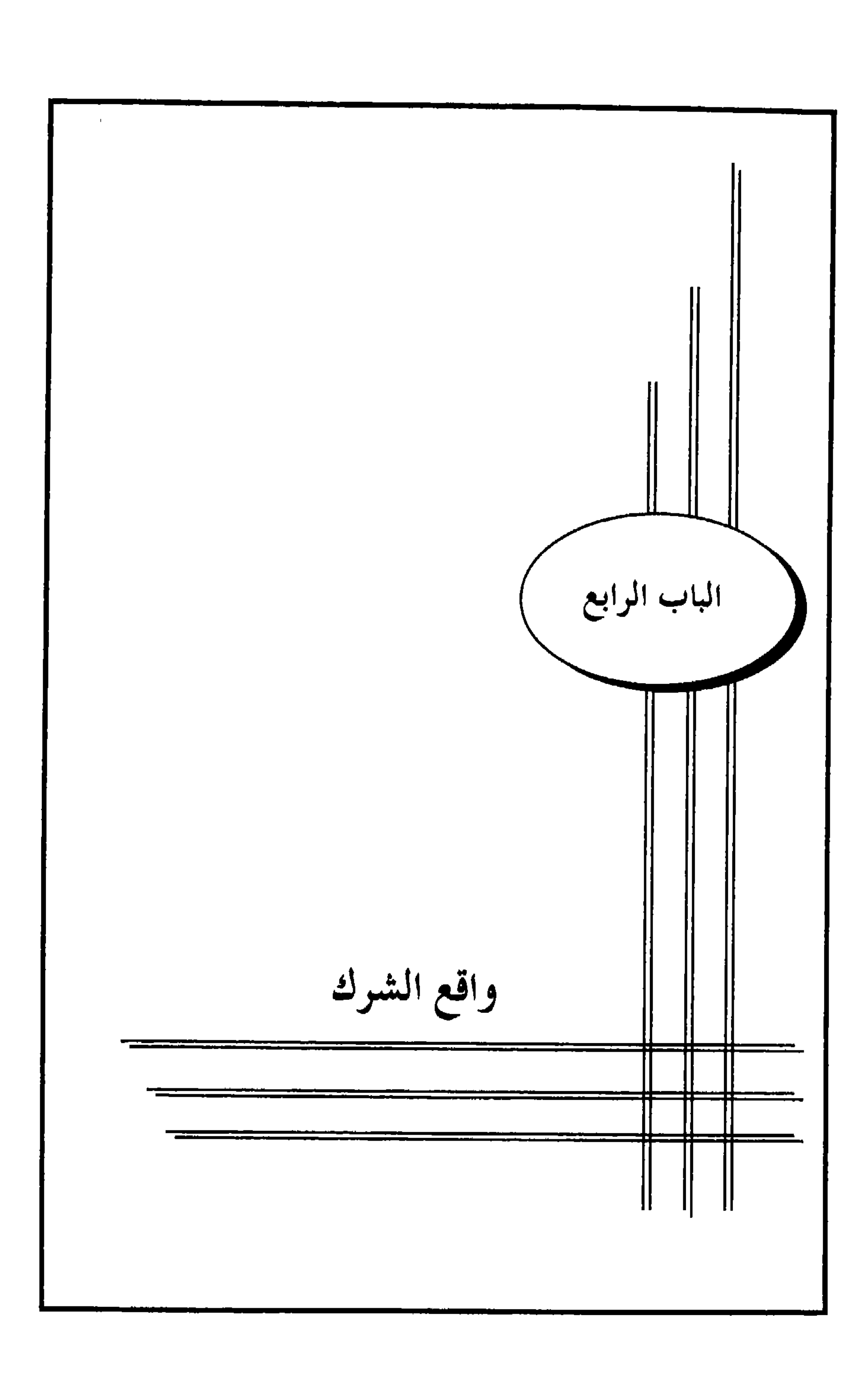
الارض وسائر القوى المستبدة فحينئذ سيقتضي قولنا (لا اله الا الله) نفي الوهيـة هؤلاء والاتكال على الله وحده ، وعندها ستتصل قلوبنا بالنور الالهي فنشعر بلذة التوحيد وتكون هذه الكلمة هي حصن اللـه الـذي ندخـل فيـه ، فقـد جـاء في الحديث القدسي الشريف : " كلمة لا اله الا اللـه حصني فمن دخل حصني أمـن من عذابي " .

الاخلاص في التوحيد :

ان مجرد ان ننطق بكلمة التوحيد بنية صادقة واخلاص سيؤدي الى ان يردع الله - عز وجل - عنا قوى الاستكبار ، بل ان كل مكرهم سيتبدد لان الأمور بيد الله وحده . فالله - تعالى - لايعصى عن غلبة ، فعلينا ان لانتصور انـه لايقـدر علـى من يعصيه ، بل ان الانسان العاصي لايمكنه ان يرتكب المعصية الا بـالقدرة الـتي منحه الله اياها ، فاذا ما سلب هذه القدرة فانه سيصبح عاجـزا عن معصية ربه .

و هكذا فان علينا ان لانعتقد بألوهية احد ، وان لانخضع اليه مهما كـان قويـا ، وليكن خضوعنا لله وحده . صحيح انـه - عـز وجـل - قـد أمرنـا بإتبـاع قيـادة العلماء ، ولكننا انما نتبعهم لان الله أمرنا بذلك ، فطاعتنا لهم هي في إطار طاعـة الله ، وهكذا الحال بالنسبة الى الجهاد فيجب ان يكون في سبيل الله ، ومن اجـل اعلاء كلمته في الارض ، ودفاعا عن الدين والقيم ، ولاشك ان الجهاد من شـأنه ان يجعل القلب نقيا يرقى بالانسان الى مرتبـة الصديقـين والشـهداء والصـالحين وحسن اولئك رفيقا في الدنيا والاخرة .





الباب الرابع

واقع الشرك



الفصل الاول

رفض الشرك شرط العبادة

روي ان رجلا تشرف بالحضور بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان يدعى (حارثة ابن مالك بن النعمان) وكان من الانصار ، فلمح رسول الله (صلى الله عليه وآله) في محياه آثار الارهاق فقال له : كيف أنت يا حارثة ؟

فقال : يا رسول الله مؤمن حقا .

فقال له رسول الله : لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك ؟

فقال : يا رسول الله اعزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، واظمأت هواجري وكأني انظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني اسمع عواء اهل النار في النار .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : عبد نور الله قلبه ، ابصرت فأثبت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التوحيد هو العهد الاول :

وهكذا فان اول عهد أخذه الله - سبحانه - من البشر في عالم الذر هو الميثـاق ان لا يعبدوا الا اياه ، وقد قال - تعالى - في هذا المجال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يس/٦٠-٦٢) . فعندمـا بعث الله مـن صلب بني آدم ذريتهم أشهدهم على انفسهم فقـال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الاعـراف/١٧٢) فكـان الجـواب : ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ (الاعـراف/١٧٢) ، وهذه هي الرسالة الأولى والأخيرة لكـل رسـل الله ورسـالاته ولكـل الصـالحين في الحياة ؛ فقد جاؤوا ليعيدوا الانسان الى الجادة المستقيمة والسبيل القويم مـن بعـد ان ضل عن الطريق ، وليحرروه من عبادة الهوى والشهوات وعبادة الطغاة .

وكل ما في رسالات الله من وصايا وتعاليم وشعائر وطقوس وفرائض جـاء ليخـدم هذا الهدف العظيم ، وهذه ايضا هي الغاية السامية التي من أجلها جيء بالانسـان الى هذه الدنيا ، فقد جاء الله - تعالى - به لكـي يختـبر ، ويمتحـن مـدى صلابـة ايمانـه وثباته في عبادة الله لكي يكون من أهل الجنة . فحرام على الانسان ان يعيش سبعين عاما ثم يموت وتنتهي فرصته الوحيدة ولا يكون عابدا لله ومؤمنا حقا .

فلنتساءل : كيف نصبح مؤمنين حقيقيين ؟ ان القرآن الكريم لم يـدع زاويـة مظلمـة على صعيد الايمان ، فكل جوانب هذا الصعيد قد اضيئت بالبيان الحق ، فلقـد ذكرنـا القرآن لكي لا يقول احد انه كان غافلا ، وفي هذا المجال يقول - تعالى - :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (فُصِّلَت/٥٣) .

فالله - عز وجل - يري كل انسان آياته ، ويتجلى له في كـل لحظـة مـن لحظـات حياته ، وعند الشدائد والاخطار والخوف الشديد ونزول المصائب ولحظات المناجاة يتجلى الرب لعبده لكي لا ينكره ولكي تتم حجة الله عليه ، وحتى الانسـان المنـافق

والكافر قد يتجلى الخالق – عز وجل – له في بعض الاحيان لكي يكمل الحجة عليه كما يقول – عز من قائل – : ﴿ وَاعْلَمُوا اَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (الانفال/٢٤) ؛ اي لا يدع قلب الانسان يظلم بالكفر ويزين الشيطان له ، بل يبقى فيه بصيص نور يهديه الى الحق ، وهذا البصيص هو الحجة عليه يوم القيامة .

والسؤال المهم هنا هو : هل نستغل ذلك النور أم نكون كالذين قال عنهم – تعالى – ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ (البقرة/٢٠)

في الحقيقة ان هذه هي صفة المنافقين ، والله – جل وعلا – لم يدع جانبا خفيا في قضية الايمان ، ولكن القضية المهمة هي حجاب النفس ، فالانسان لا يحب ان يعرف الله وقلبه في هذه الدنيا محاط بوساوس الشيطان والاهواء والاغلال وبكل ما يمنع رؤيته للنور ، ولذلك فان الله – تعالى – شأنه يبين لنا اولا في قضية الايمان ان الهدف الاساس والعهد الاول بين الله وبين عبده هو عهد العبادة الخالصة .

شروط العبادة الحقيقية :

ترى بم تكتمل العبادة ؟

انها تكتمل بشروط ، والشرط المهم هو رفض الشركاء من دون الله ؛ أي ان العبادة لا يمكن ان تكتمل الا بأن يطهر الانسان قلبه من دنس الشرك ويتحداه ، وعلى سبيل المثال فعندما تحدى ابراهيم الخليل (عليه السلام) أباه قال : ﴿ يَآ أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً ﴾ (مَريم/٤٤) وفي موضع آخر قال : ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ (الانعام/٧٤) رغم ان (آزر) كان صاحب فضل ونعمة على ابراهيم ، وكان ذا سلطة ونفوذ في حكومة نمرود وحينئذ قال – تعالى – : ﴿ وَكَذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (الانعام/٧٥) .

وعلى هذا فلكي تصبح مؤمنا لابد ان تكفر بالجبت والطاغوت ، وبكل علاقة مادية لا تمت للايمان بصلة ، فقد قال ربنا - عز وجل - : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (البقرة/٢٥٦) .

بلى .. ان كثير من الناس تجدهم يتمنون لو انهم صلحوا في هذه الدنيا ، فالصلاح تدعو اليه فطرة الانسان ، فمن منا لا يريد ان يكون صادقا وفيا يعمل الخير ؟ حتى الاشرار يتمنون ذلك ، وهذه حالة متأصلة في نفس الانسان ، ولكن القليل من الناس ينجح في ذلك ، والقليل منهم يتوفاه الموت وهو يعبد الله وحده ، ويسلم أمره له .

الايمان الخالص :

والسؤال الذي يتبادر الى الأذهان في هذا المجال هو : ترى لماذا يصل القليل من الناس الى هذه الدرجة الرفيعة ، ولماذا لا يؤمن اكثرهم الا وهم مشركون ؟

الجواب بصراحة هو انهم قد ضيعوا الطريق لانهم لم يريدوا التخلص من الاغلال ، فالانسان الذي يريد الوصول الى الذروة العليا عليه ان يتحرر من الاغلال والعلاقات المادية ..

والتطلع الى بلوغ القمة الايمانية موجود لدى كل انسان ولكن الذي يمنعه علاقته المادية ، فهو يريد ان يصل الى القمة ولكنه في نفس الوقت يريد ان يحافظ على هذه الاغلال .

وبالطبع فاننا لا نستطيع ان نصل الى شيء الا من خلال التخلص من شيء آخر ، والانسان الذي احاطت بقلبه الطفيليات والجراثيم المعنوية وجثمت على نفسه الذنوب لا يمكنه ان ينطلق .

لذا يعتبر الورع عن محارم الله - تعالى - أفضل الاعمال ، والذي يدّعي انه مبرأ من الذنوب سيكتشف كم ارتكب من المحارم والذنوب كالحقد والحسد والبغضاء وأكل المال الحرام وعشرات الذنوب الاخرى التي لم يستطع التخلص منها فكيف

يدّعي انه لا ذنب له ؟!

وعلى هذا فان الخطوة الاولى في طريق العروج الى الله هي رفض الشرك ، وفي هذا المجال يقول - عز وجل - : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ (النساء/٣٦) . فاذا أنت لم تتخلص من العلائق المادية ، ولم تحرر العبادة من الشرك فانها ليست عبادة .

معنى الشرك في القرآن :

ان في القرآن اجمالا وتفصيلا ، والكلمة الثانية هي تفصيل للاجمال ، وتبيين للحقيقة الاولى ، ومن أجل ايضاح معنى الشرك يقول - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلآ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وإِلَيْهِ مَأَبِ ﴾ (الرعد/٣٦) فمعنى الشرك هو ان تدعو غير الله ، ومعنى اجتنابه ان لا تدعو غير الله ولا تعتقد ان مصيرك بيد غيره بل بيد الله واليه المصير .

والقرآن الكريم يوضح ويبين معنى الشرك ويقول ان الشرك بمعناه الحقيقي هو ما قاله البعض من ان الله - تعالى - ثالث ثلاثة وهذا معنى من معاني الشرك ، ولذلك يقول - عز وجل - : ﴿ فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ ﴾ (النساء/١٧١) لان الله واحد ، وهناك بعض الناس كانوا يقولون ان الملائكة انصاف الهة ، ولذلك فان الفلسفة اليونانية كانت تقول ان الله - سبحانه - نور - مثلا - او أي شيء من الاشياء تحرك او ولدت منه الاشياء كالنبع الذي يفيض منه المياه ، والشمس التي تنطلق منها الأشعة ..

ولمناقشة هذه النظرية نقول ان هذا الذي خرج من الله يحمل في طياته بعض الصفات الالوهية ، ولذلك قالوا ان الصادر الاول أقرب الى الله ، والصادر الثاني أقرب الى الصادر الاول وهكذا ... فاعتقدوا بعشرة عقول ، وضمن هذه الفلسفة اعتقدوا بان الملائكة صدروا قبل غيرهم من الله ، فهم - اذن - انصاف آلهة ، وهكذا

فان معنى الالهة عندهم هو الملائكة لا ذو العرش ، لان ذا العرش فوق كل شيء ، ولكن هذه الملائكة هي ايضا الهة من مثل اله القمر والشمس والارض ... ، كما ان القيم المعنوية لها ايضا الهة في فلسفتهم .

ان القرآن الكريم ينفي هذا النوع من الشرك لكي ينفي اولا ضلالة انتشرت بين البشر ، وثانيا : فهو عندما ينهى عن الشرك فانه ينهى عن حقيقة صادرة عن ضلالة وانحراف قائم .

ثم يفصل - تعالى - بعد ذلك قائلا : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ (سبأ/٤٠-٤١) ، ذلك لان الانسان الذي يرضى بعبادة شخص له فان مصيره سيكون مصير الذي يعبده ، كما يؤكد ذلك - تعالى - قائلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (الانبياء/٩٨) .

ولتوضيح فكرة العبادة علينا ان نعرف الشرك ، ونحن لا نستطيع ان نعرف الشرك الا بعد ان نعرف حقائقه على الارض ، كما قالوا ان الله ثالث ثلاثة وهذا نوع من الشرك ، ومرة عبدوا الملائكة وهذا ايضا نوع من الشرك وهكذا ..

ومن هنا لابد ان نتخذ طريقا الى كمال الدين في انفسنا ، ومعرفة حقيقة الايمان . ومن ثم الوصول الى هذه الحقيقة ، ولا ندع حياتنا تنتهي الا بعد ان نخلص عبادتنا لله - سبحانه وتعالى - .



الفصل الثاني

أثر الشرك في الواقع الاجتماعي

وراء كل آية في القرآن بصيرة نيرة حول التوحيد ورفض الشرك ، والذي يطّلع على الحقائق في القرآن الكريم يجدها تتمثل في شجرتين تقفان على طرفي نقيض ؛ هما شجرة النوحيد ذات الأصل الثابت في عمق الاعتقاد بالله - سبحانه - ووحدانيته ، وشجرة الشرك الخبيثة المجتثة من فوق الارض والتي تتفرع منها كل الرذائل فكل فضيلة وكل بصيرة حق تتفرع وتنمو من شجرة التوحيد الطيبة ، بينما يتفرع من شجرة الشرك كل ضلال وفساد وانحراف ورذيلة ، وهذا هو الشرك الذي يعبر عنه القرآن الكريم بانه ظلم عظيم ، وهو الذنب الذي لايغفره الله - تعالى - دون بقية الذنوب .

ولو تبصر المتبصر ، وتدبر المتدبر في القرآن من فاتحته الى خاتمته لايجد فيه آية الا وفيها بصيرة التوحيد ، وفي المقابل نبذ الشرك . فياترى ما هو هذا الشرك ، وهل

هو وقف على اولئك الذين صنعوا اصناما من الحجارة والخشب ثم عبدوها بالسجود والركوع والخضوع والنذر لها ؟

اذا كان الأمر كذلك فان عبادة الاوثان تكاد تكون اليوم منقرضة ، فكل من نصادفه اليوم يدعي انه موحد ومؤمن بالله ، وطبقا لهذه الادعاءات فان الآيات الداعية الى نبذ الشرك والعمل بالتوحيد تنتفي ضرورتها ، بل وربما لايبقى للقرآن من معنى ، وهذا ما يصطدم مع منطق الايمان والضرورة الدينية القاضية بالعمل بالقرآن أبدا .

ومن ذلك نستنتج انه من غير المنطقي الغاء دور القرآن في الحياة ، بل ولايمكن الغاء آية واحدة منه ، والاستغناء عن حرف صغير من حروفه ، وبناء على ذلك فما هو الشرك الذي يقصده القرآن في آياته ، وهل يشمل معناه الحقيقي بعض الذي يدعون التوحيد ام لا ؟

معنى الشرك :

من أجل اكتشاف هذا المعنى ومدى ارتباطه بنا ، نتناول بالبحث جانبا من معرفتنا لبعض المفاهيم والقيم التي يعتبرها القرآن من ضرورات الايمان ، ومن ذلك الايمان بكون الموت حقا فالغالبية العظمى منا تؤمن بواقعية الموت ، ولكننا لانعيش حقيقة هذا الايمان ، بل نتصرف في الحياة وكأن الموت قد كتب على غيرنا ، وبعبارة اخرى فاننا نعتقد بحقيقة الموت ولكننا لانعتبر انفسنا من مصاديقه ، فنحن لانعيش الوعي الدائم لحقيقة الموت بل نتصور ان هذه الحقيقة من نصيب غيرنا فحسب .

وكذلك الحال بالنسبة الى التعامل الاخلاقي ؛ فحين تتناهى الى اسماعنا المواعظ والوصايا الاخلاقية نكاد نقتنع اننا بعيدون عن الجوانب السلبية فكل ما فينا ايجابي ؛ فنحن صادقون لا نكذب وأمناء لا نخون واوفياء لانخلف .. وهكذا ! فكل واحد منا يحاول تزكية نفسه ما أمكنه ، فيتصور انه ليس بحاجة الى توجيه وارشاد وتعليم بل

ان الآخرون هم الذين يحتاجون الى ذلك ، ومثل هذه التصورات الخاطئة هي التي تصرفنا عن التوجه الاخلاقي والتربوي والسلوكي ، وعدم الاهتمام بتربية انفسنا على التقوى وترسيخ الايمان ؛ في حين ان فهمنا لانفسنا يجب ان يكون على عكس ما نتصور ، وهو ان ننظر الى الآخرين على انهم أناس طيبون ، واذا كان هناك نقص او عيب ففينا ، فنحن الذين نحتاج الى ان نصبح أناسا طيبين صالحين .

وعلى هذا فلنستوعب الحقائق ونتفاعل معها من أجل تربية انفسنا ، ولتكن نصيحة الناصح وارشاد المرشد موجهين لي قبل ان يوجها غيير ، وفي هذا المجال يروى الامام الحسن المجتبى (عليه السلام) انه قال : " احمل نفسك لنفسك فان لم تفعل لم يحملك غيرك "[1] ، فلابد - اذن - ان نتوجه الى انفسنا اولا ، ونفكر في مصيرنا .

والقرآن عندما يحدثنا عن الشرك في التأريخ ، وما تبعه من ويلات على البشرية ، فيجب ان لايتبادر الى اذهاننا ان هذا الكلام موجه خصيصا الى اولئك الذين سبقونا ، وان ليس لكلامه هذا علاقة بنا ، بل ان القرآن موجه لنا بالدرجة الاولى ، لاصلاح انفسنا ، وعلى هذا فلابد ان يكون للشرك الذي يحذّر منه القرآن أشد التحذير علاقة باوضاعنا الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، فما معنى هذا الشرك وماهي أبعاده ؟

اذا استوحينا المعاني الدقيقة لمفهوم الشرك من نفس الآيات القرآنية ، ومن المأثور عن اهل البيت (عليه السلام) اكتشفنا ان معناه الحقيقي يتمثل في تقديس غير الله بغير الله - تعالى - فحين يقدس الانسان شيئا او شخصية غبر الله ، فان كان هذا التقديس والاكرام والتعظيم لأجل ما لهذا الشيء او الشخص من علاقة وثيقة ، او كرامة عند الله فلا بأس بهذا التقديس والأكرام ، فنحن المسلمين عندما نقدس ونكرم نبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله) فلكونه عبد الله ورسوله ، فهو - اذن - ينتمي الى الله ، اما اذا كان هذا التكريم والتقديس نابعين من الاعتقاد بانه يمتلك قداسة ذاتية في نفسه ، فهذا هو الشرك الذي نعنيه .

---

(١) فروع الكافي ج٢ ص ٤٥٤

ولعل مشكلة أهل الكتاب من النصارى انهم عظموا نبيهم عيسى بن مريم (عليه السلام) وقدسوه تقديسا ذاتيا ؛ اي لذاته لا لذات الله - سبحانه - فوقعوا في حبائل الشرك عندما اعتقدوا بـ (التثليث) ، اذ انهم يعتبرون المسيح (عليه السلام) إلها بذاته يمتلك القوة والقدرة ، في حين ان اول كلمة نطق بها هذا النبي الكريم وهو في المهد قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ (مَريم/٣٠) ، فلم يقل (عليه السلام) : اني جزء من الله او أبن الله ، كما تدعي المسيحية المنحرفة .

حقيقة الشرك :

ونحن حينما نحمد الله ونشكره مطمئنين انفسنا اننا لسنا من المشركين ، هل وعينا حقيقة عدم الاشراك بالله فلم ندع الشرك ينفذ الى اعمالنا وسلوكنا واخلاقنا وعلاقاتنا الاجتماعية ، فعندما اقدّس قومي او حزبي او طائفتي فهل نحرص على ان لايتجاوز التقديس هذا تعاليم الاسلام فيدخل في نطاق الشرك ؟

فأنت كأنسان تنتمي الى بلد معين لاينبغي لك ان تجد في نفسك الافضلية على الغير فتتحدث بطريقة تنفي بها دور الآخرين او تقدم نفسك عليهم وكأن الله - عز وجل - قد أكرمك لوحدك ولم يكرّم الآخرين ، فمثل هذا النمط من التفكير نمط اسرائيلي ؛ فالاسرائيليون يحسبون أنفسهم شعب الله المختار واما باقي الأمم فهم دونهم ، وقد شجب القرآن هذا النمط الضال من التفكير ، وكذلك السنة المطهرة في احاديث كثيرة معروفة كقول النبي (صلى الله عليه وآله) : " من تعصب او تعصب له فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه [١] " ، فينبغي على العاملين الرساليين ان يحذروا العصبية من ناحيتين :

١- ان لايتعصبوا لانفسهم لكونهم من البلد الفلاني او القومية الفلانية ...

٢ - ان لايفسحوا المجال لمن يزين لهم الروح العصبية كأن يلتف حولهم لكونهم

---

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ٢٩١ رواية ١٦

من البلد الفلاني او القوم الفلانيين ، فهذا مدعاة للخطر والانحراف .

ان البعض من الناس – وللأسف – يعيش حالة تقديس الأسماء والشعارات والاحزاب ، فيعتبر – على سبيل المثال – حزبه حزبا مقدسا ، فهو ليس مستعدا لأن يناقشك حول مبادئ حزبه ومنهجيته ، ولايريد ان يفتح لك قلبا او عقلا ، بل ولايصغي لك عندما تناقشه في حزبه ، وهذا هو التعصب الذي هو ضرب من ضروب الشرك بالله – سبحانه – ، ذلك لان القيمة والمقياس الاساسيين يتمثلان في الله – عز وجل – ، فهو الخالق وهو الملك المقتدر الرزاق والمدبر ، اما ان نتخذ شيئا ما ونجعله مقياسا فهذا مالايجوز .

ومن هنا يتبين ان الشرك لايعني السجود والركوع لغير الله فحسب بل يشمل ايضا الاقتداء والاتباع ، ولذلك جاء في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللّهِ** ﴾ (التوبة/٣١) انهم لم يكونوا قد سجدوا وركعوا لهم بل اتبعوهم فيما حللوا وحرموا وأمروا ونهوا ، فكان عملهم هذا بمثابة التعبد للأحبار والرهبان .

اتباع القول الأحسن :

وعلى هذا ينبغي التقصي في كلام المتحدث ، والتحقق من كون مصدر حديثه مصدرا الهيا كما يقول – تعالى – : ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (الزُّمر/١٧-١٨) ، فالانسان المؤمن يصغي لما يتبادر الى سمعه من كلام ، ولكنه يجعل ما سمعه واصغى اليه امام عقله وفكره ؛ اي انه يسمع في طاعة الله ثم يختار وينتخب بالكيفية السليمة التي فيها رضا الله ورسوله ؛ اي وفق ميزان التقوى ، وهذا هو إتباع أحسن القول فالمؤمن لايتعصب لزعامته وقيادته الحزبية بأن يسد أذنيه عندما تنتقد قيادته او تناقشه فيها .

وهكذا فان التقديس لغير الله هو الشرك بعينه ، وهو لايقتصر على الاشخاص او الجماعات او الشعارات الرنانة والاهداف الضالة بل قد يتعدى الى تقديس الارض او اللغة او العنصر ... ؛ فالبعض قد يرى ان لتربة وطنه قدسية خاصة في حين ان ليس هناك أرض مقدسة لذاتها ، فالارض واحدة وكلها لله ، وفي ذلك يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) : .. " جعلت لي الارض مسجدا طهورا .. [1] " ، وان المتتبع لتأريخ الصراعات والحروب في العالم يجد ان أغلبها وقع بسبب تقديس الارض لذاتها ، وتقديس الاعلام والرايات التي يرفعونها عليها ، في حين ان تقديس العلم واعتباره شرفا انما هو بدعة من بدع الاستعمار التي جاء بها لغرض تمزيق وحدة الشعوب والأمم على الارض ، فالشرف والقدسية لله - تعالى - ولمن كان من أهله . عظمتهم .

ولعل الثمرة الاولى لنبذ الشرك والعمل بالتوحيد تحقيق وحدة الانسان ؛ اي توحيد صفوف الناس شعوبا وقبائل ، وهدم تلك الجدران والحواجز التي أقامها اتباع الشيطان بين الناس من أجل تحقيق اطماحهم ومصالحهم ، والوحدة هذه لاتتكون ولاتنمو الا بالحب والوئام والتعاون والتضحية والايثار ، وبذلك تغدو الحياة روضة من رياض الجنة ترفل بالسعادة والمحبة والطمأنينة والخير .

وعلى هذا فان احترام الارض وتكريم الاشخاص وتعظيم الحزب والانتماء كل ذلك ينبغي ان لايكون على حساب القيم الالهية ، وعلى حساب الاضرار بالاخرين ، وعندما اهتم ببلادي فلا يكن هذا الاهتمام على حساب البلدان والاوطان الاخرى .

هدف الاسلام انقاذ البشرية :

ان هدف الاسلام هو ان يجعل هذا العالم الذي يعاني الويلات والآلام والجراح ينعم بالهدوء والاستقرار والعيش الهنيء ، فسفينة الاسلام والقرآن تريد انقاذ الشعوب

---

(١) بحار الانوار ج ٨ ص ٣٨ رواية ١٧

والأمم من لجة هذا البحر الهائج المتلاطم بالمعاناة والآلام والحروب الطاحنة ، والرسو بها على بر الأمان والطمأنينة في ظل حياة حرة كريمة كما تشير الى ذلك الآيات القرآنية التالية من سورة الشورى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشّورى/٦-٧)

وقال - تعالى - في نفس السورة ايضا : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشّورى/١٣) .

ويظهر ان الهدف من نزول هذه السورة المباركة تنظيم العلاقة بين الناس ، وتحديد أطر هذه العلاقة حسب النظرة التوحيدية حيث يقول - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ ، وهم الذين يظهرون الولاء والتأييد لاشخاصهم وذواتهم ، فهؤلاء مردود عليهم ولاؤهم ، ولايقبل الله منهم شيئا .

وفي سياق آخر من سورة الشورى يقول - تعالى - : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ، فنفس المفاهيم والقيم التي أوصى الله - سبحانه - بها نوحا (عليه السلام) أوصى بها ايضا محمد (صلى الله عليه وآله) ، فدين الله واحد لايتأثر بالمتغيرات الزمانية والمكانية ، ولا علاقة له بالعنصر والدم واللون واللغة ، فالصلاة واحدة والكعبة واحدة ، وكذلك الاحكام والتشريعات ، فالوصاياوالتشريعات

التي نزلت على نوح والأنبياء الاخرين (عليه السلام) من اولي العزم هي ذاتها التي نزلت على نبينا خاتم الانبياء والرسل (صلى الله عليه وآله) ، وامتدت عبره الى الائمة (عليه السلام) ثم بلغت فقهاءنا ومراجعنا اليوم ، فالدين واحد لا اختلاف ولا تفريق فيه .

ثم يأتي السياق ليعكس موقف المشركين من الدعوة الى الله فيقول – تعالى – : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ ، وهذا القول المبارك يعزز حقيقة ان التفرق هو ضرب من ضروب الشرك ، فينبغي الحذر منه ، والتمسك بالله وحده .

ان مشكلتنا الرئيسية اليوم هي تفرقنا وتمزق صفوفنا ، ومن هذه التفرقة تتفرع سائر مشاكلنا وويلاتنا ، وعدم علاج هذه المشكلة يعني بقاء واستفحال المعضلات الاخرى التي نعيشها ، ونحن ندعو في هذه المرحلة التي نمر بها الى تكاتف كل الايدي ، وبذل كل الطاقات والتوجهات في مسيرة واحدة ، وليعمل كل منا ضمن استراتيجية عامة موحدة تشمل الجميع ، وتنتهي الى تحرير بلادنا الاسلامية وتكريس كلمة الحق والعدل والحرية باذن الله – تعالى – .



الاستكبار افراز الشرك بالله

ان القرآن الكريم هو جملة من المواعظ تتلخص في كلمة واحـدة هـي (لا الـه الا الله) ، وهذه الكلمة تتسع لتدخل في كل جزء من اجزاء هذا العالم ، وفي كـل حقـل من حقول الحياة ، ولتخلق في كل مجال من مجالاتها حكمة وتشريعا .

والآيات التالية هي الآيات الاخيرة مـن سورة القصص ، وهي تحدثنا عـن حقـل من حقول تطبيق تلك الكلمة الالهية ؛ اي كلمة التوحيد ، فلنقرء هذه الآيات معا :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ * وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً

ءَاخَرَ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القَصَص/٨٥-٨٨)

الصراع بين المستضعفين والمستكبرين :

القرآن الحكيم هنا يحدثنا عن الصراع الذي ينشب عادة بين المستضعفين والمستكبرين ، وهذا الصراع لايتم بشكل واحد بل يتجسد في كل فترة من فترات التأريخ بصورة تختلف في ظاهرها عن الصور الاخرى ، ولكنها تعود بالتالي الى ذلك الصراع الابدي بين الخير والشر ، وبين كلمة التوحيد والخضوع لضغط الشرك .

ان الصراع قد يكون بين مجموعة عرقية مستكبرة وبين اكثرية عرقية مستضعفة او بين مجموعة عرقية اخرى مستضعفة ، وقد يكون بين مجموعة تشكلت في صورة تكتل اقتصادي يستضعف الاكثرية المسحوقة ، وقد يكون بصورة قوم يستضعفون قوما آخرين ، او بلد يستضعف بلدا آخر ، وقد يتجسد في عشيرة تستضعف أمة ، اوشخص واحد يستضعف مجتمعه .

الغفلة جوهر الصراع :

وهكذا فان الصور مختلفة ولكن الجوهر واحد وهو غفلة المستكبر عن ان القدرة النهائية المطلقة ، والقضاء الحاسم في هذا الكون انما هما لله رب العالمين ، وان ليس لأي من الطغاة من قدرة خارج إطار القدرة الالهية ، والهيمنة الربانية على هذا الكون .

ان الغفلة من جهة المستكبر ، والغفلة من جهة المستضعف هما اللذان يساهمان في خلق حالة الاستضعاف والاستكبار ، فأولئك الذين نسوا الله - عز وجل - فأنساهم انفسهم ، واولئك المستضعفون الذين لم يعرفوا ان في الحياة مراغم كثيرة

واسعة باستطاعتهم ان يهاجروا اليها ، ويجسدوا مجتمع الحرية في أي ارض تحملهم وفي أي بلد يسكنونه ، هؤلاء هم الذين يستضعفون من قبل المستكبرين .

ومثل هؤلاء يخاطبهم رب العزة قائلا : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (النساء/٩٧) ، فلماذا استضعفتم ، ولماذا لم تهاجروا في حين أن أبسط وسائل الدفاع عن النفس هي الهجرة ، وافضل البلاد ما حملتك ، وخير الناس من استضافوك ، فتسمّرك في ارضك ، وعبادتك لها هما اللذان يجعلانك مستغلا ومستضعفا وغافلا عن قدرة هائلة تمتلكها الا وهي قدرة التوكل على الله - سبحانه وتعالى - .

التوكل امضى سلاح :

ان الانسان اذا امتلك سلاح التوكل على الله فانه سيمتلك كل شيء ، لان الخالق قد اودع في ذاته آفاقا رحيبة واسعة يستطيع ان يتوغل فيها ، ويفجر طاقاته الهائلة من خلالها ، اما اذا غفل عن هذا السلاح فانه سوف يكون عرضة للاستضعاف والظلم ، ولذلك نجد القرآن الكريم يركز على هذه الغفلة وتلك ، فمرة يخاطب - تعالى - موسى وأخاه قائلا لهما : ﴿ اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه/٤٣-٤٤) ، فما كان منهما (عليه السلام) الا ان أتيا الى قصر فرعون معلنين له انه ليس بإله ، محاولين من خلال ذلك ان يغيرا مسار الحياة من خلال تغيير هذا الانسان الفاسد المفسد المستكبر فهو - مهما يكن من شيء - بشر يحب الله - تعالى - بحكم لطفه ورحمته ان يكون من اهل الجنة .

الاستضعاف نوع من الشرك :

ومع ذلك فان خطاب الله موجه بالدرجة الاولى الى المستضعفين ، والملاحظ ان القرآن الكريم يخاطب الذين يستضعفون ويخضعون للآخرين من دون تفكير

يخاطبهم بانهم مشركون الى درجة اننا اذا قرأنا في القرآن حديثا عن الشرك فعلينا ان نطبقه على واقعنا ، وعلى واقع المجتمع الانساني الذي نعيش فيه ، فهناك آلاف الملايين من البشر فوق هذا الكوكب يدّعون انهم يعبدون الله في حين ان الانظمة والشبكات الاستكبارية والفسق والظلم المتزايد كل ذلك هو المسيطر عليهم ، والا فلمّاذا هذا الرعب والخوف من الاسلحة ، ولماذا هذه الترسانات المليئة بالاسلحة المدمرة ؟

ان هناك الملايين من البشر لايعبدون الله الا وهم مشركون به ، وخاضعون لسلطان المادة ولاستكبار الاقتصاد ، فالنظام الحاكم لهذا العالم هو نظام رأسمالي يستخدم خيرة العقول التي تعمل على تحطيم البشرية .

ان هذا النظام انما هو قائم بسبب الشرك ، واول عمل لابد ان يقوم به المسلمون اينما كانوا ان يخرجوا من إطار هيمنة الاستكبار من خلال اطروحة جديدة يحاولون عبرها تحطيم هذه الهيمنة .

لابد للشعوب من تحطيم الاصنام :

ان الشعوب المسلمة في الارض لابد ان تقول كلمتها ، وان تعلن بصراحة وجرأة انها لاتعبد هذه الاصنام ، فالاصنام مرفوضة في الاسلام جملة وتفصيلا ، وهذا لايعني محاربة النظام من داخله بل محاربته من خارجه ، او بتعبير آخر : محاربة النظام ككل ، ومحاولة تطهير الارض من رجس الكفر والشرك ، وعدم التعاون معهما بأي حال من الاحوال كما يشير الى ذلك قوله - تعالى - في نهاية سورة القصص : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ (القَصَص/٨٦)

وقوله : ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (القَصَص/٨٧)

فلابد من ان نقاوم الشرك كله .

وبكلمة ؛ ان القضية الاساسية هي قضية الشرك والايمان ، ونحن اذا خضعنا لمعادلة الشرك فان الاقليات سواء كانت عرقية أم اقتصادية وما الى ذلك سوف تأتي لتسيطر على العالم - كما هو الحال الآن - ، وتكون هناك مشاكل الشمال والجنوب ، ومشاكل التكنلوجيا والهوة الشاسعة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة ، ومشاكل الازمات والانهيارات الاقتصادية في العالم .

من هنا لابد ان يتّحد المسلمون ، وان يبذلوا قصارا جهودهم ، وان يعملوا معا من أجل محاربة الشبكة الاستكبارية المهيمنة على العالم ، شبكة الشيطان ، والفسق ، والفجور ، والرذيلة ، والتكبر على الخالق - عز وجل - ، والشرك به .

ومثل هذا الاتحاد لايمكن الا بالاعتماد على الله - سبحانه وتعالى - ، والتوكل عليه ، والثقة بنصره ، واخلاص العبادة له ، وتوحيد المساعي والجهود تحت رايته ، والاعتصام بحبله المتين .



الفصل الرابع

الشرك مصدر التبرير

الانسان مسؤول ، وهذه هي ابرز سماته سواء شاءت الفلسفات المادية أم ابت ، ولكن الصفة السلبية التي تحول بين الانسان وبين ادائه لمسؤولياته هي صفة (التبرير) او تسويلات النفس الامارة بالسوء .

ولو استطاع الانسان ان يقضي على حجاب التبرير وان يتحمل مسؤولياته ، لتمكن من ان يؤدي الامانة التي حُمّل اياها ، هذه الامانة التي اشفقت السماوات والارض والجبال من حملها .

وهنالك البعض ممن يبرر عدم تحمله لمسؤولياته بانه عاجز عن تحملها ، والبعض الآخر يبرر ذلك بصغر المسؤولية والاستهانة بها ، وفي هذا المجال تروى قصة طريفة تقول ان رجلا قيل له ان الفساد قد انتشر في البلد فقال : سحابة صيف سوف

تنقشع عما قريب ، فلما قيل له ان الفساد قد انتشر فعلا ، وانه قد استحكم في البلد قال مبررا عدم قدرته على ازالة هذا الفساد : اتسع الخرق على الراقع .

ان الحقيقة واحدة سواء كان الأمر سحابة صيف- تنقشع عن قريب ، او كان خرقا اتسع على الراقع ، وهذه الحقيقة هي التبرير ؛ فأنت كثيرا ماتدعو انسانا آخر الى عمل ما فيقول لك انه عاجز عن القيام به ، وبمجرد ان يثبت له انه قادر عليه يقول لك : انا فوق مستوى هذا العمل ، فاذا به يستكبر على العمل الصالح ويستصغره .

ونحن معّرضون الى هذا النوع من التبرير ، بل اننا متوغلون فيه وهو محيط بنا ، وعلينا ان نخرق هذا الحصار ، ونقاوم هذه الحلقة التي تلتف على انفسنا ولاتدعنا ندرك الاشياء على حقيقتها ، وننطلق في مجالات العمل الرحبة ، ولكن للأسف فان الكثير منا منهمك في هذه التبريرات دون ان يشعر .

مسؤولية الانبياء الكبرى :

ترى كيف نستطيع اسقاط قناع التبرير المزيف ، وكيف نتخلص من هذه الحالة المرضية ؟

قبل ان أجيب على هذا التساؤل- أمهد له بمقدمة ضرورية وهي ان من مسؤوليات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عبر التأريخ ، ومن أعظم ألوان جهادهم هو الجهاد ضد الاصنام ، فالأنبياء جميعا - حسب ما اكتشفت من تفسير الآيات القرآنية - قد عارضوا وقاوموا مشكلة وآفة (الصنمية) لدى الانسان ، حتى الأنبياء الذين بعثوا الى المؤمنين بالديانات السابقة ، وعلى سبيل المثال فان النبي موسى (عليه السلام) بعد ان انقذ قومه من ظلم فرعون ، وبعد ان عبر بهم البحر ، طلبوا منه ان يجعل لهم آلهة كما للمصريين آلهة ، وبالفعل فقد اختاروا لانفسهم صنما صنعه لهم السامري وعبدوه من دون الله - تعالى - ، فما كان من موسى (عليه السلام) الا ان أنهال عليهم باللوم والتقريع وأمرهم بوحي من الله ان يقتل بعضهم بعضا تكفيرا عن هذه الخطيئة الكبيرة

والرجس العظيم .

والنبي (صلى الله عليه وآله) كانت مسؤوليته الاولى محاربة الاصنام وتحطيمها ، وتطهير مكة المكرمة من رجسها .

ترى لماذا كان اول واجبات الأنبياء ومسؤولياتهم وأهم لون من ألوان جهادهم هو الجهاد ضد الاصنام ، وماذا كانت تعني هذه الاصنام ؟

ان كل صنم كان يعبد من دون الله كان هنالك صنم آخر يوازيه في نفوس البشر ، ومن خلال اسقاط كل صنم خارجي كانت تسقط في الداخل اصنام نفسية ، وبعبارة اخرى ؛ فان القلوب التي أشربت حب الاصنام لم يكن بمستطاعها ان تعبد الله عبادة خالصة وهي مدنسة برجس عبادة الاصنام .

التبرير نتاج الصنمية :

ان عبادة الاصنام تعني بالنسبة الى المشركين المزيد من التبرير ، لانهم كانوا يقدّمون الذبائح والقرابين الى هذه الآلهة المزيفة ، ويمارسون كل انواع الفساد معتقدين ان هذه الاصنام سوف تنجيهم من نار جهنم ، فكان الواحد منهم يقوم بظلم الآخرين ، وارتكاب الجرائم ضدهم ثم يأتي ويخضع لقطعة من الحجر معتقدا ان عمله هذا سوف يؤدي الى غفران ذنوبه تلك .

ترى كيف يمكن إشاعة العدالة في المجتمع في حين ان الاصنام منتشرة فيه وفي نفوس افراده ؟

ان تلك التبريرات التي اختلقت على اساس الصنمية كانت تسقط بازائها مجموعة من القيم لتحل محلها مجموعة تبريرات نفسية ، والمشكلة ان هذه التبريرات كانت - حسب الظاهر - تمتلك الشرعية الاجتماعية والثقافية .

ان مقاومة الصنم هي مقاومة التبرير ، والثقافة المنحرفة ، والضلالة المشروعة اجتماعيا ، وفي هذا المجال يروى ان قوما من المشركين جاؤوا الى رسول الله

(صلى الله عليه وآله) وأبدوا له استعدادهم للدخول في الاسلام شريطة أن يدعهم يعبدون صنما من الاصنام ، فما كان منه (صلى الله عليه وآله) الا ان رفض هذا العرض بشكل قاطع ، وكلفه هذا حربا طويلة ، وحصارا للمدينة من قبل أهل الطائف حتى استطاع أخيرا ان يخضعهم للاسلام ، فلم يكن من الممكن ان يعبد هؤلاء الاصنام ثم يجاهدوا في سبيل الله - سبحانه وتعالى - لان الجهاد يعني الشهادة والتضحية .

سر حضارة الاسلام :

ان اسقاط الاصنام في الجزيرة العربية هو الذي مكن اهلها من التحول من أمة خاملة مشتتة متناحرة الى مجتمع متحضر قادر على حمل الرسالة الى الآفاق ، لان الاصنام سقطت لتسقط معها اساطيرها وخرافاتها وتبريراتها .

وهكذا فاذا كانت الاصنام موجودة في مجتمع من المجتمعات فاننا لانستطيع ان نحارب التبريرات فيه ، لان هذه الاصنام تعطي لهذه التبريرات شرعية ، وقيمة اجتماعية وثقافية .

وبناء على ذلك فان أعظم إنجاز قام به الأنبياء (عليه السلام) هو مبادرتهم الى انقاذ البشرية من الاصنام ، وتخليصها من سلسلة متكاملة ومتداخلة من الخرافات والاساطير والافكار المتخلفة المضادة للحضارة والتقدم والعطاء .

رواسب الصنمية مازالت قائمة :

وللأسف الشديد فان رواسب الاصنام ماتزال موجودة في النفوس ، وعلى سبيل المثال فان بني اسرائيل بعد ان كفوا عن عبادة العجل بدؤوا باختلاق الاعذار والتبريرات عندما أمرهم موسى (عليه السلام) بأن يذبحوا بقرة ، فأخذوا يطرحون الاستفسارات التي لامبرر لها من مثل سؤالهم عن لون البقرة ونوعها وما الى ذلك من تبريرات تافهة لا اساس لها ، وكادوا ان لاينفذوا الأمر الالهي بذبح البقرة لولا ان

موسى (عليه السلام) أصر عليهم في ان يذبحوها .

ومن خلال تساؤلاتهم تلك كانوا يكشفون عن حالة نفسية هي حالة الالتفاف على القرار ، ومحاولة التملص من تنفيذ الأوامر من خلال مناقشتها ، فهناك الكثير من الناس عندما تأمرهم بشيء تبدأ عندهم المناقشات التي لاتنتهي ، ذلك لان الانسان يمتلك القدرة على الكذب والتهرب من المسؤولية .

ولقد كان اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) يمثلون القدوات العليا في الامتثال للأوامر والمبادرة الى تنفيذها دون مناقشة ودون اختلاق للاعذار والتبريرات ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يتلو عليهم نصف الآية التي تنزل عليه ، وما ان يتناهى الى اسماعهم الأمر الذي تتضمنه هذه الآية حتى يقوموا لينطلقوا الى العمل والجهاد ، ثم يعودون ليستمعوا الى النصف الثاني من الآية ، وهكذا فقد كانوا لاينتظرون نهاية الآية لان اصنام التبرير في انفسهم قد تساقطت الواحد تلو الآخر ، ولانهم آمنوا بكلمة (لا اله الا الله) فلا تبرير ولا خضوع ولا تسليم الا لله - سبحانه وتعالى - .

واذا ما وجدنا انفسنا ماتزال في حالة اختلاق التبريرات فلابد ان نعلم ان رواسب الصنمية ماتزال موجودة في اعماق انفسنا .

القرآن يعالج ظاهرة ألتبرير :

والآيات التالية من سورة الاعراف تتحدث عن الانسان وما يعتريه من حالات مختلفة من التبريرات والتسويلات والوساوس الشيطانية ، حيث يقول ربنا - عز وجل - : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ اَن لاَيَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَنُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَآءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الاعراف/١٦٨-١٧٤)

ان هذه الآيات المباركات تحدثنا عن عالم الذر الذي أسقط فيه الله - تعالى - عن الانسان حججه التبريرية ، وأثبت له حاكميته وقدرته وإلوهيته لكي يسلب منه التبريرات عندما يدخل عالم الدنيا .

ان القرآن الكريم يقول - والحديث يدور حول بني اسرائيل - ان جيلا قد ظهر بعد الجيل الاول من بني اسرائيل وهو جيل التبرير والتسويلات : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ فلقد ورث هذا الجيل الكتاب بما يحمل من نور وبصائر وشعلة تحرق التبريرات ، ولكن هذا الجيل لم ينتفع بنور هذا الكتاب ، فاذا بهم ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهذا هو اول تبرير اختلقوه .-

ذنب لاغفران له :

ان الله - جل وعلا - يغفر بعض الذنوب ولكن هناك ذنوبا لايغفرها ، فماهي تلك الذنوب التي لايغفرها ؟

من ضمن تلك الذنوب الذنب الذي يستصغره ويستهين به صاحبه ، ويسوف التوبة منه كأن يغتاب أخاه المؤمن ثم يقول بعد ذلك " لاجعلها الله غيبة عليه !! وكأن هذه العبارة ستطهره من هذا الذنب ، او أن يكذب كذبة ثم يصفها بعد ذلك قائلا انها كذبة

بيضاء في حين ان الكذب كلمه أسود او ان يحتقر الانسان الأخرين وهو لايعلـم انـه في الحقيقة يحتقر نفسه كما قال - تعالى - : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِن نِسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ (الحُجُرات/١١)

فلماذا احتقار الآخرين ؟ ان الذي يحتقر انسانا مؤمنـا فانمـا يحتقـر نفسـه ، ومـن يستهزئ به فانما يستهزئ بقيمه ، فالمؤمن هو مؤمن سواء كان من لونك أم مـن لـون آخر ، وسواء كان من وطنك أم من وطن آخر ، وسواء كان غنيا او فقيرا .

وهكذا تنشأ الخطايا الكبيرة من الذنوب الصغيرة التي نستهين بهـا ، واذا مـا اردت ان تكون مثالا للعبد الصالح المطيع لربه فعليك ان لاتتحدى سلطان ربـك ، ولاتغـتر بنفسك فتذنب وتقول سيغفر لي ربي ، فمن يقول انه سيغفر لك ؟

وقد اشـار - تعالى - الى هـذا التـبرير في قولـه علـى لسـان الاشـخاص الذيـن يحملون الثقافة التبريرية : ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، وهذا هو التـبرير الاول الـذي تصدر منه سائر التبريرات .

ومثل هؤلاء يدورون مع الدنيا حيثما دارت ، ويبررون ممارساتهم المغلوطة ببعض التبريرات الواهية ، والقرآن الكريـم يخـاطبهم قـائلا : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَيَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ ، فلمـاذا يجعلـون افكارهم الباطلة هي المقياس ، ولايتخذون من القرآن ميزانا بينهم وبين اعمالهم ؟

ان المشكلة الرئيسية التي يعاني منهـا الانسـان هـي حـب الدنيـا ، واذا مـا اراد ان يتخلص من مرض التبرير فما عليه الا ان يقتلع هذا الحب من نفسه ، وسـيرى كيـف ان التبريرات ستتساقط الواحدة تلو الاخرى ، لان حب الدنيا رأس كل خطيئـة كمـا جاء في الحديث الشريف .

ان الاناس التبريريين يتصورون ان الله - تبارك وتعالى - سيغفر لهم لأنهم يريدون عرض الادنى ، اما اذا ارادوا الدار الآخرة فانهم سوف يكفون عن هـذه التـبريرات ،

والله – سبحانه وتعالى – يخاطبهم قائلا : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ ، لماذا لا تنتفعـون مـن عقولكم هذه الموهبة التي منحها الله – تعالى – للانسان ؟

ثم يستأنف السياق الكريم قائلا: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَـابِ وَأَقَـامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَنُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وهـذا يعـني ان علـى الانسـان المسلم ان يتمسـك بالكتاب بقوة كما قال – تعـالى – مخاطبـا نبيـه الكريـم يحيـى : ﴿ يَا يَحْيَى خُـذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مَريم/١٢) ، وكلمــة المصلحـين هنـا تـأتي في مقـابل المفسـدين . فالتبرير هـو الـذي يفسـد الانسـان وعندمـا يفسـد الانسـان فانـه يعمــد الى إفسـاد الآخريـن .

ويستمر السياق القرآني ليستعرض لنا تبريرات اخرى من تلك التبريرات التي كـان بنو اسرائيل لايكفون لحظة واحدة عن اختلاقها : ﴿ وإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَـلَ فَوْقَهُـمْ كَأَنَّـهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّـوا أَنَّـهُ وَاقِـعٌ بِهِـمْ خُـذُوا مَآءَاتَيْنَـاكُم بِقُـوَّةٍ وَاذْكُـرُوا مَـا فِيـهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وهذه هي معجزة اخرى انزلها الله – تعالى – علــى بـني اسـرئيل بسـبب كثرة تبريراتهم ، وكثرة التفافهم حـول القـرارات الرسـالية ، فقـد نتـق الله – سـبحانه وتعالى – قطعة من الجبل ، وجعلها فوق رؤوسهم وكأنها سحابة ســوداء ، ثـم طلـب منهم ان يأخذوا ما آتاهم بقوة ، وان لايكونوا ضعفاء الايمان ، ولايختلقوا التـبريرات ، ولايناقشوا القرارات الالهية .

ثم يعود القـرآن الكريم ليبيـن تـبرير الانسان على طـول الخط فيقـول – عـز من قائل – : ﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِـي ءَادَمَ مِـن ظُهُورِهِـمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَـى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّـا كُنَّـا عَـنْ هَـذَا غَافِلِينَ ﴾ ، فمن الممكن ان يأتي يوم يبرر فيه الانسان اعماله ، ولذلك فقد القــى الله – عز وجل – الحجة عليه .

وهكـذا فان التبريـر الاول الذي تعرضه علينا الآيات الكريمة السابقة هو الاعتقاد

الباطل للانسان المشرك بأن الله – سبحانه وتعالى – سيغفر له رغم الذنوب التي يرتكبها ، والخطايا التي تصدر منه والتي يقف الشرك في مقدمتها ، اما التبرير الثاني فيتمثل في الغفلة ، هذه الغفلة التي لايستطيع الانسان بأي حال من الاحوال ان يبررها عندما يمثل للحساب امام رب العالمين .

وللأسف فان الانسان لايغفل عن الامور الدنيوية . الى درجة انك تراه حريصا على انجازها في اوقاتها ومهتما في التمهيد لها ، ولكنه في المقابل يغفل عادة عن اداء الواجبات التي فرضها الله – تعالى – عليه من مثل اداء الصلوات في اوقاتها وانجاز ما عليه من حقوق تجاه الآخرين والقيام بالاعمال الصالحة ، وهذه الحالة السلبيلة ناجمة بالدرجة الأولى من صفة التبرير السلبية المزروعة في نفس الانسان البعيد عن ذكر الله – سبحانه وتعالى – .

فلنحاول ان ننقذ انفسنا من هذه الحالة المرضيّة التي من الممكن ان تؤدي الى سوء العاقبة – والعياذ بالله – ، ولنسع من أجل ان نفك انفسنا من قيود واغلال التبرير لكي نستطيع ان نضمن سعادتنا في الدنيا والآخرة .



الشرك هروب من المسؤولية

كثيرة هي الصفات التي أمرنا بالتحلي بها ، وكثيرة هي المسؤليات التي القيت على كواهلنا ، وكثيرة هي الصفات الرذيلة التي نهينا عنها وأمرنا ان نتجنبها ، ولكن الحسنات تجمعها كلمة واحدة ، والسيئات - هي الاخرى - تجتمع في كلمة واحدة .

ولو ان الانسان عرف هاتين الكلمتين اللتين تجمع واحدة منهما الحسنات والاخرى السيئات ، ولو عرف كيف يتعامل مع محتواهما لاستطاع ان يشق الطريق نحو الرقي والسعادة والفلاح في الدنيا والاخرة .

ان اولئك الذين تجدهم لايستطيعون ان يكتملوا ويعرجوا بانفسهم في مدارج الكمال ، فان السبب في ذلك يعود الى انهم لايعرفون اين مفتاح السعادة ، ويجهلون

كلمة السر للدخول في رحاب الفلاح .

ان كلمة الحسنات تتلخص في التوحيد ، وكلمة السيئات تختزل في الشرك بالله - سبحانه وتعالى - ، ونحن عندما نتدبر في آيات الذكر الحكيم نجد ان الله يأمرنا بالتوحيد كلما أمرنا بحسنة ، وينهانا عن الشرك كلما نهانا عن رذيلة ، وحديث القرآن لايخرج عن هذا الاطار ؛ اطار التوحيد وعبادة الله .

وفي مجموعة من الآيات في سورة الاسراء التي تحدثنا بدورها عن مسؤولية الانسان امام نفسه وامام الله - عز وجل - وامام التأريخ ، يأمرنا الخالق ان تكون عيوننا واسماعنا وافئدتنا تحت الرقابة المستمرة ، لانها مسؤولة امام الله - جل وعلا - ؛ فالعين مسؤولة ، والسمع مسؤول ، وكذلك الفؤاد ، ومن الافضل ان ننقل هذه الآيات الكريمة لكي يطلع القارئ عن كثب على هذه الوصايا الالهية : ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً * وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً * أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ (الاسراء/٣٦-٤٤) .

سنة حياتية :

والله - عز وجل - يأمرنا بالاضافة الى ذلك ان تكون مشيتنا في الحياة مشية

معتدلة بأن لانمشي في الارض مرحا ، ونؤمن ان هناك سننا في هذه الحياة تسيّرنا وان علينا ان ننتبه اليها ، فالانسان في هذه الدنيا امامه شبكة معقدة من الطرق ، وعليه ان يختار الطريق المناسب ليسير فيه ، ورغم ان هذه الطرق معبدة الا ان هوامشها وحواشيها محفوفة بالوديان .

وتعبير (المرح) في قوله - تعالى - : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ يمكن ان يكون دالا على حالة اللاأبالية والاستهزاء والاستهانة والاستخفاف بالناس ، صحيح ان الانسان حر ولكنه اذا اختار بحريته الانتحار فانه سينتهي ، واذا اختار بحريته هذه الوقوع في المهالك والشقاء فانه سينتهي ايضا .

ان المرِّح هو ذلك الانسان الذي لايبحث عن مسؤولية ولايبحث عن الطريق القويم ، وهذا الانسان بعيد عن رحمة الله - عز وجل - .

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ ؛ فهل رأيت الجبال الشاهقة ، وهل تستطيع ان تصل الى طولها ؟ فاذا كنت قصير القامة واردت في اليوم التالي ان يكون ارتفاعك كارتفاع قمة الهملايا مثلا ، فانك تطلب بذلك المستحيل فلقد جعل اللـه - تعالى - طول قامتك (١/٧٥) سم - مثلا - وانت لاتستطيع ان تتجاوز هذا الطول مطلقا .

وهكذا فان هناك سننا ، فكما انك لاتستطيع ان تتحكم في قامتك ، ولا قوتك ، وعمرك ، وكثير من انحاء حياتك بسبب وجود سنن عامة تحكم فيك ، فانك لاتستطيع كذلك ان تمشي في الارض مرحا فتقول - مثلا - : مالي ولهذا القانون ، ومالي ولهذه الحكمة ... كلا انك لابد ان تنضبط وتخضع لسنن الله - عز وجل - اذا اردت السعادة .

وبعد ذلك يقول - تعالى - : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾ ، وهذه هي الحكمة ،

ولكن السياق القرآني الكريم لايلبث ان يحدثنا مباشرة عن مسألة الشرك فيقول - عز من قائل - :

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ .

ترى ماهي العلاقة بين هذه الحكم وبين هذين النهيين القرآنيين اللذين يقول الله في احدهما : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، وفي الآخر : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ ، وبين النهي عن اتخاذ شريك لله - جل وعلا - ؟

ان هناك ثلاثة فروق بين الشرك وبين الرذائل الاخرى :

الشرك وسيلة التبرير :

١- ان الانسان انما يشرك بالله - تعالى - مالم ينزل به سلطانا ، لئلا يبحث عن تبرير لسلبياته ، والتخلص من واجباته ومسوؤلياته ، والا فلماذا يبحث عن شريك ، وهل سد الله - تعالى - امامنا ابواب رحمته ، ومنعنا فضله ؟ افلا يستجيب لدعائنا عندما نضطر اليه ، وهل رأينا إلها أفضل وأوسع قدرة وأعظم سلطان منه ، وهل غيّر عادة الامتنان علينا ؟

فلماذا يبحث الانسان دوما عن شريك لله ، وعن قوة اخرى يحتمي بها ؟ الجواب ؛ لانه يريد ان يتخلص من مسؤولياته ويبرر تقاعسه عن الواجبات ، فيقول في نفسه : ان الله يأمرني بالصلاة وانا لا اريد ان أصلي ... وهكذا يمهد الشيطان امام الانسان طرق التبرير ، فيقول له - على سبيل المثال - : ان اردت التخلص من الصلاة فاجعل نفسك صوفيا ، ومن العجيب ان بعضا من الصوفيين عندما يسألون عن سبب عدم إدائهم للصلاة ، فانهم يبادرون الى القول ان ركعتين صلاها الامام علي (عليه السلام) تكفينا ، وتكفي كل البشرية !!

وقد يقول الشيطان للانسان : هل تريد ان تتخلص من الصـوم ؟ فيهـيء لـه بذلـك جوابا جاهزا ، فاذا قيل له : لماذا لاتصوم ؟ قال : نحـن في الدنيـا مسـافرون وليـس على المسـافر صيـام ، وقـد يقـول لـه الشـيطان ايضـا : هـل تريـد ان تتخلـص مـن مسؤوليات العدالة الاجتماعية ؟ ان أفضل طريقة لك ان تؤمن بنظرية الفداء ؛ وهي ان عيسى قد قتل نفسه من أجلنا فغفرت كل ذنوبنا !!

وقد يوسوس الشيطان الرجيم للانسان قائلا : هل تريد ان تتخلص من مسـؤوليات الحكم الاسلامي ؟ ان اردت ذلك فقل : " ما لله لله وما لقيصر لقيصر " .

ان مشكلة الانسان الرئيسية تتمثـل في انـه لايريـد ان يتحمـل المسـؤولية بسـبب خطورتها واهميتها ؛ فالسـماوات والجبـال رفضتهـا ، والارضـون أبـت ان تتحملهـا ، وحملها الانسان لانه كان ظلوما جهولا فتورط بها ، فاذا به يريد ان يهرب منها .

الشرك يمنع العمل :

٢- لان الانسان يبحث عن طريقة للتملص من مسؤولياته والفرار منها ، لذلك فانه يزعم ان في الكون آلهة سوى الله - سبحانه وتعـالى - تمنعـه عـن عبادتـه ، فيقـول مبررا لنفسه : ان أراد ربي ان يدخلني النار فان عيسى بـن مريـم سـيأخذ بيـدي الى الجنة ، او ان الملائكة ستدخلني الجنة ....

الشرك تنزيل لمستوى الخالق :

٣- ان الانسان الذي يشرك بالله - عز وجل - ، يجد في هذا الشرك اسلوبا لتجسيم ربه ، وبالتالي انزاله حسب رأيه وزعمـه مـن مسـتواه في علـوه الى مسـتوى عـادي فيقول ان الله - تعالى - مثلنا !

وهكذا فان الشرك بالله يجعل الانسان بعيدا عن مسؤولياته الحضارية ، ولذلك فان الله - عز وجل - كلما يأمرنا بحسنة يأمرنا في نفس الوقت بالتوحيد ، وكلما ينهانا

عن سيئة فانه ينهانا عن الشرك به .

واذا استطعت ان تغلق ابواب الشرك ، وتدرك انه لا احد ينقذك من نــار جهنـم الا بمشيئة الله ، ولا احد يشفع لك الا برضاه ، ولا احد يسـتطيع ان يغـيّر موقعـك الا اذا اراد الله ، وعرفت ان كـل خـير وكـل نفـع مـن عنـده - سـبحانه وتعـالى - فحينئـذ بامكانك ان تربي نفسك على الفضائل ، لانك ستدرك آنئذ ان لا فرار من المسؤولية .

التبرير الذهني ضلالة فكرية :

ان من ابرز ما يجعل الانسان يفر من مسؤولياته هو التبرير الذهـني الـذي هـو في الواقع ضلالة فكرية ؛ فمن أجل ان يتهرب من الصلاة يقول : ان الصلاة انما هي صفاء القلب وعلاقته بالله وانا أمتلك هذه العلاقة ، فلماذا أصلي اذن ؟

ان مثل هذا التصور الخاطئ قائم الآن بين المسلمين للأسف الشديد ، فهم يقولـون اننـا نصلي من أجل ان تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ونحن نعيش في الفحشاء والمنكر ، فلماذا نصلي وماهي جدوى صلاتنا ؟ ! وبالتالي فان هـذا النمـط مـن التفكـير هـو يـأس وقنوط من رحمة الله - تعالى - ، وطريق لنفوذ الشيطان ، والابتعاد عن المسؤولية .

ان الانسان يبحث عادة عن مبرر للتملص من مسؤولياته ، ويحاول ان يهـرب مـن مواجهة الحياة ، ولذلك يقول الله - عز وجل - :

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ ، فالانسان في البدء ومن أجل الهروب من مسـؤوليته يحـاول ان يجعـل لنفسه إلها وهو ليس بالاله الصحيح بل هو ند لله - جل وعلا - ، فيقول ان هذا الاله هو الذي يخلصني من المشاكل والازمات التي تلم بي .

وازاء هـذا المنطـق المغلوط يقول - تعالى - : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ به عِلْمٌ ﴾ اي حـاول فـي البـدء ان تتبـع منهجية سليمة ، فالشيطـان يلعب بمخ الانسان وعليـه ان يطرد هذا الشيطان ، لانه اذا سيطر على قلب الانسان وجعل الشهوات ترين على قلبـه

فحينئـذ سـوف لايستطيع ان يتخلص منه ، فيبقى هو الذي يقوده في الحياة .

عندما يكون العذر اقبح من الذنب :

ترى هل نسي الواحد منا غذاءه ولو لمرة واحدة طيلة عمـره ، وهـل نسـي قضيـة اخرى تهمه ؟ فلماذا - اذن - ننسى القضايا الدينية والأمـور المرتبطـة بمصـير الأمـة ولا ننسى القضايا الشخصية التي لاتمتلك أية اهمية ؟ ان هذا العذر أقبح مـن الذنـب لان الانسان الذي ينسى ، ويبرر الكسل والتقاعس بالنسيان هـذا الانسـان ستترسـخ فيه صفة التبرير ، فيمضي عمرا كاملا دون ان يقدم أي عمل .

وهكذا الحال بالنسبة الى الانسان الذي يبرر عدم قيامه بواجباته بالخجل والحيـاء وخـوف توجيـه التهـم اليـه ولـوم اللائمـين ، فانـه سـيجعل نفسـه أفضـل مـن قيمـه ومقدساتـه ، فليسبك الناس وليفتروا عليك وليوجهوا اليك التهم والافتراءات ، فقيمـة الانـسان المؤمن بقيمه لا بنفسه ، وحتى اذا ذل الانسان المؤمن نفسه في سبيل اللـه - تعالى - فان هذه الذلة تعتبر بالنسبة اليه عزة .

وهكذا فان علينا ان نخرج من اطار جميع التبريرات كـالخجل والحيـاء والخـوف من الفشل ... وان نقاوم الاساليب الشيطانية ، وان نقارن بين تبريراتنا وبين مـا يجـب ان نعملـه ، والانسان الصديق هـو الـذي يسـتطيع ان يخضـع عقلـه لمنهجيـة ايمانيـة سليمة ، ولكن اكثرنا لايتبع هذه المنهجية للأسف ، فتراه يـبرر وهـو يعلـم ان تـبريره مغلوط في حين ان الاعتراف بالخطأ فضيلة ، وعلى العكس من ذلـك فـان الإصـرار عليه يعـد ذنبا عظيما ، وللأسف فـان الغالبية العظمـى منـا يتعـامل في حياتـه علـى اساس التستر على اخطائه .

التبرير حجاب دون الحقائق :

اننا اذا اسقطنا ومزقنا حجب التبرير فحينئذ ستستطيع اعيننا ان ترى الحقائق ، وقد

جاء في رواية عن الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) . قال : لا يخلد الله في النار الا أهل الكفر والجحود ، وأهل الضلال والشرك ، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يسأل عن الصغائر ، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾ (النساء/٣١) قال : فقلت له : يابن رسول الله فالشفاعة لمن تجب من المؤمنين ؟ فقال حدثني أبي عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي ، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل ، قال ابن ابي عمير : فقلت له : يابن رسول الله فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الانبياء/٢٨) ، ومن يركب الكبائر لايكون مرتضى ؟ فقال : يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا الا ساءة ذلك وندم عليه ، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله) : كفى بالندم توبة ، وقال : من سرته حسنة وساءته سيئة فهو مؤمن ، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالما ، والله تعالى يقول : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر/١٨) [(١)]

وعلى هذا فان الذي لايندم على ذنبه لايعتبر الذنب ذنبا ، وقد كان علماؤنا (رضوان الله عليهم) يقولون ان الذي لايصلي ولاينكر وجوب الصلاة يعزّر ، والذي لايصلي ويقول ان الصلاة غير واجبة فجزاؤه القتل لانه منكر لضرورة من ضرورات الدين ، وهو خارج عن اطار الاسلام .

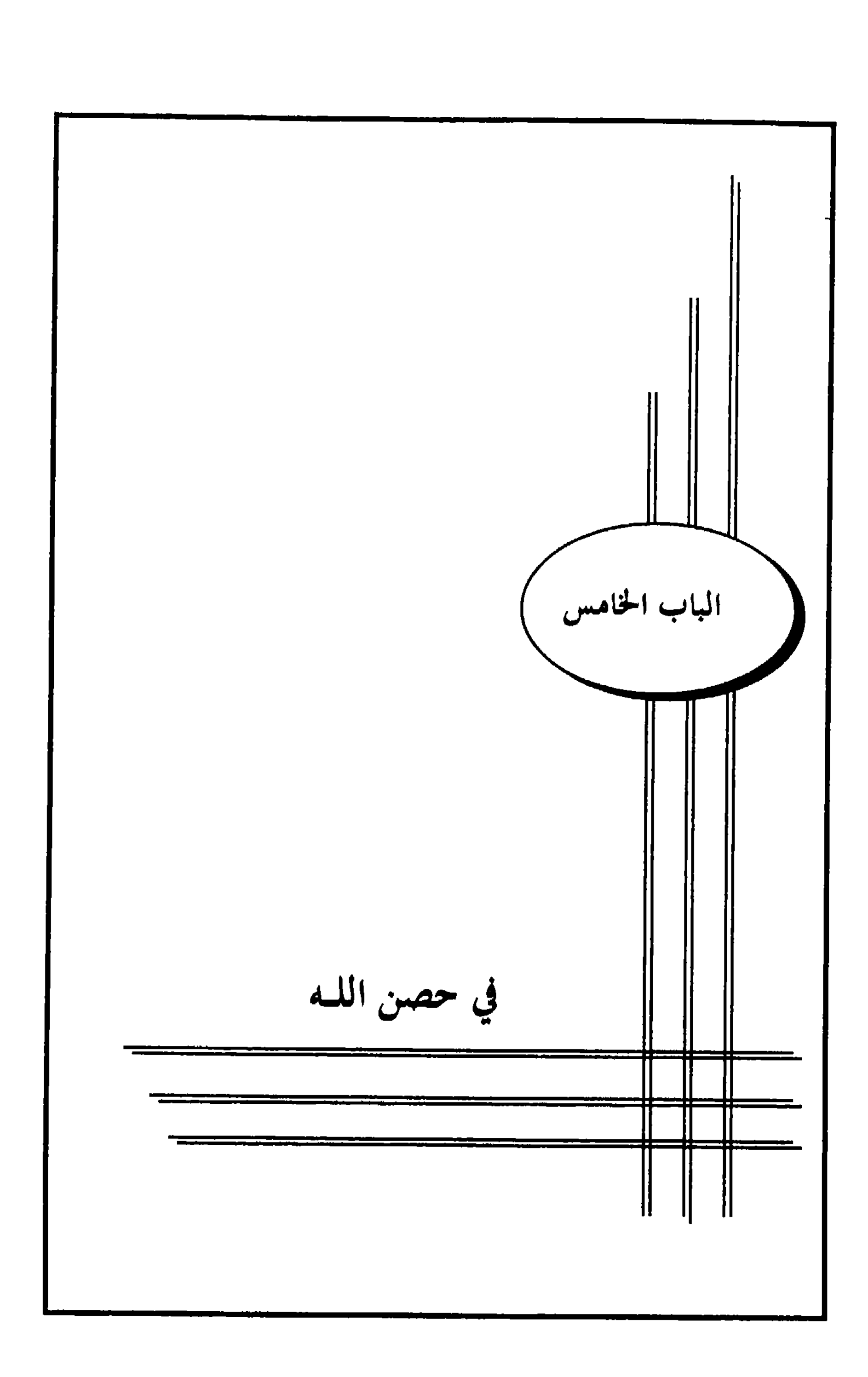
ونحن عندما نجاهد في سبيل الله – تعالى – ، ونذنب الذنوب ثم نبرر تقصيرنا ببعض الحجج الواهية فان هذا التبرير هو الذي يخرجنا من اطار الجهاد ، فالانسان

(١) بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥١ رواية ١

المجاهد حقا لايبرر ، بل يمتلك شجاعة انتقـاد نفسـه ، ومراجعـة عيوبـه واخطائـه ، ومراقبة ما يبدر منه مراقبة دقيقة وشديدة ، ثم يقر بذنوبه واخطائـه تلـك ، ويستشـعر في نفسه الندم عليه ، ويعزم بعد ذلك عزما حقيقيا على ان لايعود الى ارتكاب تلـك الاخطاء والذنوب ، ويجسد هذا العزم في واقعه وسلوكه وعلاقاته مع الاخرين .







الباب الخامس

في حصن اللـه



الفصل الاول

ولاية الله حصن المؤمن

ولاية الله – سبحانه وتعالى – هي حصن الانسان ؛ فمن دخل حصن هذه الولاية أمن من التخلف والتبعية ، ومن رفض دخوله فانه سوف يصبح عبدا للآخرين وللتقاليد البالية وبالتالي فانه سوف يتخلف في الحياة الدنيا .

وانها لنعمة كبرى منّ الله بها على الانسان عندما فتح له باب هذا الحصن ودعاه اليه ، وأمر اوليائه ان يدعوا الناس الى دخوله .

معطيات الولاية الالهية :

والنموذج التأريخي الرائع للدخول في حصن الولاية يتجسد في ابراهيم الخليل (عليه السلام) حيث استطاع هذا النبي العظيم ان يحقق الانجازات التالية من خلال دخوله في هذه الحصن :

١- وضع نقطة البداية للتأريخ كما يشير الى ذلــك - تعـالى - في قولـه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النّحـل/١٢٠) ، فقـد ابتـدأ التـاريخ بـابراهيم ، وجميـع الانبيـاء والرسـل الذي ظهروا بعـده انما اتبعوا شريعتـه . فقـد اوتي هـذا النبي من عنـد اللــه - تبارك وتعالى - قوة استطاع بها ان يتحدى جبروت طاغوت زمانـه نمـرود الـذي اتخذ من بابل في ارض العـراق مقـرا لنشـر طغيانـه وارهابـه في ارجـاء كثـيرة مـن المعمورة آنذاك .

وقد كان هذا الطاغية يستعبد الناس ويقتلهم وينهب اموالهم ويعتـدي علـى نسـائهم ولايدع الناس يعيشـون احـرارا في حيـاتهم ويتمتعـون بنعـم الله ، وقـد كـان النـاس يخشونه ويرهبونه ويخضعون له ، وقد اتخذ لهـم اصنامـا وحملهـم علـى ان يعبدوهـا ويقدسوها كرمز لقوته وسيطرته وجبروته .

وحينئذ أرسل الله - جل شأنه - ابراهيم نبيا ، وكان اول ما قام به هـذا النـبي انـه دخل في حصن الله ، وسلم نفسه لولايته ، فالمقاتل الذي يريـد ان يحـارب عليـه ان يقوم قبل كل شيء بحفر خندق ، يتترس فيه ثم يبدأ القتال ، وقد كان ابراهيم (عليـه السلام) يريد ان يحارب قوة جبارة ، ورجلا أستعبد الناس وأستخفهم ، فما كان منـه (عليه السلام) الا ان تترس بالولاية قائلا :

﴿ إِنِّـي وَجَّهْـتُ وَجْهِـيَ لِلَّـذِي فَطَـرَ السَّـماوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفـاً وَمَـآ أَنَـا مِـنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/٧٩)

ان هذه الكلمة الخالدة التي أطلقها ابراهيم (عليه السلام) منحته اولا قوة هي فـوق كل قوة اخرى ، وتذوب أمامها قوة البحار والجبال والرياح والارض والبشر .

فعندما هم الطاغية بالقائه في النار اللاهبة انتقاما منه لعدم خضوعه لسلطانه نزلـت عليه الملائكة من مختلف الاصناف كل ملك كان يعرض على ابراهيم ان ينقـذه مـن النار ، ولكنه (عليه السلام) كان ينظر الى كل واحد منهم بقلب واثق ونفـس مطمئنـة

مبينا له انه لايحتاج الا الى عون ومساعدة جبار السماوات والارض ، فقد كان يخاطبهم قائلا : " علمه بحالي يغنيه عن سؤالي " .

ان هذه الكلمة الخالدة تعني ان الانسان الذي-تمسك بحبل الولاية واعتصم بها ، وتترس في خندقها ، ودخل في حصنها ... هذا الانسان يتعالى ويتسامى على كل قوة عدا قوة الله – سبحانه وتعالى – .

لقد نظر ابراهيم (عليه السلام) الى الشمس بكل عظمتها وقوتها ، ولكنه عندما رأى العجز والنقصان يعتريانها خاطبها قائلا : ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (الانعام/٧٦) .

٢- لقد أعلن ابراهيم (عليه السلام) رفضه لعبادة الاصنام التي كانت رموزا لمرحلة تاريخية معينة ، فقد كان السبب في عبادة الناس لها تقليدهم للآباء .

وهكذا فقد كانت الحياة جامدة متخلفة ، فما كان بمقدور الناس ان يروا المستقبل بل كانوا يعيشون الماضي دائما ، فاصنامهم وعقولهم المتحجرة على تلك الاصنام لم تكن تدعهم يطورون حياتهم ، ولذلك فقد كانوا متوغلين في التخلف راسفين في اغلال الجمود والتقوقع ، وقد كانت هذه الاوضاع سببا من الاسباب التي حدت بابراهيم وبأمر من الله – تعالى – الى ان يقاوم نهج عبادة الاصنام .

وعندما حطم ابراهيم (عليه السلام) الاصنام فانه استطاع ان يحطم الجمود والأغلال والأصر ، ثم انطلق من بابل وتوجه الى مصر ومنها الى فلسطين ومكة ليبني حضارة عظيمة مازالت آثارها ماثلة أمامنا ، ونحن مدينون لها في كثير من جوانبها ؛ فالحضارة التي نعيشها الآن هي وليدة الجهود التي بذلها ابراهيم الخليل (عليه السلام) .

٣- ان ولاية الله – عز وجل – تمنع وتحول دون ولاية الشيطان ، فالانسان أمامه طريقان لا ثالث لهما ؛ فاما ان يدخل في ولاية الله – عز وجل – ، واما ان يدخل في ولاية الشيطان ، فهو لابد له من مأوى ومن كهف ، فاما ان يدخل في كهف الله ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واما ان يدخل في كهف الشيطان ، ومـن لايدخـل في ولايـة الله لابـد ان يدخـل في ولاية الشيطان ، ولقد أوتي الشيطان القدرة على السيطرة على الانسان لانه ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَتَرَوْنَهُمْ ﴾ (الاعراف/٢٧) -كما يقول القرآن الكريـم - فهـو عدو خفي ، ويتمتع بتجارب أكثر من تجاربنا ، فله تجارب مع أبينـا آدم ومـع جميـع الانبياء لان نفسه سولت له - دون جدوى - ان يخدع الانبياء (عليه السلام) .

واذا كان الأمر كذلك فكيـف نسـتطيع ان نتخلـص مـن مكـر الشـيطان وأسـاليبه الخبيثـة ؟

الجواب : ان الشيطان ليس له سلطان الا على من تولاه ، اما الذين يتـولون اللـه - عز وجل - فان الشيطان لايستطيع ان يسيطر عليهـم ، وعلـى هـذا الاسـاس فـان هناك ولاية تسمى بـ (ولاية الله) لابد ان ندخلها .

اما كيف يستطيع الشيطان ان يتولانا ويدخلنـا في مطباتـه لتوضيـح ذلـك نضـرب المثال التالي : ان شهوة الجنس هي شهوة قوية ، والشـيطان يسـتغل هـذه الثغـرة في النفس الانسانية على خطوات ليدخلها في هذا المطب ، ولذلـك فـان القـرآن الكريـم يحذرنا قائلا : ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾ (البقرة/١٦٨) ، فهو في اليـوم الاول لايدعوك الى الزنا بشكل مباشر بل الى النظر المحرّم ثم الى الالتقاء في مكان خفـي بعيد عن الانظار ، ولذلك يقول الحديث الشريف : " ما اجتمع رجل وامـرأة الا وكـان الشيطان ثالثهما " .

وهكذا فان الشيطان يستدرج الانسان شيئا فشيئا حتى يسقط في مستنقع الجريمة ، اما الانسان المؤمن فانه عندما يدخل في ولاية الله - جل وعلا - فانه سيمنع بذلـك الشيطان من ان ينفذ في قلبه ويستولي على نفسه لانه لايسـتطيع ان يدخـل معـه في حصن الله - تعالى - لانه رجيم ، مطرود من الرحمة الالهية .

والمؤمن اذا اصابه طائف من الشيطان فانه يتذكر الله مباشرة ويستعيذ به فما يكون مـن الشيطـان الا ان ينهـزم من أمامـه ، اما الانسان المنافق والكافر والفاسق والغافل

فانه سيقع فريسة الوساوس الشيطانية لانه لم يدخل في ولاية الله .

أصل الولاية :

ان أصل الولاية ان يقول الانسان : ﴿ إِنَّ وَلِيِّـيَ اللَّـهُ الَّـذِي نَـزَّلَ الْكِتَـابَ وَهُـوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الاعراف/١٩٦) ، ولقد كانت الكلمة الاولى التي أطلقها ابراهيم (عليه السلام) في هذا المجال قوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّـماوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/٧٩)

وهنا اود ان اتوقف عند عبارة ﴿ فَطَرَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وفي البداية علينا ان نقول ان (فطر) تعني : شق ، فاذا رأينا شقا في الجدار أطلقنا عليه اسم (فطر) ، واذا رأينا شيئا انقسم الى قسمين قلنا انه (انفطر) ، وبناء على ذلك فماذا تعني عبارة (فطر السماوات والارض) ؟

ان هذا الكون الذي نعيش فيه لا حدود ولا نهاية له ، فاذا ركب الواحد منا طائرة ليدور حول الارض فانه يحتاج الى ايام للقيام بهذه المهمة ، وهذه الارض لو القيت في وسط الشمس فانها تصبح كحصاة في صحراء ، وهناك شموس أخرى اكبر من شمسنا بملايين المرات تسمى بـ(النجوم العملاقة) ، على ان هذه الشموس تقع ضمن مجموعة واحدة يطلق عليها اسم (المجرة) ، ويوجد الملايين من هذه المجرات منتشرة في ارجاء الكون اللامتناهي ...

ترى اين نحن من هذه الآيات الباهرة ، والعجائب التي لاحصر لها ؟

اننا نفتخر بأنفسنا ونجعل الغرور يستولي علينا ، في حين ان علينا ان نضحك على هذه العقلية السخيفة التي تجسدت في طغاة كثيرين عبر التأريخ مثل فرعون الذي أمر هامان قائلا :

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هامَانُ عَلَـى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَـى إِلَهِ مُوسَـى

وإنّي لأظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (القَصَص/٣٨) ، والذي أمر قومه بعبادته عندما أدعى الربوبية قائلا : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النّازعات/٢٤) .

وفي الحقيقة فان كل انسان يضمر في نفسه مثل هذه الكلمات ولكنه لايقولها الا اذا اجتمعت الظروف المساعدة على ظهور تكبره وطغيانه .

واليوم فان الدول الاستكبارية قد تكبرت وطغت بعد ان ظهرت الظروف التي دفعتها الى هذا التكبر والطغيان ، ونحن يجب علينا ان نواجه ونقاوم هذه القوى المستكبرة كما فعل ذلك من قبل ابراهيم (عليه السلام) لاننا دخلنا في حصن الولاية .

ونحن نستطيع من خلال التمسك بالولاية الالهية ، والتوجه الى الله - تعالى - مقاومة كل القوى الاستكبارية في الارض مهما كانت طاغية ومتجبرة ، لانها قوى شيطانية وان كيد الشيطان كان ضعيفا ، وذلك من خلال الخطوتين التاليتين :

١- عندما نتمسك بالولاية فاننا سوف نغير أساليبنا ، ففي هذه الحالة سوف لايبقى أسلوبا مقدسا ، فلا صنم يعبد من دون الله - عز وجل - ولا اسم يعبد من دونه ، وكل شيء يصبح خاضعا للتغيير حسب إرادة الله المطلقة .

٢- عندما ندخل في حصن الولاية الالهية فان قوى الشر سوف لاتستطيع ان تؤثر فينا ؛ اي ان الصفات الاخلاقية السلبية من مثل العداوات والغيبة، والتهمة والكذب والنميمة والانانيات والعنصريات ... كل ذلك سوف ينمحي ويزول من سلوكنا وتعاملنا مع بعض ، وهذا هو الشرط المهم والرئيسي للانتصار . فعندما يتكون مجتمع لا وجود لتلك الصفات السلبية فيه ، وتسوده روح التعاون والتلاحم والانسجام ، وعندما يكون قلبا واحدا ويحمل ايمانا راسخا وهمة عالية وإرادة صلبة وعزما لايلين على المقاومة والتضحية والنداء ، فان مثل هذا المجتمع سوف ينتصر لامحالة ، وبدون أدنى شك ، لانه قد وفر في نفسه وحقق شروط الانتصار التي تقف الوحدة في مقدمتها ، ولانه قد دخل في اطار ولاية الله - سبحانه وتعالى - .

ولاية الله عمل لا كلام :

وعلينا ان نضع نصب أعيننا في هذا المجال ، ونتذكر دوما ان ولاية الله - تقدست اسماؤه - ليست مجرد كلمة يرددها اللسان وشعارات تطلقها الحناجر وكلمات للاستهلاك الاعلامي بل هي منهاج وشريعة وطريقة سليمة علينا ان نتخذها طريقا واسلوبا لنا في حياتنا في جميع اصعدتها ومجالاتها سواء كانت اجتماعية ام سياسية وجهادية .

ومن هنا فاننا يجب ان نتمسك بحبل الولاية ، ونستمد من هذا الحبل القوة والقدرة على مواجهة المشاكل والصعاب



الفصل الثاني

تحكيم ولاية اللـه في التفكير والعمل

ان تحكيم ولاية الله في ثقافة الانسان ضـرورة ايمانيـة ينبغـي علـى كـل مسـلم ان يرتفع الى مستواها وبالذات اولئك الذين يتسنمون مركز القيادة الثقافية والفكريـة في المجتمع مثل العلماء والمفكرين .

وقد يزعم الانسان انه يستطيع ان يكون حـر الفكـر دون ان تكـون هنـاك ضوابـط ومقاييس معينـة تحدده ، في حين ان هذا الزعم يعتبر اساس الكفر بالله والجحود بـه فلا يمكن للانسان ان يكون حرا الا اذا كان فكره منطلقا من الايمان بالله - تعـالى - فالنفس التي استعبدتها الشهوات ، والقلب الـذي سيطرت عليـه الضغـوط ، والارادة التي خابت امام التحديات لايمكن ان ينبعث منها فكر حر .

وهكذا فان العبودية لايمكن ان تنتج الحرية ، وان الذين يدّعون حرية الفكر بعيدا عن

الاعتقاد بالله انما يكذبون على انفسهم وعلى الاخرين ويرتكبون خطأ جسيما ، فليس من المعقول ان تستطيع الحرية الفكرية تحدي ولاية الله ، لان هذه الولاية تعني تحرير الانسان من ربقة الشهوات ، وعبودية الضغوط ، وبالتالي تحرير من ولاية الآلهة المزيفة وتسليمه الى رب العالمين ، وهذه هي اسمى حرية يطمح الانسان للوصول اليها .

واذا كان الأمر كذلك فينبغي ان يكون الفكر وما يصدر عنه تحت مظلة الولاية الالهية . فالضلالة الفكرية تستتبع - بالطبع - الانحراف السلوكي الذي يجر صاحبه الى النار ، ولذلك يقول - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج/٨) ؛ اي ان البعض قد يتحدث حول شريعة الله من دون ان تكون لديه خلفية علمية او هداية روحية او مسند يستند اليه .

السبيل الى مواجهة الافكار الضالة :

ان على الانسان ان يتسلح بثلاث حجج يواجه من خلالها تيار الضلال والافكار الباطلة البعيدة عن الهدى الالهي وهي :

١ - العلم :

وفي هذا المجال يروى ان الامام علي (عليه السلام) سئل عن المسافة بين الحق والباطل فقال : " أربعة أصابع ، فما رأيته بعينك فهو حق ، وما سمعته بأذنك فهو باطل " ، وبالفعل فان أكثر ما تسمعه الاذن هو باطل كالأخبار التي تذيعها الاذاعات المعادية والتحليلات السياسية التي تكتبها الصحف الصفراء ، فمن الخطأ الفاحش ان يتناول الانسان المؤمن كتابا ثم يقرأه ويعتقد بما يشتمل عليه دون ان يعرف مؤلفه ابتداء .

وفي السابق كان علماؤنا في الحديث والدراية يبادرون الى دراسة الكتاب الذي

يعثرون عليه من ثلاث جهات هي :

أ - مؤلف الكتاب وحياته ونسبه والاساتذة الذين تلقى الدروس عنهم ، وماذا قيل عنه ، ومن هو القائل .. فقد يكون المؤلف عالما ولكنه قد يكون في نفس الوقت غير عادل ، او ان يكون عادلا ولكنه مبتلى بالخلط نتيجة ذاكرته الضعيفة ، ولذلك فان اولئك العلماء كانوا يحققون ويبحثون لمدة أسابيع بل وشهور في حياة ذلك المؤلف من أجل ان يطمئنوا الى صحة حديثه .

ب - صحة انتساب الكتاب : واذا ما ثبتت عدالة ورجاحة فكر المؤلف وعلمه فانهم يبحثون بعد ذلك في مدى صحة انتساب الكتاب الى المؤلف ، فهل كتاب الكافي - مثلا - هو للكليني ، وهل كتاب التهذيب يعود الى الشيخ الطوسي .... وهكذا ..

ج - صحة النسخة ومطابقتها للاصل : واذا ثبت ذلك بحثوا في النسخة التي بين ايديهم وفي صحتها ومدى مطابقتها لأصل ، وفي الذين شهدوا على هذه الصحة ، ولذلك فانك قد ترى في بعض النسخ القديمة الكثير من التواقيع من قبل ائمة الحديث صدّقوا صحة انتساب النسخة الى الاصل .

٢- الهدى :

الحجة الثانية هي (الهدى) ، وهو ان لاتعرف الشيء بتفاصيله ولكنك تعرف الاصول التي تنتمي اليها ، فقد يعرف انسان ما الطريق الذي يؤدي الى الكعبة وجهة القبلة ولكنه يجهل التفاصيل ، وربما يفسر الهدى بتقليد العلماء ، فاذا كان هناك عالم موثوق به ثم جاءه انسان غير عالم وعرف ماهو عليه فهو على هدى من ربه .

٣- الكتاب :

وليس كل كتاب حجة ، بل الكتاب المنير هو الحجة ، فكما ان النور يزيل الظلمة ويكشف للانسان الحقائق ، فان الكتاب ايضا يجب ان يكون حقيقة تنير للانسان

المؤمن الطريق ، وتفتح امامه الآفاق .

وهكذا فان ولاية الله - تعالى - في الفكر تستدعي ان يكون بين المؤمن الرسالي وبين الله - تعالى - واحدة من تلك الحجج الثلاث على الاقل .

الورع في اتخاذ المواقف :

وانت حينما تريد ان تتخذ موقفا من أمر ما ، او ان تقيّم نفسك او الآخرين ، فان عليك ان تجعل نصب عينيك حقيقة ان الله مشرف ومهيمن عليك وانه يراك .

وهكذا فان الانسان المؤمن اذا حدث الناس فانهم يثقون به لانه قد اعتمد في كلامه حجة بينه وبين الله - سبحانه - الا وهي الصدق ، فالانسان المؤمن لايتخذ مواقفه وهو غريق ظلمات نفسه المليئة بالشهوات ، بل يتوجه الى الله ويقوم بدراسة وتقييم افكاره بنظرة سليمة بعيدة عن الشيطان وهوى النفس وعلى ضوء ذلك يتخذ موقفه النهائي .

ومن صفات المؤمن انه انسان عاقل ، ومن صفات الانسان العاقل الرصانة والوقار ؛ فلا يقول كلاما ويتخذ موقفا من دون دليل او رؤية واضحة صادقة ، وعلى هذا فانك اذا اردت ان تتحدث عن الله وعن تعاليم السماء ، وشرائع الاسلام فان عليك البحث والتحقيق والا فانك ستفتري على الله - تعالى - كذبا ، وهذا ما يشير اليه القرآن الكريم في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الحج/٨-٩)

والافتراء على الله هو من الكبائر القبيحة التي يكون جزاؤها الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، هذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الحج/ ٩)

ثم ان من صفات المؤمن الخشوع ؛ اي ان يكون قلبه دائما في حالة ذكر الله ، وهذا يعني انه يحاسب نفسه ، ويحاكمها دوما في محكمة الضمير العادلة ، ويعني

ايضا انه يقوم بعملية تصفية وغربلة لافكاره ليأخذ الصالح منها ويترك الفاسد ، وبالتالي فان مواقفه في الحياة سوف تكون سليمة نابعة من رؤاه وافكاره الصالحة .

متى ندخل في حصن الله :

ويبقى السؤال التالي ماثلا امامنا : كيف يمكن للمرء ان يدخل بفكره في حصن الله ؟

والجواب : ان هذا الدخول ممكن من خلال ممارستين :

١- ان يخضع الانسان نفسه الأمارة بالسوء وشهواته واهواءه ويسيطر عليها ، وبالطبع فان تحقيق ذلك ليس بالامر اليسير ؛ فالشيطان والنفس والتيارات الاجتماعية كلها تعمل ضد الانسان ، فعليه ان يعمل جاهدا من أجل تخفيف ضغوطها بل ومحو آثارها ، والحركة في الاتجاه المخالف للتيار بعزم راسخ واستقامة على طول الخط .

وفي هذا المجال أوصي بالاكثار من قراءة الدعاء ، فالدعاء يخضع نفس الانسان ، ويزيدها يقينا ، ويربطها برب العالمين ، وبالتالي فان الدعاء يزيد الانسان معرفة بمواقفه .

كما ان الدعاء برنامج للحياة ، وسلاح لحفظ الانسان من الشهوات الطائشة ، ومصباح لهدايته وزرع اليقين في قلبه .

٢ - ان لم يكن الانسان على علم من أمر يريد ان يتخذ موقفا منه ، فانه اذا ما تصرف وفقا لجهله هذا فانه سيكون ضالا ومنحرفا في تصحيحه . وعليه فان الانسان بحاجة اليوم الى العلوم أكثر من أي وقت مضى وخصوصا الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة والحقائق التأريخية والعلمية ، فالمرء اذا اراد ان يتجنب الجهل ، ويحكم ولاية الله في افكاره ومواقفه فلابد ان ينشط في طلب العلم طيلة عمره .

الفصل الثالث

مظاهر العظمة الالهية في الكون

هناك اخطار كثيرة يحفظنا الله - تعالى - منها آناء الليل واطراف النهار ، فالانسان عندما كان نطفة في صلب أبيه ، او علقة في رحم امه كان معرّضا لاخطار الجراثيم النى من الممكن ان نهاجمه وتسبب موته وفناءه ، بالاضافة الى الاخطار التي كان والداه يتعرضان لها ولكن الله - جل وعلا - نجاهما منها ، ثم هل يعي الانسان انه عندما سقط من رحم أمه الى الارض لم يكن يمتلك حولا ولا قوة ، فمن الذي يحفظه من هذه الاخطار والمهالك ؟

اننا الآن نتمتع بالصحة والقوة والعافية ولكننا قد نجهل ان هناك الملايين من القوانين والانظمة داخل وخارج محيط الانسان هي التي تحفظه من الهلاك ؛ فالطفل - على سبيل المثال - ضعيف في مداركه وتفكيره ودقيق في بدنه ولكننا - في نفس الوقت - نراه متحركا ونشيطا ، ولولا حفظ الله - تبارك وتعالى - له

لهلك هذا الطفل لاتفه الاسباب .

اليد الغيبية في حياتنا :

ونحن كثيرا ما نلمس هذه اليد الغيبية في حياتنا ، فالكثير منا قـد يتدحـرج مـن على سلم او يسقط من مرتفع او يتعثر بعقبة في الارض الأمر الـذي قـد يسـبب لـه العاهة او الاصابة المؤلمة ، وقد نرى الاطفال يتعرضون مئـات المـرات لمثـل هـذه الحوادث ولكننا في اغلبها نرى حفظ الله ورعايته للانسان فلا يصاب بأذى ، او قد يصاب إصابة بسيطة لايلبث بعدها ان يتماثل الى الشفاء . فقد اودع اللـه – جلـت قدرته – خصوصية قوة النمو ونشاطه في الانسان وخصوصـا في السـنوات الاولى من عمره ، فاللـه – سبحانه وتعالى – وحسـب العقيـدة التي نؤمـن بهـا قـد عـين ملائكة يقومون بمهمة حفظ الاطفال ، ولقد لمست انـا شـخصيا هـذه الحقيقـة مـن خلال مشاهداتي لحوادث وقعت للاطفال ، ثم سلموا فيها .

عندما يفقد الانسان المناعة الذاتية :

وتتأكد هذه الحقيقة اكثر عندما نعلـم ان كـل جرثومـة مرضيّـة تصيـب الانسـان بامكانها ان تقضي عليه ، والدليل على ذلك اولئك المصابين بمرض فقدان المناعـة الذاتية المعروف بـ (الايدز) ، ترى مـا الـذي ينقـص هـؤلاء ، ومـاهو السـبب في موتهم ؟

ان السبب في ذلك ببساطة هو فقدان المناعة الذاتيـة ؛ اي ان اجسـامهم لم تعـد محصنة بالحصن الطبيعـي الـذي خلقـه اللـه – جـل اسمـه – وهـو المناعـة ضـد الامراض ، وفقدان العناصر المضادة للجراثيم والمكروبات داخل الجسم .

وعلى سبيل المثال فان الانسان الطبيعي الذي يصاب بالبرد او بفيروس الانفلونزا تراه بمجرد ان يركن الى الراحة لاسبوع يتماثل الى الشفاء ، ويستعيد نشاطه بتناول شـيء مـن الدواء او المسكنـات ، ولكن هـذا الشخص ان كان مصابا بالايـدز فان

الانفلونزا ستؤدي به لامحالة الى الموت لانه فقد المناعة الذاتية .

معلوماتنا عن الانسان قليلة :

والطبيب المعروف الدكتور (الكسيس كارل) صاحب الكتاب الشهير " الانسان ذلك المجهول " يوضح في كتابه هذا ان معلوماتنا حول ما يجري في جسم الانسان قريبة من الصفر فالاطباء والعلماء ورغم التقدم الذي احرزوه في مجال علوم الاعضاء والتشريح والفسلجة وما الى ذلك من الفروع الطبية المختلفة ما يزالون يجهلون الكثير مما يجري داخل جسم الانسان .

وعلى سبيل المثال فان الغدد اللمفاوية المنتشرة في اماكن متفرقة من الجسم كتحت الابط وجوانب العنق واماكن اخرى نرى تنتفخ حين الاصابة المرضية ، والسبب في ذلك ان الملايين من كريات الدم البيض تتجمع في هذه المواضع وتتحشد لتشكل فيها قواعد دفاعية قوية ضد الجراثيم ، فبمجرد ان تدخل هذه الجراثيم جسم الانسان تدق صافرة الانذار والنفير داخل الجسم لصد هذه الجراثيم ، فالجسم الانساني ليس كالمجتمع لان الاخير عندما يتعرض الى هجمة ما نرى ان البعض من افراده يهب للدفاع في حين ان البعض الآخر يجلس متقاعا ، اما جسم الانسان فانه اذا مرض عضو منه فان سائر الاعضاء تتداعى له بالسهر والحمى .

من مظاهر العظمة الالهية :

ترى من الذي بنى هذا البنيان المعقد والمتكامل ، ومن الذي انشأ هذا النظام في الجسم وفي المحيط الخارجي ؟

اننا نسمع صوت المطر وهو يهطل من السماء في لحظات تعتبر من لحظات استجابة الدعاء لان المطر هو من بركات الله – سبحانه وتعالى – افتدري – ايها الانسان – ما الذي جرى في السماء حتى هطل المطر ، ومن اين حملت الرياح هذا الماء اليك ، وكيف سقاك الله فان لم يكن هو الذي سقاك بهذا الغيث فمن

الذي يأتيك به ؟ الى ذلك يشير قوله – عز وجل – : ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ (الواقعة/٦٩) ، وفي قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَعِينٍ ﴾ (الملك/٣٠)

ترى كيف تحمل عشرات الملايين من اطنان المياه في السماء ثم تساق الى البقاع النائية المترامية ، وتعصر عصرا حتى تهطل امطارا ، ومن الذي اوجد هذا القانون الفيزيائي العظيم في الكون بحيث تعصر السحب بعضها بعضا عندما تتراكم ، وعندها ينزل المطر ؛ هذا الغيث الالهي .

الغلاف الواقي :

وفي الجو هناك غلاف واق يبلغ سمكه خمسين كيلو مترا ، هذا الغلاف اضحى اليوم مهددا بسبب نفايات وفضلات حضارة التكنلوجيا ، والتجارب النووية التي تعمل على تمزيق هذا الغلاف ، وايجاد الثغرات فيه الامر الذي سيجعل الكرة الارضية في المستقبل القريب عرضة للاشعة الكونية الخطيرة ، والاجرام السماوية المدمرة التي يدخل اجواء الارض منها يوميا حوالي عشرين مليون قذيفة تحترق في جو الارض قبل ان تصل اليها بفضل ذلك الغلاف الجوي الذي اصبح مهددا اليوم بالتمزق ، ولأجله تقام المؤتمرات والاجتماعات هنا وهناك للعثور على حل جذري لهذا الخطر المحدق ، ولعلنا نلمس هذا المعنى في الآيات المباركة من سورة الطارق حيث يقول – تعالى – : ﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (الطارق/١-٤) .

النيازك والشهب :

ان هناك حقيقة لعل من المفيد بيانها هنا وهي انه بقدر ما في السماء من الاجرام التي من ضمنها الشمس والقمر والزهرة وزحل وعطارد وغيرها من الكواكب

والمجرات ، فان بمقدارها او ربما عشرات الاضعاف منها هناك مواد متناثرة وهي ما تسمى بـ (النيازك) و (الشهب) التي تتحرك في الفضاء وفق قوانين الجاذبية ، وربما قوانين الطاقة والضوء في هذا الفضاء الرحيب الواسع وهي ترتطم بالنجوم والاجرام ، والله وحده هو العالم بما يحدث هناك حين الارتطام ، ولكنها عندما تصل الى الارض فان بوابة الغلاف الجوي ، هذا الحارس العظيم يقوم باتلافها ، وصد ضررها عنا .

الاشعة الكونية :

وهكذا الحال بالنسبة الى الاشعة الكونية التي تولدها الشمس ، فالاشعة منها ما هو مفيد ومنها ما هو مضر ، فالاول يصل الينا فتخضر به الاشجار والنباتات ، وتنمو به الاجسام الحيوانية ومنها الانسان بالاضافة الى آلاف الفوائد الاخرى ، اما الثاني – وهو المضر – فهو مما لايصل الينا بفضل الغلاف الغازي للارض الذي بات مهددا اليوم .

ترى من اوجد هذا الغلاف ، ومن الذي وضع قوانين عمله ؟

انه ربنا – تعالى – الذي خلقه ، واتقن صنعه ، ولعظمة هذا الخلق فانه – عز وجل – يقسم به قائلا :.﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ ﴾ اي قسما بالسماء ، وتلك الاجرام التي تطرقها ، ثم يقول – سبحانه – : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ . فأنت ايها الانسان لاتدري بما يحدث في هذا الكون اللامتناهي ، ففيه من المجاهيل ما لايمكن ليد الادراك والعلم ان تمتد اليه .

لكل نفس حافظ :

ثم يذكر – تعالى – موضوع القسم وهو ان كل انسان عليه حافظ ؛ اي ليس

هناك حفظة للجميع بل ان كل واحد له حفظة خاصون به ، ولـه معقبات مـن بـين يديه ومن خلفه يحفظونه من كل سوء وشر ، فالانســان يتعـرض عشـرات المـرات يوميا الى الاخطار ، وكثيرا ما يردد اغلبنا عبارات من مثل : كادت اليوم ســيارة ان تدهسني ، وكادت عقرب تلسعني ، وكدت اسقط في النهـر او مـن فـوق بنايـة .... ولكني نجوت بفضل الله وهكذا ...

واذا اردت – ايها الانسان – ان تعرف بانك محفوظ من قبل الله – تعالى – ليـل نهار ، فانظر إلى النطفة البسيطة التي لايمكنها ان تدفع اي خطر عـن نفسـها ، ومـع ذلك فانهـا محفـوظة ومصانة ترعاها اليد الالهيـة كمـا يشـير الى ذلـك – جلـت قدرته – في قوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطّارق/٥)

وقد يداخلنا شيء من الغرور فنقول اننا نمتلك الايدي والارجل والعيون واللسان بل وحتى الحاسة السادسة فلا حاجة – اذن – الى مـن يحفظنـا ، ولكـن علينـا ان نتساءل في نفس الوقت : ترى من منحنا كل تلك النعم والقدرات ؟

مظاهر عظمة الله لاحصر لها :

ان الحديــث عـن هـذه الامور والظواهر العجيبة التي تتجسد عـبرها عظمـة البـارئ – سبحانـه وتعالـى – يحتاج الـى تدويـن مجلدات تلو المجلدات ، وقد اشـار الخـالق – عز وجل – الى جوانب من هذه العظمة فـي مواضع كثيرة مـن القرآن الكريم كقوله – تعالى – : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِـمَّ خُلِـقَ * خُلِـقَ مِـن مَّآءٍ دَافِـقٍ * يَخْـرُجُ مِـن بَيْـنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَـادِرٌ ﴾ (الطارق / ٥ – ٨) ، فالله – سبحانه – قادر على ان يبعث الانسان لينال الثواب او العقاب بعد الحساب .

ثم يستأنف – تعالى – قائلا : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَـاصِرٍ ﴾ (الطارق / ٩ – ١٠) ففي ذلك اليوم عندما يعود الانسان الى ربه تـراه لايمتلـك قـوة ولا حولا يدافع بهما عن نفسه ، وليس هناك من ينصره ، ويدافع عنه .

ثم يعود - تعالى - ليقسم ثانية بالسماء والارض قائلا : ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ (الطارق / ١١ - ١٤) فهو - سبحانه - يقسم بالسماء التي يهطل منها المطر ، والارض التي تتشقق فيخرج من تحتها النبات ، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وماهي بمزحة نتفكّه بها ، فلنعيها جيدا ، ولنلمس من خلالها القدرة الهائلة اللامحدودة للخالق - تبارك وتعالى - لكي يزداد ايماننا به ، ونصوغ سلوكنا وفق منهجه الشامل .



كلمة التوحيد حصن اللـه

كلمة " لا اله الا اللـه " هي الاصل في كل خير ، وهي الحصن الـذي مـن دخلـه كان آمنا من العذاب ، فعندما نقول " لا اله الا اللـه " في كل صباح ومساء وعلى كل منعطف فان هذا لايعني انها مجرد كلمة تمرق من شـفاهنا ، بـل هـي موقـف ، وهـي صبغة الحياة التي قـال عنهـا - تعـالى - : ﴿ صِبْغَـةَ اللـّهِ وَمَـنْ أَحْسَـنُ مِـنَ اللـهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة/١٣٨)

ان كلمة التوحيد هي جهة التحرك وهي بالتالي تعبـير آخر عن قول الـمؤمن : " انا للـه وانا اليه راجعون " وانعكاس لقوله :

﴿ إِنـّي وَجَّهْـتُ وَجْهِـيَ لِلّذِي فَطَـرَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيـفاً وَمَآ أَنَا مِـنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/٧٩)

معرفة اللـه هدف الوجود :

فكل ما في الكون ، وكل ظاهرة في الحياة ، وكل حادثة يمر بها الانسـان صغيرة كانـت أم كبيرة تهدف هدفا واحدا وهو ان يصل الى معرفة الله - سبحانه وتعالى - ؛ فاذا تنفس الصبح فان هذا يعني انه يسبح بحمد الله ، واذا زالت الشـمس فـان زوالهـا يعني ان الشرك والضلالة يجب ان ينحسرا عن الدنيا ، وحتـى لـو أصـابك وجـع في ضرسك ، او ألم في رأسك ، او عثرة طفيفة على الطريق فان كل ذلك اشارات اليـك من رب العالمين لكي تنمو فيك معرفته ، وتتعرف عليه في كل شيء .

ترى لماذا كل هذه التحولات والتطورات في حياة الانسان ، ومـاهي الحكمـة مـن ورائها ؟

الهدف من كل ذلك هو ان نقترب من الله - عز وجل - ؛ فمن الناس من لا تقربـه عبادته الى ربه ، فيصلي بلا خشوع ، ويصوم بلا تقوى ، ويحـج بـلا تواضـع ، فيفـرغ العبادات المفروضة عليه مـن اهدافهـا ، ويحولهـا الى طقـوس خاويـة باليـة ، ومثـل هـؤلاء يجب ان يصطدموا بالحياة ، ويواجهوا احداثها القاسية لكي يتوجهوا الى الله - عز وجل - ، ويتوبوا اليه .

وعلى هذا فان على الانسان ان ينتفع من المشاكل التي تواجهه في الحيـاة ، فهـي تصقل حياته وروحه وتقربه مـن الله - سـبحانه وتعـالى - ، فالمشـاكل هـي معـراج الانسان الى الكمال الروحي ، ولذلك نجـد ان الله يبتلـي المؤمنـين بـأعظم البـلاءات حسب درجاتهم ، فالبلاء للأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فكلما كان الانسـان أقـرب الى المثل العليا كلما كان بلاؤه أكثر ، ولذلـك قـال النـبي (صلـى الله عليـه وآلـه) كلمتـه المشهورة عن نفسه : " ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت " .

فلـو كان الانسـان المؤمـن علـى رأس جبـل وحـده لبعث اللـه - تعالى - له عدوا

يؤذيه ، لان الايمان لايكتمل الا بهذا البلاء ، ولان الله يكنّ له الحب ويريد ان يكمل ايمانه ويزول الكبر والانانيات وسائر الادران الروحية من نفسه ، وتخلص نيته لله - جل جلاله - .

الايمان النافع :

ان الايمان الذي لاينفع الانسان عند البلاء والشهوات والصعوبات ، ولايزوده بالمناعة ، ولايمنحه التصلب والصمود عند هجوم المشاكل عليه ، انما هو ايمان عديم الجدوى . فنحن نطلب الايمان لكي يعطينا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والتربية المثلى في تطورات الحياة ، ولذلك فقد أخذ الله - سبحانه وتعالى - الميثاق من النبيين في عالم الذر بان يحملوا الرسالة ، ويتحملوا مسؤوليتها : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (الاحزاب/٧-٨)

اي ان الأنبياء عندما قبلوا ان يتحملوا مسؤولية تبليغ رسالات الله ، وأعطوا من أنفسهم الميثاق ، فقد طلب منهم الله - سبحانه - الاقرار ، واشهد عليهم ملائكته وهذا هو معنى الميثاق الغليظ الذي يستهدف معرفة الانسان الصادق في ايمانه ، الوفي بميثاقه في وقت الازمات والمصائب والمحن .

ثم يضرب الله - تعالى - لنا مثلا من واقعة بدر التأريخية فيقول : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (الاحزاب / ٩) ، وقد كان عدد المسلمين المقاتلين لايتجاوز ثلاثمائة وثلاث عشرة رجلا ، واذا بألف جندي مدجج بالسلاح يأتيهم وحينئذ أرسل الله اليهم جنوده ، وأمدهم بمدده الغيبي .

هذا بالنسبة الى معركة بدر ، واما في معركة الخندق والاحزاب فقد كانت الظروف اكثر صعوبة وتأزما على المؤمنين ، وعن هذه الواقعة يقول - عز وجل - : ﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ (الاحزاب / ١٠) اي انهم احاطوا بالمدينة ذلك لان القوى الداخلية - وهم اليهود - تآمروا على المسلمين بالاضافة الى قريش والقبائل العربية الاخرى .

ثم يقول - تعالى - واصفا حالة الهلع الشديدة التي اعترت المسلمين : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ (الاحزاب / ١٠) ، فالانسان عندما تنهار اعصابه تزيغ عيناه ، وعندما يدهمه الاحساس بالخوف والخطر يصاب بحالة يشعر معها وكأن قلبه قد انخلع من مكانه وارتفع الى حنجرته ، وحينئذ تبدأ الشكوك تساور النفس الانسانية ، ويقع الانسان فريسة لسوء الظن : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (الاحزاب / ١٠) .

ثم يبين - عز وجل - الحكمة من وراء هذا الابتلاء الشديد ، والاختبار الصعب في قوله : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (الاحزاب / ١١) ، فالابتلاء يعني اظهار ما في القلب ، واختبار لمدى قدرة الانسان المؤمن على الوفاء بالتزامات كلمة (لا اله الا الله) التي تعني تحطيم كل الاصنام الذهنية والنفسية ، ومحاربة هوى النفس والغرور والكبر والانانيات وما الى ذلك من اصنام داخلية ، فكل شيء غير الله يجب ان يسقط ويحل محله كل ما له علاقة به - تبارك وتعالى - .

واذا ما استطاع الواحد منا ان يسقط ويحطم كل تلك الاصنام ، وتمكن من ان يعرج في سلم السمو والكمال فحينئذ سيكون العبد الصالح الذي تستقبله ملائكة الله على ابواب الجنة .

وقد جاء في الروايات ان هناك قسما من الناس بمجرد ان يخرجوا من قبورهم

تفرش لهم الملائكة اجنحتها ، ثم يركبون على هذه الأجنحة ليدخلوا الجنة من دون حساب ، وفي الطريق تشاهدهم ملائكة أخرى فيسلمون عليهم ويسألونهم : من أنتم حتى تدخلوا الجنة من اوسع ابوابها ومن غير حساب ؟ ، فيجيبون قائلين : لقد كنا نتمتع في الدنيا بصفتين ؛ الاحسان ، والتسليم .

والتسليم يعني تفويض الامر الى البارئ – عز وجل – في جميع الظروف والاحوال ، وحمده وشكره على كل ما يأتي ، والترجيع ؛ اي قول " انا لله وانا اليه راجعون " عند نزول المصائب . فالانسان المؤمن صبور ، ممتلك لزمام نفسه ، شكور سواء كان ملك الملوك أم كان يعاني من الأمرين في السجون ، وهو في كل الاحوال في انتظار ما يقدر الله – عز وجل – ويخطط له تاركا التدبير له .

يوسف (عليه السلام) انموذج التسليم :

ولنا في هذا المجال قدوة حسنة بيوسف الصديق (عليه السلام) الذي مر في حياته بسلسلة متصلة من الاختبارات والابتلاءات الشديدة التي لايستطيع الانسان العادي الضعيف الايمان ان يتحملها ، فقد رمي (عليه السلام) في البئر واشتري وهو النبي العظيم بثمن بخس ، ثم تعرض للمؤامرات تلو المؤامرات في قصر العزيز ، واودع السجن نتيجة لاصراره وتمسكه بمبادئه وقد كان بأمكانه ان يحيا رافلا بالنعم الكثيرة لو انه تخلى ولو بمقدار ذرة واحدة عن رسالته ومبادئه ، ومع ذلك فقد أطلق هتافه التأريخي في وجه الاغراءات الدنيوية قائلا : ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ (يوسف/٣٣)

ولا شك ان التدبير الالهي هو الذي حمله على ان يمر بهذه المنعطفات حتى أوصله هذا التدبير اخيرا الى ذلك المقام الالهي الشامخ في الآخر ، والمنصب الرفيع في الدنيا .

ولذلك فان من المستحب للانسان المؤمن ان يقول دائما : " اللهم اغنني بتدبيرك

عن تدبيري " ؛ اي ان يطلب هذا الانسان من الله – عز وجل – ان يقـدر ويدبـر لـه ، لان تقديره – تعالى – افضل بالطبع من تقدير الانسان ، ولان الانســان لايسـتطيع ان يعلم الغيب ، ولايعرف ما سيحدث في المستقبل .

اهمية كلمة التوحيد :

وكل هذا لايمكن ان يحدث الا من خلال ايمان الانسان العميـق بكلمـة التوحيـد ؛ هذه الكلمة التي من شأنها ان تنمي صفة التوكل المطلق على الخالق – عـز وجـل – في النفس الانسانية ، فتجعل هذه النفس مطمئنـة بقـدر الله – تعـالى – راضيـة بـه ، شاكرة له في كل ما يقدر لها سواء كان هذا التقدير مما تميـل اليـه هـذه النفـس ، او مما تنفر منه وتستثقله ، وحينئذ سيدخل الانسان في حصن الله – تبــارك وتعـالى – المنيع في الدنيا والآخرة ، وسيكون مصداقا للحديث القدسـي الـذي رواه لنـا الامـام الرضا (عليه السلام) عن آبائه واجداده (سلام الله وصلواته عليهم اجمعين) عـن النـبي الاعظم (صلى الله عليه وآله) عن جبرائيل (عليه السلام) :

" كلمة لا اله الا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " .



هل ندخل حصن اللـه ؟

قال - عز وجل - في الحديث القدسي الشريف المروي عن الامام الرضـا (عليـه السلام) : " كلمة لا اله الا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " ، والكلمة هذه تدل على ان أسمى وأهم وأعظم اهداف الانسان في الدنيا هو هدف الاسـتقلال ؛ الاستقلال عن جاذبية الارض المتجسدة في الثروة والشهوة ، والاستقلال عن جاذبيـة الاجتماع المتمثلة في القوة والسـلطة ، وبالتـالي الاسـتقلال عـن كـل قـوة ضغـط او جاذبية تريد ان تحول الانسان الى اداة ، والى تابع بسيط يدور في فلكها .

والانسان - بطبعه - مقهور للطبيعة من حوله ؛ فهـو يحـس بـالجوع فيندفـع نحـو الطعام اندفاعا ، كما يضر به العطش فيبحث عن ماء يروي بـه عطشـه هـذا ، ويـأخذ التعب منه كل مأخذ فيبحث عن مأوى يأوي اليه فيستريح ، ولو ان هذا الانسان ترك نفسه فانه يصبح بعد حين جزء من عملية تناول الطعام والشراب ، وبتعبير آخر ؛ قمرا

يدور في فلك الطبيعة حيث دارت .

بالإرادة نتحرر :

وهذا الانسان انما يستطيع ان يجعل نفسه بمنجى من هذا الفلك الذي يدور به اذا استخدم ارادته وقرر ان يعيش كما يريد لا كما تريد الطبيعة ، فالطبيعة تريد مني ان ابحث عن الخبز ، والخبز هذا مضمون اذا كيفت نفسي مع المجتمع ، وعشت كما يريد ، والا فإنني سوف لن أحصل على طعامي وحينئذ لا أستطيع ان أحصل على شيء فيستعبدني المجتمع .

اننا نجد ان هناك عادة اناسا يستخدمهم الطاغوت والمجتمع الفاسد ، ويقومون بممارسات خاطئة في الحياة ، واذا ما سألتهم عن سبب استسلامهم هذا قالوا لك ان معيشتهم تفرض عليهم ان يقوموا بهذا العمل او ذاك .

وهناك اناس آخرون يخوضون حيث خاض الناس لانهم يخشون من سيطرة المجتمع من جهة ، ويريدون ان يكيفوا انفسهم مع طبيعة هذا المجتمع من جهة اخرى .

هذا في حين ان الانسان المؤمن يكون دائما في حالة تحد لضغط المجتمع ، والطبيعة لانه يؤمن بكلمة (لا اله الا الله) ؛ اي ان القوة التي يجب ان يتبعها ويستسلم لها من دون قيد او شرط هي القوة الوحيدة في الكون وبعبارة اخرى ، هي حاكمية الله ، وولايته - سبحانه وتعالى - ، وولاية الله هي ولاية الحق ، وولاية الحق هي ما يوحي به العقل ، وما اوحى به الله - تبارك وتعالى - للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين - .

وهذه هي خطة الحياة المستقيمة ، فاذا نبذت جانبا نفسك ، وعقلك وتركت - بالتالي- الحق ، وولاية الله - سبحانه وتعالى - ، فانك ستصبح ذليلا ، مستسلما بل اداة في جهاز كبير لاتحس فيه بذاتيتك وجوهرك .

واذا اردت عزا بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فما عليك الا ان تخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته ، وطاعته - تعالى - هي الخضوع لولايته الاحدية ، وهي تعني بالطبع رفض جميع الآلهة والانداد والشركاء من دون الله - تبارك وتعالى - ، ورفض تلك القوى التي تستعبد الانسان ، والوقوف في وجه قوة الشهوة والثروة من جهة ، وقوة الارهاب والسلطة من جهة اخرى .

وكما قلنا فان قوة الثروة والشهوة تمثلا جاذبية الطبيعة في حين ان قوة السلطة والارهاب تجسد جاذبية المجتمع .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : كيف وبأية وسيلة يستطيع الانسان ان يضمن استقلاله ؟ ان طبيعة الحياة تستعبدك ، وكل فرد من ابناء المجتمع يفرز من حولك جاذبية تحاول ان تستقطبك وتستعبدك بالتالي ، فكيف تستطيع ان تنقذ نفسك من ضغط الجاذبيات المختلفة الموجودة في الانسان نفسه او في الطبيعة ؟

للاجابة على هذا السؤال نستعير مثالا من عالم الطبيعة فنقول : كيف تستطيع قطعة من الحديد ان تنقذ نفسها من جاذبية الارض ؟ اننا نعلم ان في علم الفيزياء قانونا يقول ان أية كتلة في الطبيعة تمتلك جاذبية بقدر وزنها ، فكلما كانت الكتلة اكثر كثافة كلما كانت جاذبيتها أكثر وأعظم ؛ فالارض لها جاذبية ولكن جاذبيتها تعتبر تافهة بالنسبة الى جاذبية الشمس ، فالكتلة هي التي تقرر الجاذبية حسب كثافتها . ترى فكيف يكون بامكان قطعة الحديد ان تتخلص من جاذبية الارض ؟ هذا السؤال يجيب عليه علم الفيزياء فيقول : ان ذلك ممكن من خلال الحركة ؛ فكلما كانت حركة قطعة الحديد أكثر وأسرع استطاعت ان تخفف من وطأة جاذبية الارض عليها .

الحركة والنشاط ضمانتنا التحرر :

و هكذا الحال بالنسبة الى الانسان ؛ فكلما كان أكثر حركة ونشاطا كان أقدر على

دفع الجاذبيات والضغوط من حوله وخلق جاذبية جديدة ، فالانسان المؤمن لايتحرك ويستقل عما وعمن حوله فحسب بل انه يحمل معه موجة من الجاذبية تستقطب الآخرين وتنقذهم من عبودية الشهوة والثروة ، او الخضوع للقوة والسلطة وهذه هي سنة الله – تعالى – في الطبيعة ، وسنة الحياة في عالم الانسان .

انك – ايها الانسان – اذا اردت ان تجسد في ذاتك مفهوم (لا اله الا الله) وتخرج من ضغط الطبيعة ، وعبودية الانسان للانسان ، فعليك ان تخرج من اطار معصية الله – تعالى – الى رحاب طاعته ، ومعصية الله ان تترك نفسك وتهملها ، وطاعته ان تتعبها وتجهدها في سبيله ، فهذه الطاعة لايمكن ان تكون الا بالتحرك الأسرع فالأسرع ، فان لم تكن ساعيا بسرعة فان حقوقا كثيفة ومتراكمة سوف تحيط بك .

حقوق عملية :

اننا عندما نقرأ رسالة الامام زين العابدين (عليه السلام) في الحقوق نجد ان كل هذه الحقوق هي حقوق عملية تحتاج الى الإداء والعمل والنشاط ، اما الانسان الكسول فانه يضيع حق الله – عز وجل – والناس ، فعندما لاينهض مبكرا في الصباح ولايؤدي الصلاة فانه يضيع حق الله ، وعندما لايذهب الى العمل فانه يضيع حق عائلته ومجتمعه ، وقد جاء في الحديث الشريف : " ملعون ملعون من ضيع من يعول "[1] وفي حديث آخر له (صلى الله عليه وآله) : " ملعون من ألقى كله على غيره "[2] .

ترى كيف يلقي الانسان كلّه على الآخرين ؟ رسول الله (صلى الله عليه وآله) يضرب لنا مثلا في اولئك الذين كانوا معه والذين صام طائفة منهم بينما قام الآخرون بخدمتهم عند الافطار ، فأكد (صلى الله عليه وآله) على ان الثواب قد كان من

---

(١) بحار الانوار ج ١٠٠ ص ١٣ رواية ٦٢

(٢) بحار الانوار ج ٧٤ ص ١٤٢ رواية ١

نصيب المفطرين لانهم تحركوا ، وخدموا الصائمين ، صحيح ان الصوم يعني ان يبذل الانسان جهدا لمقاومة جاذبية الشهوة ولكنه قد يكون استسلاما للركود والسكون ، ولذلك فان الانسان الذي يتحرك هو الذي يحصل على الثواب الاكثر ، ويا حبذا لو كانت هذه الحركة مقرونة بالصوم .

وعلى هذا فان الحركة هي مقياس مدى خروج الانسان من عبودية ما حوله ، فالانسان الاكثر نشاطا وحركة هو الأقدر على تحقيق الاستقلال ونيله ، والانسان انما يحتاج الى الآخرين بسبب حرصه وطمعه ولذلك يقول الحديث الشريف : عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما سأله فأي ذل أذل قال الحرص على الدنيا ... [1] ، اما الانسان الذي يمتلك السعي والحركة فانه لايحتاج الى احد بل ان الناس هم الذين يحتاجون اليه .

الإحسان نوع من الحركة :

ترى لماذا اختار الله - سبحانه وتعالى - انبيائه (عليهم السلام) من بين المحسنين ، ولماذا قال - تعالى - في أكثر من موضع بعد ان تحدث عن الانبياء : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الانعام/٨٤) ، الجواب نجده في جانب من قصة موسى (عليه السلام) وذلك عندما يذهب الى مدين ، وعندما يصل الى هذه المدينة وقد انهكه التعب والجوع ويرى تينك الفتاتين تذودان من أجل ان تسقيا اغنامهما ، ثم واذا به يأوي الى الظل ويرفع يديه الكريمتين الى السماء قائلا : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القَصَص/٢٤) ، فلا يفكر في تلك اللحظات انه جائع وغريب ، ولايفكر انه طريد تلاحقه قوى الطاغوت بل يفكر كيف يقدم خدمة ، وكيف يتحرك ، فينبري الى مساعدة الفتاتين ، وهذا هو الاحسان الذي يمثل الحركة في الجانب الاكبر منه .

---

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ١٦١ رواية ٤

والانسان المحسن هو الذي يهتدي ويحصل على الرحمة والفلاح والسعادة كما يؤكد على ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ الم * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لُقمَانَ/١-٣)

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : اننا كلنا نطمح في ان نكون متحركين ونشيطين ولكن الحاجات المادية ، وعقبات المجتمع تقف حائلة بيننا وبين التحرك الاكثر فاعلية ونشاطا ، فكيف ياترى يعمل الانسان ؟ ان جسمه بحاجة الى الراحة فهو يجوع ويمرض ويتعب ، ومن جهة أخرى فان الانسان عندما ينوي العمل فانه لايجد من رفاق عمله سوى التثبيط والدعوة الى التكاسل والتقاعس ، فهناك في المجتمع سواء في مجال التحرك الاسلامي أم المادي عناصر نشطة وأخرى كسولة تقف عقبة امام الانسان ، فكيف يستطيع ان يتجاوزهم ، وهل يعمل معهم أم على انفراد ؟ فان اراد ان يعمل لوحده انطبق عليه الحديث الشريف : " الشاردة للذئب " واذا ما اراد ان يعمل مع الآخرين فانهم سوف يحددون حركته .

للاجابة على هذا التساؤل نطرح ما سبق ان اكدنا عليه وهو ان تجربة الانسان في الدنيا ليست تجربة عضلاته فقط وانما ايضا تجربة عقله وارادته ؛ فالارادة تتحدى ، والعقل يفتح الطريق ، فعندما يكون عقل الانسان كاملا ، وعندما لايدع الانسان شيئا دون ان يفكر فيه تفكيرا جديا كما يقول الامام علي (عليه السلام) في وصيته لكميل : " يا كميل إعلم أنه لابد لك في كل جولة من فكرة " ، وعندما يكون فكر الانسان هو الذي يحدد مسيرته ، فانه سيكون مديرا جيدا ، فالانسان لايتحدى ولايتجاوز العقبات بجسمه وعضلاته فقط ، فقد يكون الانسان ضعيف الجسم ولكنه يستطيع بعقله ان يتجاوز الكثير من الصعاب والعقبات .

عقبات ليست مستحيلة :

وهكذا فان العقبات التي تعترض طريقنا ليست مستحيلة التجاوز اذا استخدمنا

عقولنا ، ولذلك فعلى الانسان ان يكون مديرا ومدبرا اذا أراد ان يكون مستقلا ، وأراد ان يضمن استقلاله ، ويطبق على نفسه واقع كلمة التوحيد ، ويدخل في هـذا الحصـن المنيع .

صحيح ان الجسم بحاجة الى راحة ولكن على الانسان ان يدير هذا الجسـم لا ان ينام الساعات الطويلة بحجة ان الجسم بحاجة الى راحة ، ولقد أثبت العلم الحديـث ان تجزئة النوم تؤدي الى راحة الجسم ؛ اي اننا باستطاعتنا ان ننام بصورة متقطعة لا ان نستمر في النوم لفترة طويلة ، فالعلم والتجربة أثبتا ان الانسان باستطاعته ان يأخذ قسطا قليلا من الراحة ثم يتابع بعد ذلك عملا مجهدا .

وهكذا الحال بالنسبة الى الاكل فان الجسم بحاجة اليه ايضا ولكن ليـس كـل مـا يستهويه مذاقك هو الافضل لجسمك بل حاول ان تبحث عن الطعـام الخفيـف الـذي ينفع جسدك ، فما الفائدة من امتلاء البطن بالأكل اذا كان يسبب انواع الامراض ؟

وبناء على ذلك فاننا بحاجة الى ان نبحث عن الاسلوب المناسب لادارة اجسامنا ، فعندمـا تكـون الادارة قويـة في مملكـة الجسـد فـان الانسـان سيسـتطيع ان يلـبي احتياجات جسمه بالشكل المطلوب .

ونفس الشيء يمكن ان يقـال عـن ادارة المجتمـع المـحيط بنا هذا المجتمع الـذي يمثل هو الاخر عقبة لايسـتطيع الانسـان اختراقهـا بسـهولة ، وفي هـذه الحالـة عليـه ان يتلطف في تجاوز وتذليل هذه العقبة ، وقد استخدمت هذه الكلمة (التلطف) في القرآن في قصة اصحـاب الكهف عندما أمروا بـأن يتلطفـوا في تجـاوز المشـاكل الاجتماعيـة الـتي تصـادفهم وذلـك في قولـه – تعـالى –: ﴿ وَلْيَتَلَطَّـفْ وَلاَ يُشْـعِرَنَّ بِكُـمْ أَحَـداً ﴾ (الكهف/١٩)

و (التلطف) يعني ان هناك طرقا واساليب باسـتطاعة الانسـان البحـث عنهـا في سـبيل مواجهة وحل المشاكل التي يواجهها في حياته ، ولذلك نقـول ان الانسـان باسـتطاعته ان يقفز فوق العقبات ويتجاوزها دون ان يثير غضب الآخريـن بـل وحتـى دون ان يشـعرهم

بذلك ، فباستطاعة الانسان في كثير من الامور ان يتسلح بسلاح التلطف والكتمان وحينئذ سيكـون بمستطاعه ان يتجـاوز الكثير مـن العقبات الاجتماعية كما يقول – تعالى – على لسان أحد اصحاب الكهف : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ .

ادارة النفس طريق الاستقلال :

فاذا اردت ان تحافظ على استقلالك فعليك ان تعرف كيف تدير نفسك ، فالانسان كـان سابقا محكوما بالبرد والحر والجوع والعطش والألم ولكنه اليوم استطاع ان ينقذ نفسه من هذه الحتميات ويتحرر من ضغوطها عن طريق النشاط والعقل والادارة ، وعندمـا اسـتطاع هذا الانسان ان يدير الحياة ، ويستخدم اجهزته ضدها فانه قد انقذ نفسه من جاذبيتها .

ومن هنا فاني ادعو الاخوة الرساليين الى البحث الجـاد عـن اسـاليب الادارة لانفسـهم ولما حولهم ، وقد تكون هذه الادارة علما تقرأه في الكتب ، وقـد تكـون فنـا تتعلمـه في مدرسة الحياة ، فاذا توفرت الارادة والعقل والتفكير فانه ليس بإمكان شـيء ان يعجـزك ، فكل الحياة ستأتيك طائعة ، وحينئذ سوف تستطيع ان تصل الى قمة الاستقلال .

وهذه الدعوة ليست موجهة الى الافراد فحسب ، فالتجمعات التي تكون نشيطة ومديـرة ومدبرة فانها تستطيع ان تحافظ على استقلالها ؛ فالتجمع الذي يرفـض الشـرق والغـرب ، ويستجيب للاسلام بكل قوة واصرار ودون ان تكون استجابته هذه شعارا فارغا فهـو انمـا يجسد هذا الشعار ضمن الافراد ايضا ، فالله – سبحانه وتعالى – يقـول : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ (التوبة/١٢)

ومثل هذه الحركات هي حركات نادرة لانه ليس من السهل ان تقول (لا اله إلا الله) ، وان تخرج نفسك من جاذبية الطبيعة وجاذبية المجتمـع البشـري ، وليـس مـن السـهل ان تقف لوحدك امام العالم كله ، بل انت بحاجة الى من يعينك ، ويقف الى جانبك .

ان القرآن الكريم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُـن فِتْنَـةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِـيرٌ ﴾ (الانفـال/٧٣) ، فلمـاذا لانعلـن رفضنـا القـاطع لكـل القـوى

الاستكبارية ، وممم نخاف ، ولماذا نتصور اننا لانمتلك القوة ؟ الجواب : لاننا لم نتحـرك ، ولم نعمل ، ولم نسع ، ولم نتجاوز العقبات ، في حين ان الحركة هي مفتـاح الاسـتقلال ، والانسان الذي يمتلك العقـل والارادة ، ويتمتـع بالحركـة والادارة فانـه يكـون قريبـا مـن الاستقلال ، ومن تطبيقه كما يقرر ذلك الحديث القدسي :

" كلمة لا اله الا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " .



الفصل السادس

كيف نوطد العلاقة مع بارئنا ؟

لاريب في ان خلاصة اهداف الرسالات الالهية بنـاء العلاقـى الوطيـدة بـين العبـد وخالقه ؛ بين قلب هذا الانسان وروحه وبين بارئ هذا القلب ونـافخ الـروح - جـل شأنه - . فالرسالات السماوية قاطبة تسعى سعيا حثيثا من أجـل ان توجـد الآصـرة القوية المتينة بين حياتنا الدنيا المادية الـتي نخـوض غمارهـا ، وبـين الآخـرة الـتي سنستقبلها عند انقضاء الآجال ، وحلول ساعة الـموت . وهذه هي زبدة الاهداف التي تبتغيها وتصبو الى تحقيقها في وجودنا رسـالات الله - سـبحانه - ورسـله ، وانبيـاؤه (عليهم السلام) .

ومع ذلك فان الانسان عندما يبتعد ، وينأى عن عالم الروح التي تحن الى السـمو والكمـال ، فانه سيبتعـد - بالطبع - عـن الرسالات الالهية واهدافها الخيرة ، فيتحول

الى كيان هزيل تذروه الرياح ، وتهوي به في وديان سحيقة مظلمة ، ويغدو ضحية اخطبوط الاهواء والشهوات الممتدة اذرعه الى كل زاوية من زوايا النفس الانسانية ، وحينئذ ينطبق قوله – تعالى – عليه : ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج/٣١) .

زكريا انموذج الروح السامية :

والقرآن الكريم ، هذا الكتاب السماوي الخاتم الذي يحمل بين دفتيه مضامين الرسالات الالهية جميعا ، ترسخ آياته ، وتؤكد تلك الروح المعطاء ، والمعنويات الرفيعة السامية . وفي هذا الصدد يذكر لنا القرآن قصة زكريا (عليه السلام) ، ذلك العبد الصالح المطيع لله – تعالى – ، والذي اخلص له في العبودية والطاعة فعبده ، وسجد له حتى وهن العظم منه ، واشتعل رأسه بالشيب شاهدا على اخلاصه في العبادة التي وسمه الله – سبحانه – بها . فما اعظمها ، وأنبلها من سمة سمائية كريمة ان يتصف الانسان بصفة العبودية الخالصة والطاعة اللامحدودة لله ، لا للنفس الامارة بالسوء ، والشيطان ، وعالم الاهواء الرخيصة ، والشهوات المبتذلة ، ولا لشياطين الانس من طغاة وفراعنة ونماردة متجبرين ، بل هي دائما وأبدا لله الواحد الأحد الفرد الصمد .

علاقة الرحمة :

وفي الحقيقة فان هذه هي العلاقة الوثيقة الخالصة حيث يعبر عنها – تبارك وتعالى – بعد ان يذكر حروف النور : ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ (مَريم/١-٢) . فالعلاقة التي يجب على الانسان ان يجهد نفسه ، ويبذل جل سعيه من اجل بلوغها هي علاقة الرحمة التي هي بمثابة الجسر الممتد بين العرش الالهي وعباد الله – جل جلاله – . والملاحظ في هذه الآية الكريمة انه – تعالى

شأنه - استخدم لفظة (الرحمة) بين ذكره العلي ، وعبده الولي زكريا . فلم يقل (ذكر ربك) بل قال : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ﴾ ، ذلك لان الرحمة هي الرابط والآصرة بين العبد وربه . فهو - سبحانه - يريد تأكيد المعنى الواسع في ان الذكر هذا انما يتجلى في الرحمة المنفردة بخصوصيتها لكونها آتية من رحمان رحيم ، وفي بحبوحتها ، و رياضها الوارفة عاش العبد الصالح المؤمن زكريا عندما ناجى ربه بتلك المناجاة ، ودعاه بذلك الدعاء من القلب الى السماء حيث العلي الأعلى . فكان نداء ينطلق من اعماق الانسان ، وسر من اسراره لم يسمعه احد إلا السميع العليم ، وخفيا يتسرب من ذلك العمق في كيان النفس الانسانية ، حيث يقول - تعالى - : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ﴾ (مَريم/٣) .

النداء الصادق :

اي نداء صادقا لا كذب ، ولا نفاق ، ولا خداع ، ولا رائحة للوساوس الشيطانية فيه . وهذه هي مواقف الضراعة والتبتل والخضوع والتقرب الى الله - تعالى - عند تأثر القلب ، وذوبانه بالخشوع ، والخوف ، والتقوى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ (مَريم/٤) ، ذلك الانسان قد يقسو قلبه ، وتكسوه غشاوة تحجب عنه النور الالهي ، وضياء البصائر بما يركن اليه من متاع الدنيا ، وبما يعشش في نفسه من ادواء الغرور والكبرياء ، في حين ان النور عندما يسطع على القلب الكسير ، والنفس المتضرعة وينعكس دموعا سيالة ، فان هذا النور ، وتلك البصائر سوف تخترق ذلك القلب ، وتزوده بنبض الحياة الحقيقية : حياة النبل ، والكرامة ، والايمان .

انكسار القلب مقياس القرب :

ولذلك فان انكسار القلب ، واستشعار الخشوع الذي يملأ جوانب النفس يمثلان

العلاقة التي تدل على قرب الانسان ، ودنوه من بارئه الجليل ، وفيض رحماته التي لا تنقطع . فالله – تعالى – ليس ببعيد عن الانسان ، بل ان الانسان هو الذي يبتعد عن الرحمان الرحيم بغروره وكبره وركونه الى الشهوات والملذات ، ولذلك جاء في الدعاء والمناجاة الشريفة لاهل بيت العصمة (عليهم السلام) قولهم :

" وانك لا تحتجب عن خلقك الا ان تحجبهم الاعمال دونك وان الراحل اليك قريب المسافة " .

ويعزز قولنا هذا الحوار الذي دار بين الكليم موسى بن عمران (عليه السلام) ، والعليم الحليم رب السماوات والارضين ، فقد سأل موسى (عليه السلام) ربه قائلا : يا رب اين انت ؟ فأجابه – جل وعلا – : انا عند المنكسرة قلوبهم . وهناك شهادة اخرى تعكس هذه الحقيقة ، حقيقة دخول النور القلب عند انكساره حيث روي عن الامام الرضا (عليه السلام) انه قال : اقرب ما يكون العبد من الله عز وجل وهو ساجد وذلك قوله عز وجل : " واسجد واقترب " [1] فالعبد الساجد لله الممرغ جبهته بتراب هذه الارض التي منها خرج واليها يعود تارة اخرى ، يعيش حالة عظيمة من الذوبان في الله ، فتستشعر كل خلية من خلايا جسده ، وكل نبضة من نبضات قلبه الخشوع والضراعة . ولذلك قال زكريا (عليه السلام) : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً** ﴾ . فها أنت تعلم يا رب وترى كيف اني طلقت الحياة الدنيا ، وجعلتها وراء ظهري ، فهاهي الخطوات متسارعة للقاء وجهك الكريم ، وهاهو الاجل قد دنا مني ، وليس عندي من يخلفني في حمل عبئ الرسالة . وهذا هو مضمون ما دعا زكريا به ربه ، فطلب منه ان تستمر الرسالة ، وان يكون له من يحملها بعده خصوصا وانه لم يكن يمتلك جاها ولا مالا

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٦٥

ولا بنين ، بل هو وريث يحمل ويتحمل الرسالة الالهية ومهامها الشاقة التي من أجلها أفنى ربيع عمره .

ثم تستمر المناجاة مع الخالق وبيان علة الطلب : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِي ﴾ (مَريم/٥) ؛ فلقد خشيت يا رب ان يحبط هؤلاء بي كما يحيط من هم امثالهم بكل الاولياء والصالحين محاولين الانتفاع وكسب ثقة الناس بهم من خلال استغلال مظلة اولئك الاولياء والصالحين منتظرين الفرص ، ومتربصين بهم الدوائر صفاتهم الحميدة لفرض وجودهم على الامة .

لماذا طلب زكريا الولد :

ثم يستأنف زكريا دعاءه قائلا : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً﴾ (مَريم/٥) ، وقد يكون امرا عاديا وشائعا بين الناس ان يطلبوا من الله - جل وعلا - ان يرزقهم من طيبات رزقه ، ورحماته ، ونعمه التي لا تحصى ، كأن نطلب ان يرزقنا شيئا من المال او الاولاد او الزوجة الصالحة او النصر والتقدم والازدهار وغير ذلك مما تقوم به حياة الانسان على الارض ، ولكن الغريب والعجيب ان يدعو زكريا ربه ليرزقه الولد وهو يعلم ان امرأته عاقر عقيم ، وربما هو نفسه اصبح عقيما بعد ان هرم ووهن العظم منه ، واشتعل رأسه بالشيب ، فلم يعد ممن يرجو ان يخرج منه خلف يرثه . وهذه هي النقطة المهمة الاولى من الدعاء ، اما النقطة الثانية فتتمثل في انه يريد ان يكون له من يرثه ، وهذه الوراثة ليست ككل وراثة متعارفة ، فالارث الذي قصده هذا النبي هو من نوع آخر ، فهو ارث ممتد غير مقتصر عليه ، حيث قرنه بارث السابقين الصالحين من آل يعقوب ولذلك قال (عليه السلام) : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ (مَريم/٦) . فالارث المقصود هنا هو الارث المعنوي ؛ ارث المبادئ والمثل والقيم الخيرة الصالحة ، وباختصار فانه ارث الرسالات السماوية ،

فزكريا (عليه السلام) انما اراد الامتداد والاستمرار للخط الرسالي الذي تبناه من قبل آل يعقوب والذي يعتبر زكريا القائم به في عصره . فهو انما اراد وصيا يتكفل بمهام ومشاق الدعوة الرسالية ، ويتحمل هذه الامانة الالهية بصبر وعزم وثبات .

الوصي الرضي :

وبالاضافة الى ذلك فانه (عليه السلام) لم يقصر دعاءه على مجرد الوارث ، بل دعا له بالمنقبة ، والفضيلة الشاملة التي تكمن في طياتها جميع الخصال ، وتتفرع منها كل الصفات الحسنة ألا وهي ان يكون رضيا ، حيث يقول زكريا : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ (مَريم/٦) . فهو (عليه السلام) عندما دعا ربه فانما دعاه لكي يكون وصيا له اولا ، ولكي يتصف هذا الوصي بالرضا ثانيا . فهو (اي زكريا) نبي يعلم ان الله - سبحانه وتعالى - لا يمكن ان يترك خلقه بدون تبليغ رسالي ، ويدعهم لحالهم من غير وصي يكون حجة بالغة عليهم يوم القيامة ، ولذلك فان دعاءه كان منطلقا من هذا العلم ، ثم انه عندما دعا الله - تعالى - ان يجعله مرضيا فانه يعلم حق العلم ان الامم وانطلاقا من آفة الجهل والاستعلاء سوف تخالف وتعارض ، بل وربما تقارع انبياءها ، ولا تتقبل دعواتهم . وهذا الامر لا يقتصر على الانبياء ، بل يمتد الى الاوصياء فهم ايضا يقفون داعين الى الله - تبارك وتعالى - بالموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، فان لم ينفع هذا الاسلوب فبالسيف والجهاد في مواجهة ردود الفعل السلبية للامم تجاه رسالات الله ، ولذلك كان الدعاء الثاني يدور حول ان يكون الوصي راضيا بقضاء الله وقدره ، صابرا على بلائه لكي يؤمن الناس برسالته ودعوته فيكون مرضيا عندهم .

الاستجابة الالهية :

وبناء على ذلك فان زكريا (عليه السلام) دعا الله - جل وعلا - غير آيس ، ولا

قانط من رحمته رغم انه يعلم العجز في نفسه وزوجه . وانطلاقا ايضا من العلم بالسنة الالهية القاضية بحتمية الوصي والحجة على الخلق ، ولذلك جاءت الاستجابة التي لا تعجز الله ، فهو رب المعاجز ، وهو الذي اذا اراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ، فجاءت الاستجابة تحمل على اكتافها البشرى :

﴿ يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (مَريم/٧)

فاسم يحيى (عليه السلام) مشتق من اسم الخالق ، فهو سميّ الجليل ، والحي الذي لا يموت ، والباقي بعد فناء كل شيء ، الازلي الأبدي الذي لا يحده زمان ولا مكان . صحيح ان الله - تبارك وتعالى - يكره ان يسمى احد باسمائه المختصة بذاته ، ولكنه - كما يتضح لي - اراد من هذه التسمية الاشارة الى الحياة الأبدية الخالدة لهذا النبي ، لانه - سبحانه - يعلم في علمه الازلي ما الذي سيجري على هذا النبي الوصي ، وما سيلاقية من اذى الطواغيت ، وقد كان علمه حتما مقضيا حيث استشهد هذا النبي بتلك الطريقة الدموية المفجعة ، فجاء اسم سميّة مشتقا من حياة الخلد (يحيى) رغم ان الانسان لم يكتب له الخلد ، فلابد له من أجل كما يقول - تعالى - : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (الانبياء/٣٤)

فالخلود - اذن - مختص بالله - تعالى - ، والفناء بخلائقه ، ولكن هذا الخلود الالهي والحياة الربانية كتبتا ليحيى (عليه السلام) لانه قد استشهد في مواجهة الشرك ، ومن اجل ان يعبد الله - تعالى - وحده .

ثم يمضي السياق مستعرضا القدرة الالهية وذلك من خلال قول زكريا مخاطبا ربه :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ (مَريم/٨-٩) .

العبادات جسور الى الحضرة القدسية :

وهكذا فان الدعـاء ، والمناجـاة ، والصـلاة ، والسـجود للـه ، وسـائر العبـادات ، والطاعات ، والاخلاص للخالق - تعالى - هي الجسـور الـتي توصلنـا الى الحضـرة القدسية ، والجلال العظيم عند ذي العرش ، ولذلك فمن بـات عارفـا ومدركـا اهميـة وقيمة تلك الكنوز ، وخاصة في مجال الدعاء والمناجاة فسوف يحيى مصونا لا تهزه الهزائز ، ولا تعصف به العواصف ثابتا كالجبل الاشم ، وذا مناعة من وساوس النفـس والشيطان ، ومغريات الهوى والشهوات والكبر .

وفي الحقيقة فان هذا هو الهدف المتوخى من كل انواع الدعاء والمناجاة التي منها الاستعاذة والاستغفار والتوكل والتوسل الى الله - تعالى - بوسائل العصمة ، والتشـفع بها . فالأئمة (عليهم السلام) هم الوسائل ، والسبل الواضحة ، والابواب المفتحة الـتي توصلنا الى عالم القدسية والرحمة والمغفرة الالهية . وفي هذه اللحظات عندما يجمع الشيطان جنوده الكامنين في معسكر النفس الامـارة بالسـوء للهجـوم علـى الانسـان المؤمن ، يتجلى حينئذ أثر التوكل والدعاء والاستعاذة والاستغفار وسائر انواع التوجه الى الله - سبحانه - في صد تلك الحملات .

منزلة الدعاء في العبادة :

والدعاء له كيانه الخاص في العبادة ، فلا يستهينن احد منا بالدعاء . كلا ، فالدعاء هو احب شيء الى الله ، فهو الذي يأمرنا به مباشرة في قوله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر / ٦٠) ، فالدعاء هو مخ العبادة ، واولئك الذين يولون ظهورهم للدعـاء يصفهم الله بانهم يستكبرون في قوله :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر/٦٠) ، فمع وجـود هـذه النعمـة الالهيـة ، نعمـة

الدعاء ، نجد في احيان كثيرة ان هذا الانسان الجاهل لهذه النعمة ، وثمارها العظيمة ، هذا الانسان الغافل لا يلتفت الى هذه الجوهرة التي منحها الله - سبحانه - له فيغفل عنها ، او يتغافلها .

مقاييس استجابة الدعاء :

فلندع الله ، ولا نبخل بهذه النعمة العظيمة على انفسنا ، فهو - سبحانه - اعلم منا بما في نفوسنا ، فان لم يستجب الدعاء احيانا فانما لمصلحة لنا لا ندركها ، او ربما لان الدعاء لم يكن صادرا منا بصدق كأن لا ينسجم مع افعالنا ، وتصرفاتنا ، وسلوكنا في الحياة ، وهذا هو المراد من الصدق في الدعاء .

وفي احيان اخرى يستجيب الله - جل جلاله - لنا بالفعل ولكننا لا تلمس أثر ذلك في حياتنا الدنيا ، بل يدخر ذلك لنا يوم القيامة حيث جاء في الرواية عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان المؤمن ليدعو الله عز وجل في حاجته فيقول الله عز وجل اخروا اجابته ، شوقا الى صوته ودعائه ، فاذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل : عبدي ! دعوتني فأخرت اجابتك وثوابك كذا وكذا ودعوتني في كذا وكذا فاخرت اجابتك وثوابك كذا وكذا ، قال : فيتمنى المؤمن انه لم يستجب له دعوته في الدنيا مما يرى من حسن الثواب .[1]

وبناء على ذلك فان علينا ان ندعو الله - تبارك اسمه - في كل الاحوال ، فان لم ننل الاستجابة في الدنيا فانه مذخور لنا في الآخرة كما يقول - تعالى - : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضّحى/٤٥) وكما يقول - تعالى - : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (الشّورى/٣٦) . وهذه شهادات الهية توحي بهذا المعنى ، فلندع الله ،

---

[1] الكافي ج ٢ ص ٤٩٠ رواية ٩

ولنلح عليه بالدعاء فهو – سبحانه – يحب العبد الملحاح ، فهــو رحيـم رؤوف ودود يحب السؤال ، والالحاح فيه ، وعلينا ان لا نتصور ان الله قد اصم اذنه عنـا ، فحاشـى له ان لا يسمع عبده وهو السميع العليم بـذات الصـدور ومكنوناتهـا . فهـو – تبـارك وتعالى – يحب الدعاء منا ، والالحاح في الطلب ، ففي ذلك مزرعة للثواب الذي هو خير وابقى ، فالخالق قد يمنع الاجابة ، او يؤخرها ليزداد ثوابـك ، وتنمـو نفسـك في جو الخضوع والخشوع لله الذي يربـو فيـه ثـواب تضرعـك وبكـاؤك ودموعـك مـن خشيته وهول عذابه وناره .

وفي الحقيقة فان هذا هو سلم من السلالم التي نبلغ بها الكمال ، فلندع جانبا هـذا التولي والعناد والتبغض مقابل ذلك التجنب وتلك الدعوة كما يشير الى ذلـك الدعـاء الشريف : " انك تدعوني فاولي عنك ، وتتحبب الي فاتبغـض اليك ، وتتودد إلي فلا أقبل منك " فلنحذر من ان تنطبق علينا هـذه الحالـة ، ولنحـاول ان نزكـي انفسـنا ، ونحدث التغيير فيها اولا لكي يكون بامكاننا حينئذ ايجاد التحوّل الايمـاني المطلـوب في العالم .



الفصل السابع

الايمان بلقاء اللـه منبع الفضائل

لكي نعرف شيئا ما معرفة تامة لابد ان نعرف نهايته وعاقبته ، فاذا أردنـا ان نختـار نمطا في الحياة ونسلك مسلكا معينا فلا مناص لنا مـن ان نتسـاءل : الى أيـة عاقبـة ينتهي هذا النمط او المسلك ؟

ان هذا التساؤل يمثل فطرة انسانية . وسنة عقلائية معروفة ، فـاذا أردنـا ان نختـار منهجا في الحياة يتعين علينا قبل ذلك ان نتساءل عن نهاية هذه الحيـاة ، وهـل هـي خالدة أم محدودة ، وهذه هي المنهجية الصحيحة لمعرفة الدنيا والحياة المثلى فيهـا ، ولكن البعض من الناس يستحبون ويفضلـون الدنيـا علـى الاخـرة وينكـرون وجـود الآخرة ، فالافضل اذن – حسب تصورهم – ان نتمتع بهذه الدنيا ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ولا شأن لنا بالآخرة !

نتائج استحباب الدنيا على الآخرة :

والقرآن الكريم يعالج هذه الحالة ويشير الى هذا النمط من التفكير في قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (ابراهيم/٣) ، فيفضلون الحياة الدنيا ولسان حالهم يقول : مادامت هذه الدنيا عاجلة وحاضرة فمن يبيع النقد بالدين ، ومن ذا الذي يبيع بضاعة مقابل ثمن يدفع في المستقبل ، وهذه هي بداية ولعلها تكون بداية بسيطة ولكن نهاية هذا النمط من التفكير ستكون نهاية سيئة ، لان من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة سيبتلي بعدة صفات سلبية منها :

١- انغلاق القلب : ان قلب هذا الانسان سيصبح قلبا منكرا ومغلقا لانه لايرى الا هذه الدنيا ، ولا يرى الآخرة وما وراءها . فاذا فقد عزيزا او صديقا فانه يبدأ يفلسف فقدانه لهذا الانسان بألف تفسير وبطريقة لاتمت اليه بصلة ؛ أي أنه يبعد الموت الذي جاء لهذا الانسان عن نفسه ، ويتصور أنه سوف لايشمله ، وعلى العكس فان الانسان الذي يدرك ان الدنيا محدودة ولايفضلها على الآخرة فان قلبه سيكون متفتحا يستوعب العبرة والنصيحة .

٢- انكار الحقائق : ان الانسان الذي يفضل الدنيا على الآخرة لايلبث ان يبدأ بانكار الحقائق الآخرى ، فينكر رسالات الله - تعالى - ، لان هذه الرسالات لايؤمن بها الا من يخشى الله ويخشى العقاب ويرجو الثواب ، اما الانسان الذي يقول : ماهي الا حيانا الدنيا وما يهلكنا الا الدهر ، فانه لايمتلك دافعا يدعوه الى ان يؤمن برسالات الله ، ولذا نرى هذا الانسان يتخذ من الكفر منهجية له في الحياة ، وعن مثل هؤلاء يقول - سبحانه - : ﴿ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النّحل/٢٢) ، وفي آية اخرى يربط القرآن الكريم بين الكفر بلقاء الله ، والكفر بسائر الحقائق في قوله - عز من قائل - : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ الآخِرَةِ ﴾ (المؤمنون/٣٣) ، وعلى هذا فان الكفر هو احدى

النتائج القريبة من التكذيب بالآخرة .

٣- تزين الاعمال : ان اعمال هؤلاء الكافرين بلقاء الله تتزين لهم ؛ فهم يعتبرون جميع اعمالهم السيئة حسنة وان سرقوا وخانوا الأمانة واعتدوا على الآخرين ... لانهم لايمتلكون معيارا ، ولايستطيعون ان يفرقوا بين الحق والباطل ، ولانهم لايعيشون الا لهذه الدنيا ، ولذلك يقول - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (النمل/٤) ، ولذلك فان من المستحيل لهذا الانسان ان يتوب ويقلع عن اعماله السيئة ، وفي آية اخرى يقول - جل وعلا - : ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (يونس/١١) ؛ فالذي لايرجو لقاء الآخرة يتركه الله لشأنه ، فلا يهديه ولايزوده بنور .

٤- المبادرة الى التكذيب : ان هؤلاء سوف يبتعدون عن الصراط المستقيم بمسافات شاسعة كما يقول - جل وعلا - : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ ﴾ (سبأ/٨) ، فقد يسير الانسان في الطريق فينحرف عنه لمسافة قصيرة ، ولكن انحرافه هذا قد يكون لمسافات شاسعة ، وفي هذه الحالة لاترجى له العودة الى الطريق المستقيم .

٥- المجادلة بالباطل : ان هؤلاء الكفار يبحثون دائما عن افكار باطلة يتشبثون بها ويقاومون من خلالها الحقائق ، والى هذا المعنى يشير قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (السجدة/١٠) ، فلأن هؤلاء كفروا بلقاء الله ، ولانهم لم يعتقدوا بوجود الآخرة والحساب والكتاب نراهم لايعترفون بامكانية العودة الى الحياة مرة أخرى ، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، فيقول امثال هؤلاء : من ذا الذي يستطيع ان يجمع ذرات الانسان بعد موته ليحولها الى الوجود الاول ؟

انك ايها الانسان المنكر ألم تكن في بداية خلقك سوى نطفة ، ثم خلق الله - تعالى - من تلك النطفة وجودك المتكامل ، أفليس بقادر على ان يجمع هذه الذرات ليعيدها الى حالتها الاولى ؟

وهناك من يبرر عدم ايمانه باساليب اخرى ، فيقول - على سبيل المثال - اننا لانريد هذا القرآن بل نريد كتابا آخر ، غافلين عن ان الرسالات السماوية لايمكن ان تتبدل ، وقد اشار - عز وجل - الى مجادلة هؤلاء قائلا : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِي ﴾ (يونس/١٥) ، فهم يتصورون ان الرسول (ص) هو الذي يأتي بالقرآن من عنده ، ولذلك فقد طلبوا منه ان يبدله في حين ان القرآن هو وحي منزل من السماء ، والرسول لايستطيع ان يغير منه حرفا واحدا والقرآن يؤكد ذلك في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (الكهف/١١٠) .

الا ان قلوب هؤلاء أصبحت منكرة وعقولهم مضطربة لانهم لايؤمنون بالآخرة ، على ان الأمر لم ينته عند هذا الحد ؛ فقد طالبوا الرسول باكثر من ذلك ، وهذا ما يرويه لنا القرآن الكريم في قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلآئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ (الفرْقان/٢١) ، متناسين ان ذرة واحدة من نور الله - جلت قدرته - لو نزلت على جبل لدكته وجعلته هشيما ، فنحن لانستطيع ان ننظر الى نور الشمس ولو لدقيقة واحدة فكيف يمكننا ان نرى نور الله ؟

ثم يستأنف العلي القدير قائلا :

﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ (الفرْقان/٢١) ، وهذا نوع من الاستكبار يدفع الانسان الى ان يطالب بانزال الملائكة عليه في حين انها لاتنزل الا على قلب معمور بالايمان ، فكيف تنزل على هؤلاء الكفار والمشركين المليئة قلوبهم بالرذائل والاحقاد ؟!

الصبر دعامة الايمان :

وعلى هذا فان تلك الافكار الباطلة التي جادل بها اولئك الكافرون ناجمة كلها من عدم ايمانهم بالآخرة ، وعدم صبرهم على فهم الحقيقة ، ولذلك فان الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) يعتبر (الصبر) اول دعائم الايمان ، والصبر بدوره يتشعب الى أربع شعب هي : " الشوق والشفق والترقب والزهد ، ثم يقول (عليه السلام) : " فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات " ، فالصبر هو اساس الايمان ، وهو بمثابة الغاء المسافة بيننا وبين الآخرة ، كما ان اساس الايمان الاعتبار بمن مات والاعتقاد بحتمية الموت كما قال - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران/١٨٥)

ان هذه المسافة هي مسافة هذا النفس الذي يصعد فلا ينزل او ينزل فلا يصعد ، وهي مسافة لاتستغرق سوى لحظات ، والانسان الذي يلغي هذه المسافة بينه وبين الآخرة تراه يشتاق دوما الى الجنة ، ويشفق من النار ويترقب الموت ، وهذه هي المعاني التي اشار اليها أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله :

" فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ، ومن زهد في الدنيا رغب في الآخرة ، ومن ترقب الموت هانت عليه المصيبات " .

فاذا اراد الواحد منا ان يزداد ايمانا فعليه ان ينمي في داخله وعي الآخرة ، ويجعل حياته حياة من يترقب الموت ، وكفى بالموت واعظا ، فلنبن حياتنا على اساس الايمان بالموت لا ان نفعل العكس .

الآثار الايجابية للايمان بالموت :

والانسان الذي يوقن ان الموت نازل عليه تراه يكون انسانا شجاعا ، فمادام جسده سوف ينتهي فلماذا لايبيعه في سبيل الله - تعالى - ؟ وبالاضافة الى ذلك فان الانسان الذي يعتقد انه سيموت في أية لحظة يكون صادق الكلام ، ويكون تعامله مع

الناس عادلا فلا يأكل اموالهم بالباطل ويسارع في الخيرات .. فكل عمل صالح يحتاج اليه الانسان ولذلك يجب ان لايستصغر اي عمل .

كما ان الانسان الذي يعتقد بالموت يكون قلبه متعاليا على هذه الدنيا ، فتراه يعيش دائما مطمئن القلب ، ولذلك فان المصائب تهون عليه لانه يضع الموت نصب عينيه دائما .

وبناء على ما اسلفناه فان مما يجعلنا نزداد ايمانا ان نؤمن بلقاء الله - تبارك وتعالى - ، وان لانغفل عن هذا اللقاء ، وبالاضافة الى ذلك فان الايمان بالآخرة يجعلنا نؤمن بكل الحقائق ايمانا راسخا وعميقا .



الفهرس

المقدمة ٣

الباب الاول : المعرفة الربانية ٥

الفصل الاول / معرفة الله قمة الغايات ٧

الفصل الثاني / الطريق الى معرفة الله ١٥

الفصل الثالث / السبيل الى المعرفة الالهية ٢٣

الفصل الرابـع / كيف نحيى ربانيين ؟ ٣٤

الفصل الحا مس / تجليات اسماء الله في الحياة ٣٩

الفصل السادس / اسماء الله تتجلى في احكامه ٤٦

الفصل السابع / الاسماء الحسنى تجليات السنن الالهية ٥٢

الباب الثاني : حقيقة التوحيد ٦١
الفصل الاول / التوحيد قمة الهرم القيمي ٦٣
الفصل الثاني / التسليم شرط التوحيد ٧٠
الفصل الثالث / فلسفة التوحيد ٧٩
الفصل الرابع / العقل دليل التوحيد ٨٥
الفصل الخامس / السبيل الى اليقين ٩١

الباب الثالث : تجليات التوحيد ١٠١
الفصل الاول / ذكر الله اساس الاستقلال ١٠٣
الفصل الثاني / التوحيد حصن المؤمن واستقلاله ١١٠
الفصل الثالث / التوحيد سبيلنا الى الاستقلال ١١٤
الفصل الرابع / الاساس التوحيدي للعلاقات ١٢٣
الفصل الخامس / التوحيد منطلق محاربة الطاغوت ١٣١
الفصل السادس / التوحيد يتحدى ١٣٨

الباب الرابع : واقع الشرك ١٤٥
الفصل الاول / رفض الشرك شرط العبادة ١٤٧
الفصل الثاني / اثر الشرك في الواقع الاجتماعي ١٥٣
الفصل الثالث / الاستكبار افراز الشرك بالله ١٦١
الفصل الرابع / الشرك مصدر التبرير ١٦٦

الفصل الخامس / الشرك هروب من المسؤولية ١٧٥

الباب الخامس : في حصن اللـه ١٨٥

الفصل الاول / ولاية الله حصن المؤمن ١٨٧

الفصل الثاني / تحكيم ولاية الله في التفكير والعمل ١٩٤

الفصل الثالث / مظاهر العظمة الالهية في الكون ١٩٩

الفصل الرابـع / كلمة التوحيد حصن الله ٢٠٦

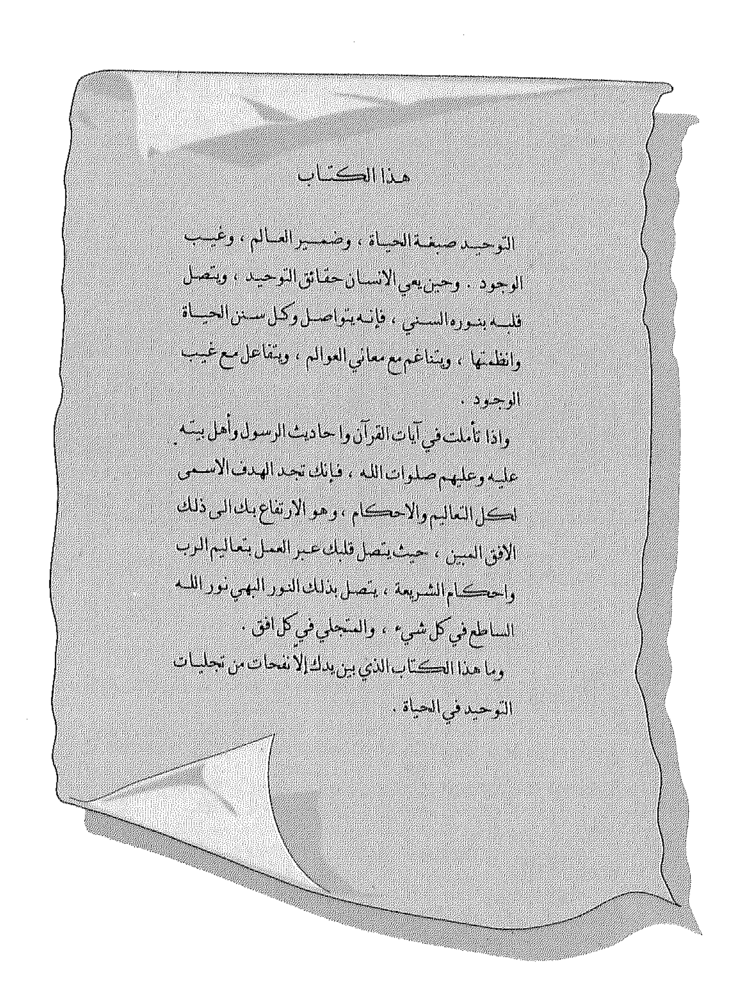
الفصل الخامس / هل ندخل حصن الله ٢١٢

الفصل السادس / كيف نوطد العلاقة مع بارئنا ؟ ٢٢١

الفصل السابـع / الايمان بلقاء الله منبع الفضائل ٢٣١







هذا الكتاب

التوحيد صبغة الحياة ، وضمير العالم ، وغيب الوجود . وحين يعي الانسان حقائق التوحيد ، ويتصل قلبه بنوره السني ، فإنه يتواصل وكل سنن الحياة وانظمتها ، ويتناغم مع معاني العوالم ، ويتفاعل مع غيب الوجود .

واذا تأملت في آيات القرآن وا حاديث الرسول وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ، فإنك تجد الهدف الاسمى لكل التعاليم والاحكام ، وهو الارتفاع بك الى ذلك الافق المبين ، حيث يتصل قلبك عبر العمل بتعاليم الرب واحكام الشريعة ، يتصل بذلك النور البهي نور الله الساطع في كل شيء ، والمتجلي في كل افق .

وما هذا الكتاب الذي بين يدك إلا نفحات من تجليات التوحيد في الحياة .



طهران : ص . ب ۴۸۵ / ۱۱۱۷۵ تلفن : ۳۵۳۳۲۹